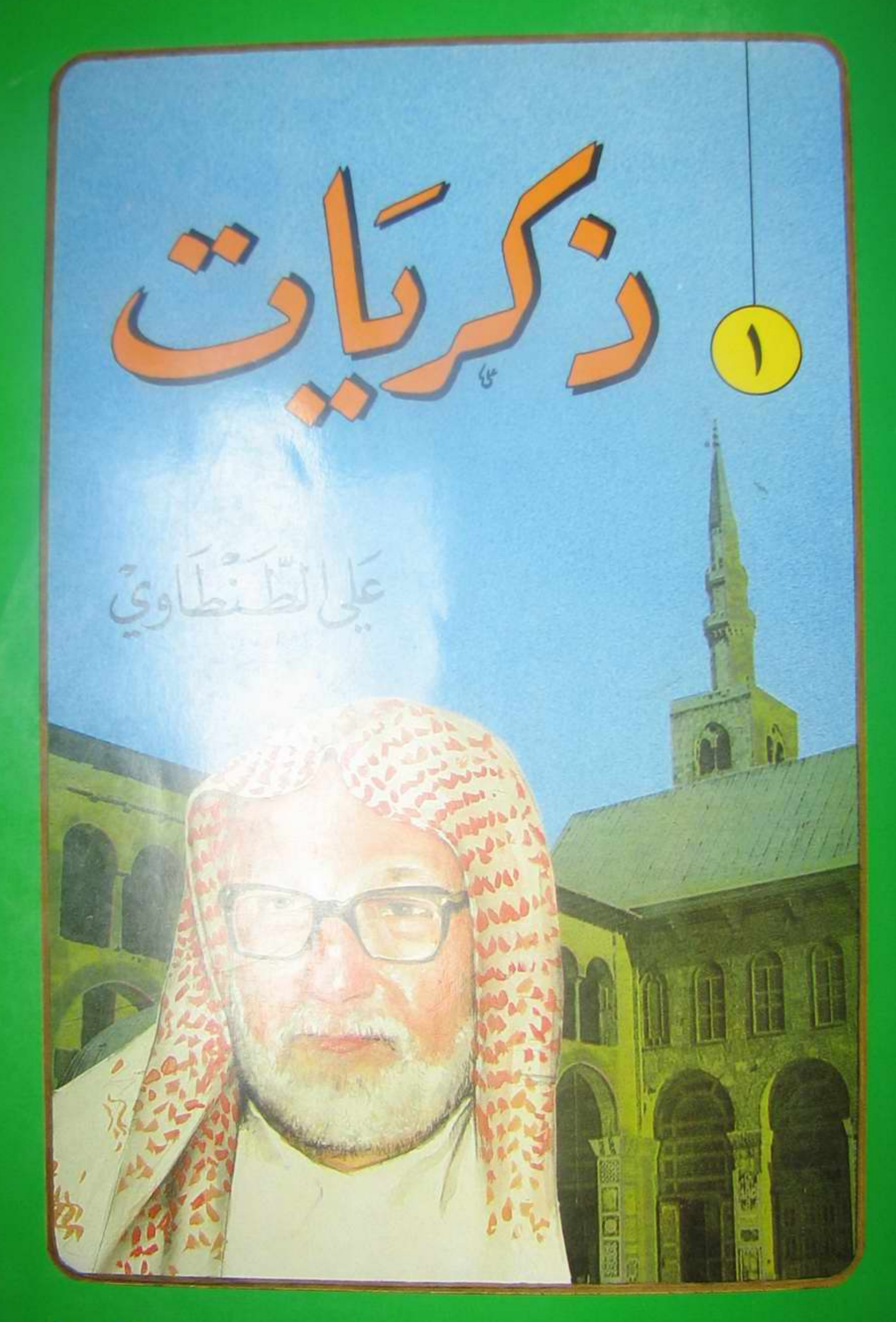
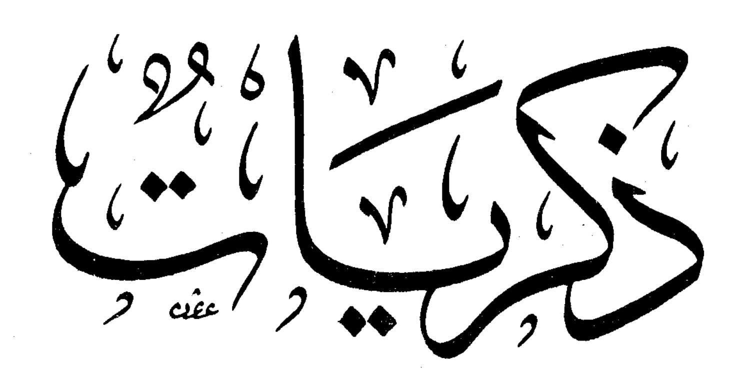


دار المنارة للنشر ـــــــــ السعودية - جدة



علي الطنطاوي

(١)

دار المنارة
للنشر
السعودية - جدة

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار المنارة
للنشر
السعودية - جدة

هاتف: ٦٦٠٣٢٣٨ - ٦٦٠٣٦٥٢ - تلكس: ٤٠٣٠٦٧
ص.ب: ٢١٤٣١/١٢٥٠

ذكريات

علي الطنطاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم. اللَّهمَّ لك الحمد، اللَّهم وفقنا لما ترضى، واختم لنا بالحسنى...

وبعد:

فهذه ذكرياتي. حَمَلْتُها طول حياتي، وكنت أعدُّها أغلى مقتنياتي، لأجد فيها يوماً نفسي، وأسترجع أمسي، كما يحمل قِربةَ الماء سالكُ المفازة، لتردَّ عنه الموتَ عطشاً، ولكن طال الطريق، وانثقبت القربة. فكلما خطوتُ خطوةً قطرت منها قطرة، حتى إذا قارب ماؤها النفاد، وثقل عليّ الحمل، وكلَّ مني الساعد، جاء من يرتق خرقها، ويحمل عني ثقلها، ويحفظ لي ما بقي فيها من مائها، وكان اسمه (زهير الأيوبي).

جاءني يطلب مني أن أدوّن ذكرياتي في مجلة (المسلمون) لمّا عزم الأخَوان الأستاذان هشام ومحمد ابنا أخي الأستاذ علي حافظ على إصدارها، وكان نشرُ هذه الذكريات إحدى أمانيّ الكبار في الحياة، ولطالما عزمت عليها، ثم شغلت عنها، وأعلنت عنها لأربط نفسي بها، فلا أهرب منها، ثم لم أكتبها، بل أنا لم أشرع بها، لأني لا أكتب إلا للمطبعة، لذلك لم أجد عندي شيئاً مكتوباً أرجع عند تدوين الذكريات إليه، وأعتمد عليه، وما استودعتُ الذاكرةَ ضعفت الذاكرةُ عن حفظه، وعجزتْ عن تذكُّره، لذلك أجّلت وماطلت، وحاولت الهرب من غير إبداء السبب، وهو يحاصرني، ويسدّ المهارب عليّ، ويمسك بأدبه ولطفه وحسن مدخله، يمسك لساني عن التصريح بالرفض، ثم اتفقنا على أن

أحدِّث بها واحداً من إخواننا الأدباء، وهو يكتبها بقلمه، واخترنا الأخ العالم الأديب إبراهيم سرسيق، فسمع مني، ونقل عني، وكتب حلقتين، كانتا من براعة الاستهلال لهذا الكتاب، وما قصَّر أحسن الله إليه، بل لقد تطوّل، وأحسن وأجمل، ولكن لا يحكّ جسمك مثل ظفرك، فكان من فضله عليّ أن أعاد بعض نشاطي إليّ، فبدأت أكتب.

ولولا زهير الذي اقترح، ولولا إبراهيم الذي نشّط وشجع، لما كتبتُ، فلهما وللأستاذين هشام ومحمد، ولَدَي الأستاذ علي حافظ، وابني أخ الأستاذ عثمان حافظ، رائد الصحافة في هذا البلد، لهم الشكر.

والشكر لولدي وصهري صاحب «دار المنارة» التي تقدِّم الطبعة الأولى من هذه الذكريات، ولحفيدي الذي عمل على ترتيبها وتنسيقها وإعدادها للطبع، وإن كان صهري محمد نادر حتاحت وحفيدي مجاهد ديرانية مني - ليسا غريبين عني، فإن شكرتهما فحمداً لله أن رزقني مثلهما، وإلّا فما يشكر امرؤ نفسه.

والشكر للأستاذ محمد علي دولة، الذي آثر العمل في نشر الكتب على التعليم الذي كان من أهله، وكان موفّقاً فيه، لما يجد في النشر من نفع الناس ورجاء ثواب الله. فهو الذي وقف على طبع الكتاب، ووضع فيه ذوقه وفنّه وخبرته وتجربته.

* * *

بدأت كتابة الذكريات وليس في ذهني خطّة أسير عليها، ولا طريقة أسلكها، وأصدق القارىء أني شرعت فيها شبه المكره عليها، أكتب الحلقة ولا أعرف ما يأتي بعدها، وكثيراً ما كنت أنسى ما الذي كتبته في التي قبلها، فجاءت غريبة عن أساليب المذكرات، وطرائق المؤرخين، فمن المؤرخين من مشى مع السنين، اقتداء بشيخهم وشيخ المفسرين (الطبري)، فقطّع الحادث الواحد تقطيعاً، فأضاع وحدته، وأبلى جدّته، وفهم من جمع الأحداث ربط مبداها بمنتهاها، ولكنه أخفى زمانها.

ووجدت الذين كتبوا مذكراتهم في هذه الأيام منهم من اعتمد على وثائق

مدوّنة، أو وصفاً للحادثات كتبها في حينها، وأنا لا أملك إلا بعض الأوراق الرسمية المدرسية، أو الوظيفية، أو الصور الشمسية، وكثير منها لم يكن تحت يدي وأنا أكتب، وقلت لنفسي: إن جاءت مهوّشة على غير نظام، فكذلك الدنيا، الدنيا فيها صحو ومطر، ومسرّة وكدر، ويسر وعسر، وضحك وبكاء، وشدة ورخاء. ولكن هل يأتي ذلك على ترتيب معروف، ونهج واضح؟

كذلك جاءت ذكرياتي.

ولعلي إن مدّ الله في الأجل، ونشّطني للعمل، أعود إليها، فأستأنف النظر فيها، فأنظمها في خيط واحد، أضمّ النظير إلى نظيره، أجمع الأشباه، وأؤلف بين النظائر، حتى يأتي الحديث مسلسلاً. وإن لم يقدَّر لي ذلك فحسبي أن أنقذت من النسيان ما أمكن إنقاذه.

هذا وأنا إلى الآن قد كتبت، أو أنا على الصحيح قد أمليت وكتبوا، مئة وثلاثين حلقة، ولا أزال في سنة ١٣٥٩ هـ، فهل أصل إلى نهاية الشوط؟

اللهم إن أحييتني فوفقني لما يرضيك، وإن توفيتني فعلى دينك، واكتب لي بكرمك العفو عن سيئاتي، والنجاة يوم الحساب.

مكة المكرمة: صفر ١٤٠٥ هـ

علي الطنطاوي



- ١ -

ذكريات لا مذكِّرات

هذه ذكريات وليست مذكرات. فالمذكرات تكون متسلسلة مرتبة، تمدها وثائق معدّة، أو أوراق مكتوبة، وذاكرة غضة قوية، وأنا رجل قد أدركه الكبرُ، فكلَّت الذاكرة، وتسرب إلى مكامنها النسيان، والنسيان آفة الإنسان، وإن كان نعمة من الله، ولولا أن المرء ينسى آلام الحياة، ما استطاع السكون إليها، ولا الرضا بها.

وليس لديّ أوراق مكتوبة، أدوّن فيها الحادثة حين حدوثها، وأصف أثرها في نفسي، وهذا تفريط كان مني، لم يعد إلى تداركه من سبيل، لذلك أوصي كل قارىء لهذه الفصول أن يتخذ له دفتراً، يدون فيه كل عشية ما رأى في يومه، لا أن يكتب ماذا طبخ وماذا أكل، ولا كم ربح وكم أنفق، فما أريد قائمة مطعم، ولا حساب مصرف، بل أريد أن يسجل ما خطر على باله من أفكار، وما اعتلج في نفسه من عواطف، وأثر ما رأى أو سمع، في نفسه، لا ليطبعها وينشرها، فما كل الناس من أهل الأدب والكتابة والنشر، ولكن ليجد فيها يوماً نفسه التي فقدها.

لا تعجبوا من هذا الكلام، فنحن في تبدل مستمر، كل يوم يموت فيّ شخص، ويولد شخص جديد، والميت أنا، والمولود أنا، خلايا جسدي تتجدد كلها كل بضع سنوات حتى لا يبقى منها شيء مما كان[1]، عواطف نفسي تتبدل

(١) وإن كانت خلايا الدماغ، كما قالوا، أطول بقاءً، وأقل تبدلاً.

فأحب اليوم ما كنت أكره بالأمس، وأكره ما كنت أحب. أحكام عقلي تتغير فأصوّب ما كنت أراه خطأ، وأخطّىء ما كنت أجده صواباً.

فإذا كانت خلايا الجسد تتجدد، وعواطف النفس تتغير، وحكم العقل يتبدل، فما هو العنصر الثابت الذي لا يتبدل ولا يتغير؟.

أقول: (قال لي عقلي)، و (قلت لنفسي)، فمن أنا إذن، إذا كان عقلي غيري فأقول له، وكانت نفسي غيري فتقول لي؟.

العنصر الثابت الباقي هو الذي لا ينقص إن قطع عضو من أعضائي، ولا يموت إن مت بل يبقى حيّاً يحاسب، فيكافأ أو يعاقب. هذا العنصر هو (أنا) الحقيقي، وهو شيء من غير عالمنا الأرضي، فلا تنطبق عليه قوانين علومنا الأرضية، هو الروح(١).

هذا تفسير قولي إن من تعوّد أن يكتب كل يوم في هذا الدفتر، وجد فيه يوماً نفسه التي فقدها.

* * *

قلت: إني أدون ذكريات، لا أكتب مذكرات، أنا لا أستطيع أن أكتب قصة حياتي متسلسلة مرتبة، لأني أعتمد على ذاكرة فقدت حدّتها، وأبلت الأيام جدّتها، فقد أنسى الحادثة في موضعها. ثم أذكرها في غير موضعها.

وعيب آخر عندي، هو عيب كتب الأدب العربي القديم، ومن نشأ عليها وألفها، هو الاستطراد، والخروج عن الموضوع. هذا كتاب الحيوان للجاحظ مثلاً، أسأل من قرأه منكم: كم في أبوابه مما يدل عليه عنوانه؟ هل التزم فيه علم الحيوان (أي علم الحياة) أم ذهب به الاستطراد يميناً وشمالاً، فتكلم في كل شيء؟ هذا هو أسلوب كتبنا الأدبية فلا تلوموني ـ وقد نشأت عليها ـ، أن أسلك سبيلها.

لقد صار الاستطراد عادة لي. أعترف أنها عادة سيئة، ولكن ما أكثر

---

(١) هذه المعاني أفضت فيها موسعة في كتبي وفي أحاديثي في الإذاعة والرائي.

العادات السيئة التي لزمتنا فلم نستطع الانفكاك عنها. ولو كانت من المحرمات لأكرهت نفسي على تركها فليس لمسلم يأتي المحرمات أن يحتج بتعوده عليها، ولكنها لسوء حظي ليست من المحرمات.

ولطالما كنت أخطب في الحشد الكبير، أو أتكلم في الإذاعة أو الرائي (أي التلفزيون)، وأحاديثي فيهما كلها ارتجال، ليس أمامي ورقة مكتوبة أقرأ فيها، فأستطرد وأخرج عن الخط، فإذا انتهى الاستطراد، وقفت كما وقف حمار الشيخ في العقبة، فلا أذكر من أين خرجت، ولا إلى أين أعود.

ولا تسألوني من هو هذا الشيخ، فإن المثل خلَّد ذكر الحمار، ونسي اسم الشيخ، ليعلمنا أن خلود الأسماء ليس الدليل على عظمة أصحابها.

والمذكرات يكتبها أرباب المناصب، ورجال السياسة، وقادة الجيوش، الذين شاركوا في صنع الأحداث، فاستحقوا أن تكون مذكراتهم من مصادر التأريخ لهذه الأحداث، بعد ضرب بعضها ببعض، وتمحيص ما ورد فيها، لأن كل خباز يجر النار إلى قرصه، وكل راوٍ لقصة يكبِّر دوره فيها، ويصغر أو يمحو دور غيره.

ولست من هؤلاء، وإن كنت قد شاركت من فوق المنبر، أو من وراء المذياع، أو من سطور الصحف والكتب، في كثير من الأحداث في بلدي. شاركت فيها، ولم أكن من صانعيها، ولا من قاطفي ثمارها. وإني طول عمري أقرب إلى العزلة، أعيش بين كتبي وقلة من إخواني، ذهب جلُّهم إلى رحمة الله.

وقد يقرأ امرؤ ما كتبت في الحادث العظيم، أو يسمع ما قلت فيه، فيحسب أني أنا مدبّر الأمر وأني مديره، لا يعلم أني جئت من بيتي، فدخلت من الباب الخلفي إلى المنبر، ثم نزلت من المنبر فخرجت من الباب الخلفي إلى بيتي، وإن كانت لي مواقف حولت مسار الحوادث، وأقامت وأقعدت، وأثارت وحمست، لا يزال يذكرها كثير من أهل بلدي.

عفواً فأنا لا أمدح نفسي، وأنا أعلم أن الحديث عن النفس ثقيل على السمع، وكلمة (أنا) ليست من الكلمات المستساغات، ولكن ماذا أصنع وأنا

أدون ذكريات موضوعها (أنا)، فإن لم أتكلم عن نفسي في سرد ذكرياتي، فعمن تريدون أن أتكلم؟.

ولكن لكم عليّ عهداً، أنا موف به إن شاء الله، هو ألا أقول إلّا الحق، وألا أذكر مما صنعت إلّا ما يشهد كل من (عاصره) أنني صنعته.

وبيان آخر: الجندي حين يمشي في مهمة عسكرية، يمضي إلى غايته قدماً، لا يعرج على شيء ولا يلتفت إليه، ولكن السائح يسيرمتمهلاً، ينظر يمنة ويسرة، فإن رأى منظراً عجيباً وقف عليه، وإن أبصر شيئاً غريباً صوره، وإن مر بأثر قديم سأل عن تاريخه، فيكون له من سيره متعة، ويكون له منه منفعة، وأنا لا أحب في هذه الذكريات أن أمشي مشية الجندي، بل أسير مسيرة السائح.

لا أكون مغمض العينين لا يرى من الدنيا إلّا نفسه، كالذي يدخل بهو المرايا في (ڤرساي)، ولا أريد أن أتحدث عن نفسي وحدها وأغفل ما حولي، ولعل وصف ما كان حولي أجدى على القراء من سرد قصة حياتي وحدها.

ذلك أن ما كان في صغري أمراً عادياً صار الآن عند أكثر الناس تاريخاً.

دمشق التي عرفتها وأنا صغير ليست دمشق التي نراها الآن، تبدلت دُورُها وحاراتها وأزياء أهلها، وكثير من أعرافهم وأوضاعهم، ودخل الحديث عنها في باب التاريخ.

* * *

ولست أصف هنا دمشق، فإن لي كتاباً اسمه (دمشق)، فيه صور من جمالها، وعبر من نضالها، ونشرت في الرسالة في عشر الثلاثين من هذا القرن الميلادي (أو الثلاثينيات كما تقولون) مقالات كثيرة عنها.

وفي الدنيا اليوم مدن كثيرة موغلة في القدم، حتى أن التاريخ (نفسه) لم يدرك ولادتها، ولكن دمشق أقدم المدن العامرة المسكونة في الدنيا. وفي الدنيا مدن كثيرة بارعة الجمال، ولكن دمشق (في نظر أهلها على الأقل) أجمل مدن الدنيا.

أو كانت أجمل بلاد الدنيا، فأفسدنا نحن (أهلها) جمالها. أدهشت غوطتها

العرب لمّا رأوها، فأنطقت شعراءهم بروائع البيان، وخوالد القصائد.. فأين اليوم الغوطة؟.

الغوطة الغربية، قطعنا أشجارها، وقلعنا أورادها وأزهارها، ورمينا فوق رأسها الحجارة والأبرق (أي الاسمنت المسلح)، فقتلناها خنقاً، ودفناها حية، وأقمنا عليها بيوتاً طبقاتها صناديق وعلب لسردين البشر.

تبدلت دمشق حتى جوها. من كان يحتاج في صيف دمشق إلى مراوح فضلاً عن المكيفات؟ متى كانت تصل الحرارة فيها إلى أربعين درجة مئوية؟ كان إخواننا من أهل المملكة السعودية، وأهل العراق، يصيفون في دمشق نفسها، وما كنا نحن أهل دمشق نعرف الانتقال في الصيف إلى الجبال.

فما الذي غيرها؟ من ألهب هواءها وسدَّ مسارب النسيم الناعش إليها؟ نحن، نحن الذين قطعوا أشجارها. الناس يزرعون ونحن نقلع، وهم يحولون الصحارى بساتين، ونحن نمسخ البساتين صحراء، ما صنعنا هذا اليوم، ولا قبل خمس سنين، بل هي جناية جنيناها على دمشق من عشرات مضت من السنين، حتى ضاع الجاني وقيدت (جناية من مجهول)!.

حتى الغوطة الشرقية، الغوطة الكبرى، ما سلمت منا، ولا نجت من أذى أيدينا، في طرف الغوطة منطقة تدعى (درب الجوز) أعرفها أنا، فيها من أشجار الجوز ما لا يحيط بجذع الشجرة منه رجلان إذا مدا أيديهما، لست أدري من هو العبقري الذي اختارها لمنطقة المصانع، ولا متى كان ذلك، فقامت مكان الأشجار الضخمة، التي تثمر الجوز، مداخن تنفث الدخان.

* * *

الذي يقف على باب داره يرى الطريق، والدكاكين والمارة، رؤية وضوح وبيان، ولكنه لا يرى ما بعد المنعطف، ولا ما وراء الحي. فإن صعد المنارة رأى الحي كله، فاتسعت ساحة النظر، ولكن قلَّت تفاصيل المنظور. فإن ركب الطيارة أبصر البلدة كلها، بنظرة شاملة لأطرافها مبينة لحدودها، لكنها مضيعة لتفاصيلها، ماحية لدقائقها.

فما صورة دمشق التي عرفتها وأنا صغير؟.

كنت إذا صعدت جبل قاسيون، وبدت لي دمشق بغوطتيها، وانجلت لعيني لوحة عرضها أكثر من عشرين كيلاً، ألفُّها بنظرة واحدة من شرفة داري أرى الدنيا كلها تجمعت مصغرة فيها: فالعمران في البلد يتوسطه الجامع الأموي وقبة النسر التي كانت منذ كانت من أعظم القباب التي أقامها العقل المفكر واليد الصناع، والحدائق والجنات من حولها، وبردى وأبناؤها الستة تجري من تحتها، والمزة تنظر إليها، وقاسيون يطل عليها، وسهول المزة والكسوة تجاورها.

فيها كل ما في الدنيا من سهل وجبل، وبستان وقفر، وساقية ونهر، ومسجد وقصر، إلّا البحر، على أنك ترى حول البلد (أو كنت ترى) بحراً من الخضرة والنبت والشجر.

وأرى دمشق كأنها طائر حط ليستريح جسده وسط السور، وجناحاه ممتدان إلى ميدان الحصى، وحي المهاجرين.

أو كأنها عروس أتعبتها حفلة الزفاف، فنامت: رأسها على ركبتي قاسيون، وقدماها في قرية (القدم)، وقلبها حيال قلب البلد، الذي يهفو إليه قلب كل مسلم، وهو المسجد، الجامع الأموي أقدم المساجد الفخمة في ديار الإسلام[1]، وإن كان التأنق في تفخيم المساجد، وتزويقها وزخرفتها مما لا يستحسنه الإسلام.

على أني سأعود، ثم أعود، إلى الحديث عن دمشق، والحديث عن دمشق لا يمل، ولو أني كتبت عن كل شهر عشته فيها صفحتين، لكان من ذلك كتاب أكبر من القاموس المحيط.

أرجع إلى ذكرياتي

قرأتم في بعض ما كتبت قديماً قصة الساعات التي قضيتها في الكتاب. بل الذي قرأتموه هو بعض القصة، طرف منها.

في المحكمة يحلفون الشاهد بأن يقول الحق، كل الحق، ولا شيء غير

---

(١) حاشا الحرمين.

الحق، ذلك لأن بعض الحق أقرب إلى الباطل، والذي قرأتموه عن ساعاتي في ذلك الكتاب صحيح، ولكنه بعض الحق.

كانت تلك الساعات أمرّ مما قرأتم عنها، وكان جرحها في نفسي أعمق، وحسبكم أن تعلموا أنه مر عليها اليوم سبع وستون سنة ولم أنسها، ولكني لم أعد أحس ألمها، لأنني حين أتحدث عني وأنا صغير أكون كمن يتحدث عن إنسان آخر، هو أنا، وليس أنا.

لا أتفلسف، ولا آتي بالأحاجي والألغاز، بل أقرر حقيقة.

قلت لكم: إنه مر في حياتي عشرات من الناس، كلهم يحمل اسمي، وكلهم (أنا) بمعنى الكلمة عند زملائنا أساتذة علم النفس، وما منهم إلّا واحد هو أنا بإحساسي وعاطفتي وفكري.

حسبتموني قد أثَّر فيّ الكبر، فخرفت؟ أتريدون أن أفسر لكم ما قلت. قفوا على الجسر وراقبوا ماء النهر يجري تحت أرجلكم، هل ترون قطرة تقف، أليس كل ما ترونه قطرات يدفع بعضها بعضاً؟ واحدة تروح فلا ترجع أبداً، وواحدة تأتي على أثرها فلا تقف أبداً.

إنه أبداً في تبدل، في تجدد، لا يمكن مهما أطلت الوقوف على الجسر، ومهما عدت فوقفت من جديد، لا يمكن أن ترى قطرة واحدة مرتين وكذلك الإنسان، إنه في تبدل وتجدد.

ولكن هذا التبدل لا يفقد النهر اسمه، ولا خصائصه، ولا يجعل النيل دجلة، ولا دجلة بردى، ولا بردى نهر التايمس.

وكذلك الإنسان، تبقى شخصيته ثابتة، فلا يصير زيد عمراً، ولا صالح بكراً.

لذلك أشكر أخي زهيراً[١] أن أرجعنى القهقرى في طريق العمر، حتى لقيت ما

---

(١) أعني الأستاذ زهيراً الأيوبي الذي كان له الفضل الكبير في تدوين هذه الذكريات.

أضعت من نفسي، حين ألزمني كتابة هذه الذكريات، وغرَّه مني شيبتي وشبابه، فأمسك بي بقبضة لم أستطع الإفلات منها، وبعث في أثري شرطياً عنيفاً هو إبراهيم سرسيق، رجل له لسان طري لين، ويد طويلة قاسية، فسحبني بلسانه، ولف عليّ يده.

ولو جاءاني من أربعين سنة، وأنا في مثل سنهما، لما قدرا عليّ، ولو كانت هذه الكتابة يومئذ لكتبت غير هذا الذي أكتبه الآن.

كنت أغرف من بحر وأنا اليوم أنحت في الصخر. كان الفكر شاباً فشاخ، فمن قال لكم أن الفكر لا يشيخ فلا تصدقوه.

كان قلمي يجري على القرطاس كفرس السباق، لا أستطيع أن أجاريه، فأمسى كالحصان العجوز، أجره فلا يكاد يجر.

كانت المعاني حاضرة، والقلم مستعداً، ولكن الصحف مفقودة أو قليلة، وكنا نكتب بلا أجر فلا نجد من ينشر لنا، فكثرت المجلات وزادت الأجور، ولكن كَلَّ الذهن، وثقل القلم، وضعفت الذاكرة. كنا جياعاً فقدنا الطعام، فلما حضر الطعام فقدنا الشهية!.

كنت كمن أقام مصنعاً، جلب له أحسن الآلات، وشغل فيه أقدر العمال. وأخرج منه أجود المنتجات، فلم يجد لها شارياً، ومل الانتظار، فباع البضاعة جزافاً، وسرَّحَ العمال، وباع الآلات... فأقبل عليه الشارون، وتواترت الطلبات.

- ٢ -
من ذكرياتي عن دمشق

الحياة الحب والحب الحياة. هذا ما قاله (أحمد) شوقي، الشاعر الذي لم يأت بعد (أحمد) المتنبي من هو أشعر منه، ولا (أحمد) الأوسط أي المعري، ولكني لست في هذا معه، فقد يموت المحب ويعيش ناس بلا حب. وما أنا من أنداد شوقي، لكن لو قال: ما العيش إلّا الذكريات، لكان أصدق.

النبات يمتص حياته من أرضه بجذوره، فإن نقلته منها تقطعت، فذبلت الأوراق وتراخت العروق، والإنسان في هذا كالنبات، وجذوره ذكرياته، فإن نقلته إلى بلد ما له فيها ذكرى، وما تربطه بها رابطة، أحس كأن قد انقطع سلك حياته، فإذا أقام في البلد الجديـد اتصل المنقطع، كالنبات يضرب جذوراً جديدة في المكان الجديد، وتنمو وتمتد كلما امتد به المقام، فإذا أعدته إلى أرضه الأولى عاد إلى الذبول.

وهذه مشاعر عرفتها لما ذهبت إلى مصر للدراسة سنة ١٩٢٨، وإلى العراق للتدريس سنة ١٩٣٦، وإلى بيروت سنة ١٩٣٧.

ثم قدمت المملكة سنة ١٩٦٣ وأقمت فيها إلى الآن، وإن لم أجد الاستقرار لأن دنيا طالب العلم مكتبته، ومكتبتي في الشام، مودعة في خمسة وثمانين صندوقاً لم تفتح من إحدى عشرة سنة، ولست أدري أأكلتها الأرضة أم هي سالمة لا تزال، وأنا هنا محروم منها، لا أستطيع الوصول إليها، ولم أجد المحسن الكريم الذي يوصلها إليّ، بالأجرة لا بالمجان، فما أريد إحساناً من أحد لأن الله أغناني بإحسانه.

وقد أصبحت أزور الشام لماماً، حتى حيل بيني وبين زيارة بلدي التي كتبت عنها ما لم يكتب مثله أحد من أهلها، وشاركت أهلها النضال للاستقلال.

وكان آخر عهدي بها من أربع سنين[1]، ذهبت إليها بعدما انقطعت عنها (أو قُطعت) خمساً، فهبطت بي الطيارة في المطار الجديد، ولم أكن أعرفه من قبل، فنظرت إلى البلد من بعيد، فقلت مقالة بلقيس: (كأنه هو)!!.

الجبل الذي يلوح لي جاثماً على حافة الأفق هو قاسيون، وهذه المنازل الماثلات صفوفاً كالأولاد المدللين، في حضن الأب الحاني، هي أحياء السفح: الأكراد والصالحية والمهاجرين. وهذه العمد البيض السامقة، التي تشبه إصبع المتشهد، يشير بكلمة الحق نحو السماء، هي مآذن المساجد، ومن نعم الله على أهل الشام، أنه لا ينشأ فيها حي جديد، إلّا كان أول ما يقام فيه المسجد، يقيمه الشعب بماله، مساجد ليست للمظهر ولا للزينة، ولكن لتمتلىء بالمصلين والدارسين، وجلهم من الشباب.

هذي دمشق، فلِمَ لا أحس فرحة الآيب إلى بلده؟ لماذا أراها متغيرة في عيني؟.

وتوجهت بي السيارة إلى البلد، تمشي خمسة وعشرين كيلاً في بستان واحد، هو ما بقي من الغوطة الشرقية، تتماسك أشجاره تماسك أيدي الأصدقاء ساعة اللقاء، وتتعانق فروعها تعانق العشاق بعد طول الفراق، حتى بلغنا دمشق..

ولكني لم أشعر بأنها دمشق، وحسبت الطيارة ضلت الطريق إليها، فهبطت غيرها. شوارع عراض، وعمارات عالية، وساحات وجسور (يسميها إخواننا المصريون باسمها التركي: الكباري)، ولكن مالي ولها؟ هذه مدينة جديدة طالما رأيت مثلها حيثما مشيت في مناكب الأرض، ولقد مشيت إلى أقصى الشرق من أندونيسيا، وأبعد الشمال من هولندا.

---

(١) كتب هذا الكلام سنة ١٤٠١.

إنها متشابهة كالنسخة المطبوعة من الكتاب، وأنا أريد نسختي المخطوطة، نسختي المفردة على ما فيها من عيوب، هل يتخلى أب عن ابنه لعيوبه، ويأخذ ابن غيره المنزه عن العيوب؟.

أريد دمشق مربع أسرتي، ومرتع صباي، ومغنى فتوتي. فأين هي دمشق التي تشممت رياها، ونشقت صَباها، ونشأت في حماها؟.

أهذي هي دمشق؟ فما لها تغيرت معالمها، وتبدلت أزياؤها، وإن ازداد عمرانها، وعلا بنيانها؟

ما للوجوه غدت غير الوجوه؟ كنت إن قابلت في الطريق عشرة، عرفت منهم واحداً أو اثنين، وعرفني أربعة أو خمسة. . . فما لي اليوم أبصر مئة فلا أكاد أعرف من المئة واحداً، ولا يعرفني ثلاثة؟.

أبدلت الدنيا، أم صرت غريباً في بلدي؟.

أما الخيام فإنها كخيامهم. وأرى نساء الحي غير نسائها.

وطفت في هذه الشوارع المتشابهة، أفتش عن دمشق التي عرفتها وأحببتها ومن يعرف دمشق (تلك) ويملك نفسه ألا يحبها؟.

وطفقت أسأل المحسنين من المارين: ألا من يدلني على دار الحبيب، ولكن ما من مجيب. حتى هبت نسمة من جهتها، شممت فيها طيبها، فهداني أريجها إلى مكانها. . .

. . فإذا أنا في ساحة (المرجة)، تلك التي كانت طرف البلد فصارت وسط القديم منه، ذلك أن المدن كالناس تعيش وتموت، وتنمو وتشب، ثم تهرم وتشيخ، وربما ولدت طفلاً فكبر الطفل، فزاحمها على مكانها وأزاحها عنه. . . .

ودخلت (سوق الحميدية) الذي سارت بذكره (كما يقال) الركبان، ولكن وقفت فيه المشاة، وقفت فلم تتحرك إلّا بمثل حركة (التصوير البطيء) في الأفلام، ورحت أزاحم ونسيت أن الأيام لم تبق لي كتفاً تشق الزحام، وتطيق الصدام، غامرت ودخلت وصبرت حتى إذا صرت عند السوق الذي يصل إلى خندق

القلعة (قلعة دمشق) التي لا تزال باقية سليمة، انحرفت يميناً فإذا أنا أمام مدرسة التجارة، وما مدرسة التجارة؟ إن هذا المكان أقدم وأكرم وأعظم، إن فيه مأثرة من أعظم المآثر في تاريخنا العلمي، بل في تاريخ العلم الإنساني، ها هنا كان أكبر مستشفى في الدنيا، وأرقاه وأكمله، لم ينشأ مثله إلى عصره، هو البيمارستان النوري، أي المستشفى الذي أقامه السلطان نور الدين زنكي.

لا، لن أحدثكم هنا عن عظمته، فاذهبوا فابحثوا عن تاريخه.

ثم انعطفت يساراً فدخلت زقاق الفخر الرازي، وفيه قبر له، ولهذا القبر قصة طريفة سأقصها عليكم، فمررت بين القبر وبين منزل الأديب الشاعر خليل مردم بك، وكم كانت لنا فيه من مجالس، مع شيخنا عالم الشام الشيخ محمد بهجة البيطار. وصديقنا (بل أستاذنا) العالم الأديب الشاعر عز الدين التنوخي، وأستاذنا صاحب الدار، رحم الله الجميع، وأخويّ رفيقي العمر، أنور العطار الشاعر رحمه الله، والأستاذ سعيد الأفغاني سلمه الله.

وجزت بها حتى وصلت إلى زاوية الزقاق، ومن هذه الزاوية يبدأ حديث اليوم.

* * *

في هذه الزاوية بقايا باب، تدخل منه إلى دار صغيرة، تفضي إلى صحن واسع جداً، في صدره إيوان له قوس عالية جداً، وإلى جانبك واجهة قاعة بعيدة الجنبات، رفيعة السقف، ولكن الدار مخربة الجدران، والقوس مهدمة الأركان، والأرض قد تحطم بلاطها وتكسرت حجارتها وفي وسطها بركة ما فيها ماء وليس عليها رواء، وحول الصحن غرف مهترئة الأبواب، مخلعة النوافذ. (والقاعة) الكبيرة التي تمتد على نصف طول الصحن مملوءة هي والغرف بالبضائع، والحمالون يدخلون ويخرجون يحملون صناديق، وينزلون صناديق، وهم يصيحون ويصرخون. فوقفت أنظر وفي العين عَبْرة، وفي النفس عِبْرة، وتصورت أني أخرج من مكاني الذي أقف فيه ثم أنأى عنه، وانحصر ذهني في الماضي، فتوهمت أنها تحققت خرافة (نفق الزمان) التي عرضها علينا الرائي هنا في يوم من الأيام: يدخل منه المرء فيسافر في الماضي يقف حيث شاء، فدخلت

فإذا أنا أعود أدراجي أتخطى رقاب السنين، أتقدم ولكن إلى الوراء، أوغل في مسالك النفق، والأيام تكر راجعة بي، حتى وقفت على أوائل سنة ١٩١٤.

ورأيت الدار تعود مثل معادي فإذا هي كمثيلاتها من دور دمشق العظام في تلك الأيام.

الأرض تفرش بالحجر المنقوش والمرمر الصافي، والجدران تكتسي الرخام ذا الألوان، والنقوش الروائع الحسان، وتتجدد البركة ويعود إليها رواؤها، ويجري فيها ماؤها، أما (القاعة) فيكون فيها مثل ما في (قاعات) الدور الكبار في الشام (فسقية) وهي طبق من الرخام المجزع والحجر المِزي (نسبة إلى المزة في دمشق) منحوت بيد صناع، مقرنص الجوانب، ينصب فيه الماء من نوافير صغار، ترسم خطوطها متعاطفاً بعضها على بعض، يكون منها مثل القبة الصغيرة، إذا تكسرت عليها أشعة النور، بدت كأن فيها ألفي حجر من الألماس، ثم ينصب الماء من الجوانب إلى طبق مثله أكبر منه، وكذلك ينتقل الماء من طبق إلى طبق، بأبرع صناعة، وأجمل فن.

وفي هذه (القاعة) من هذا المنزل شيء لم أر مثله في غيره من دور دمشق الكبار. هو موقد (شومينه) من الرخام المتشابك لها مدخنة من مثله، ومن حولها ممران في الجدار، يجري فيهما الماء شلالاً صغيراً في الصيف ليبرد الجو في حين يدفئه الموقد في الشتاء.

وفي صحن الدار أشجار لا بد من مثلها في دور دمشق: الليمون والنارنج، ودوالي العنب تمتد جذوعها حتى تبلغ (المشرقة) وهي سطح الدور الثاني، وأكثر المنازل من طابقين أو دورين، أرضي للصيف وعلوي للشتاء، ويقام لدوالي العنب (عريشة) وهي سطح من جذوع الخشب تتمدد عروقها عليها، تثمر العنب (البلدي) وثمرته بيضاء مستطيلة قاسية، أو (الحلواني) وهو مستدير أشقر قاس، وكان في دار لعمي في الصالحية دوالي تغطي سطوح الدار، تنتج في السنة (حقيقة لا تقديراً) من سبعمئة إلى ألف كيل[1]. صدقوني فلست أبالغ،

---

(١) كيلوغرام. وكلمة كيلو يونانية معناها (ألف).

لقد أقاموا مرة في (داريا) من قرى الغوطة الغربية، معرضاً للعنب الشامي عرض فيه، مئة وأربعة أنواع من العنب.

وجدران الدار مغطاة بأجمل أنواع النباتات المعروشات: الياسمين البلدي والمليسة والياسمين العراتلي وأنواع أخرى، لا ينفعكم سرد أسمائها إن لم تذهبوا إلى الشام، وتروها في دورها، وتروا في كل دار عشرات الأصص الصغار فيها من كل الأوراد والأزهار.

ولكن يا للأسف ويا للحسرة، لقد ذهبت تلك الدور وما فيها. تلك (بيوتنا هدمناها بأيدينا)[1] كانت جنات تجري من تحتها الأنهار، كانت مصيفاً وكانت مشتى. كان من فيها حراً، لا يرى حرم جار، ولا يرى جار حرمه، فاستبدلنا بها صناديق من الاسمنت، لا تدفع حر الصيف، ولا برد الشتاء، من كان فيها رآه جاره وهو في فراشه ورأى هو الجار، إن ضحك أو بكى أو عطس سمعه من (المنور) كل سكان العمارة!!.

كانت بيوتنا من خارجها كأنها مستودعات بضاعة أو مخازن تبن، فإذا دخلت فتح لك باب إلى الجنة، بهاؤها لأهلها، لا نافذة تفتح على طريق، بل لقد أدركت عهداً في الشام: الدار التي يفتح بابها على الجادة يقل ثمنها، لأن الدار المرغوب فيها التي يكون بابها في (دخلة) أو (حارة).

وكانت نساؤنا كمنازلنا، يسترها عن العيون الحجاب السابغ، فلا يبدو جمالها، إلّا لمن يحل له النظر إليها، فهتكت الأستار، عن المرأة وعن الدار. هذه هي الدور الشامية التي انتقل طرازها، لا إلى جيرانها، بل إلى الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط، الذي كان يوماً بحيرة عربية ولا تزال شواطئه أكثرها عربي، وغالبها مسلم.

إنها قفزت البحر بطوله لا بعرضه، إلى الأندلس، ثم إلى المغرب.

* * *

---

(١) هذا عنوان فصل، أو قصة حقيقية، في كتابي (من حديث النفس).

ما الذي أريد أن أقوله بعد هذه المقدمة التي نويت أن أجعلها سطوراً فصارت صفحات، وغدت مقالة كاملة؟

أريد أن أقول إن المدرسة التي انتقلت إليها، بعد تلك الساعات المعدودة في ذلك الكتاب المرعب كانت في هذه الدار.

هذه هي إحدى دور أسرة مردم بك، ما زهد فيها أهلها حتى جعلوها خراباً، بل إن صاحبها تنبه إلى سقف القاعة، وكان كأمثاله من السقوف القديمة، فيه أبرع النقوش وأحلاها، بأثبت الألوان وأبقاها، أدرك قيمته ففكّه قبل أن يتخلى عن الدار، وباعه لمديرية الآثار، وهو محفوظ الآن في متحف الفنون الشعبية في دمشق.

وهذا المتحف أقيم في أكمل أنموذج للدور الشامية، وهو (دار العظم) فإن زرتم دمشق فستزورونه وترونه.

ومن أصحاب هذه الدور من نقل القاعة بحجارة جدرانها، وسقفها المنقوش إلى عمارته الجديدة، فجعلها في غرفة فيها، صنع ذلك (لطفي الحفار) رحمه الله من قدماء السياسيين ومن رؤساء الوزارات.

- ٣ -
من الكتّاب إلى المدرسة التجارية

تركتكم عند باب الدار قبل أن ندخل إليها، فهل أتبع معكم سنة نسائنا عند باب الدار قبل أن يخرجن منها؟.

من سننهن في الشام، أنها مهما طالت الزيارة، ومهما امتد الحديث فلا بدّ للزائرات من وقفة وراء الباب للدردجة[١]، فهل تقفون معي أمام الباب لمثلها؟.

أقف لأشكر ولأشكو، (فاعجب لشاك منه شاكر) كما قال البهاء زهير.

أشكر الأستاذين الناشرين[٢]، والأستاذ رئيس التحرير، والأستاذ إبراهيم سرسيق على ما كتب في جريدة المدينة، فقد ألبسوني من ثنائهم ثوباً أطول من جسدي وأعرض، فجعلوني أتعثر بذيوله إن مشيت لذا اضطررت إلى الوقوف.

وهذا الذي أشكوه:

يا إخوتي إن مثلي ومثلكم، مثل رجل غنى لنفسه في الحمام (كما غنى جحا) فأعجبه صوته، فغنى لنفر من أصدقائه الأدنَين، فأطربهم غناؤه، فلما طربوا طلبوا إليه أن يعود فيغني لهم، وهو يتشجع ويزيد، فقام واحد منهم على المنبر في مجمع الناس فقال لهم: أعرفكم بمغن ما سمع السامعون أندى منه صوتاً، ولا

---

(١) هما ناشرا جريدة الشرق الأوسط هشام ومحمد حافظ ولدا الأستاذ علي حافظ، وقد نشرت هذه الذكريات أولاً في مجلتها (المسلمون) ثم جريدتها (الشرق الأوسط).

(٢) الدردجة في اللغة أن يتوافق اثنان في المودة، ولعل (الدردشة) منها مع تحريف في اللفظ، وتصرف في المعنى.

أطيب حنجرة، ولا أبصر بالألحان، ولا أعرف بالأنغام، فهل تعرفون ماذا كان بعد؟.

الذي كان أنه لم يعد يحسن شيئاً. إن النتيجة تعلن بعد الامتحان، فما لكم تعلنونها قبله؟ ألّا تخافون أن أسقط فيه؟ ألّا تعلمون أنكم بما رفعتموني فوق منزلتي (في صَدْر العدد الرابع)[1] ستجعلون سقطتي أشد، لأن الذي يقع من فوق النضد أو الكرسي، ليس كمن يقع من فوق المنارة؟.

ولماذا وضعتم صورتي على الغلاف؟ إننا نسمع أن (فتاة الغلاف) لا تكون إلّا من ذوات الصبا والجمال، فماذا يصنع القراء بصورة شيخ مثلي؟ ثم إنكم اخترتم صورة لي كبرتني وجعلتني أبدو أكبر من سني، إن الذي يراها يظنها صورة (عجوز) في السادسة والسبعين مع أني في الخامسة والسبعين، فقط لا غير!.

قال الأستاذ زهير، إنه أقنعني بأن أكتب بعد جهود استمرت أكثر من ثمانية شهور، فظن القـرّاء أنها كانت مفاوضات مالية، ومساومات على نشر المذكرات، ولم يعلموا أننا لم نذكر فيها قط المال ولا حق النشر، وإنما كانت حرصاً منه (أحسن الله إليه) على إخراجي من المحبس الذي حبست فيه نفسي، وظناً منه أنه سيأتي (بما عجزت عنه الأوائل)، فيعيد الشباب إلى ذهن قد دب إليه المشيب، يريد أن أصف عرس الربيع وأنا في مأتم الشتاء.

إن إخواني في المملكة العربية السعودية لا يعرفون ما الربيع، ولو كانوا في الشام، ورأوا الغوطة حين تشم روائح آذار، فتنبثق فيه الزهور من الحطب حتى تصير الشجرة بيضاء كالألماس[2]، ثم تتناثر الزهور وينبت مكانها الورق، فتغدو خضراء كالزبرجد، ثم تحبل الشجرة فتلد الثمار حتى تميل بها الأغصان.

ولكن مالي أترك سماء الواقع وأنزل إلى حضيض التشابيه؟ مالي وللألماس والزبرجد؟ تلك حجارة ميتة، وأنا أصف الزهر الحي.

---

(١) من مجلة (المسلمون).

(٢) أصلها ألماس وهمزتها منها لا كما قال صاحب القاموس المحيط.

إن أشجار الغوطة في الربيع كالعرائس في ليالي الزفاف، أتريدون أن أشبه العروس بتمثال الشمع في المتحف؟ أو في مخازن الثياب عند عارضي الأزياء، كما كان يصنع ابن المعتز.

لست في سوق الصاغة، ولكني في معرض الأذواق.

* * *

وينتهي الصيف، ويأتي الخريف فيصفر الورق، ويسّاقط، وترجع الشجرة حطباً، وتصير أيام الربيع ذكرى، ولكن الشجرة يتجدد ربيعها... إن شتاءها يلد ربيعاً جديداً، وربيع حياتي الذي ولَّى لا يتجدد.

ودعت أحلامي بطرف باكي ولمت من طرق الملاح شباكي[١]

وإن لم أنصب في عمري شبكة لفتاة (صدقوني) ولا أوقعت حسناء يوماً في شرك.

كان لي بالأمس قلب فقضى وأراح الناس منه واستراح[٢]

لقد قضى فهل رأيت ميتاً عاد بعدما مات؟ هل أبصرت في سنة واحدة تعاقب ربيعين؟ هل سمعت بإنسان عاش شبابه مرتين؟.

كنت إن برقت لي بارقة من جمال في وجوه البشر، أو صفحات الكون، أحسست بالعاطفة تشتعل في صدري، والمشاعر تلعب بشغاف قلبي، فأفزع إلى القلم لأسجل ما أحسست به، فيسابق قلمي فكري.

وإن قرأت أخبار الوفاء أو الغدر، أو سمعت أنباء الخير أو الشر، شعرت بالأفكار، تقرع جوانب رأسي لتهرب، فأسارع إلى القلم لأقيدها.

وإن صافح سمعي أبيات من شاعر ينظم حبات قلبه عقود بيان لا كشعر هذا الزمان، أو نغمات من مغن يصوغ عواطفه طاقات من ألحان، هزتني فهززت قلمي.

---

(١) من قطعة لشوقي.
(٢) لجبران.

أسمع المغني في هدآت الليل يقول: (آه) فأحس أنه يوقظ نائم الأشجان في كل قلب عاشق هيمان، أو مفجوع أسيان، حتى يقول معه (آه) يقتلعها من أعماق فؤاده، وإن نادى: (يا ليل يا ليل) أصغى إليه الليل، وتوقف يستمع فما يسير، وتأخر الفجر واستمهل حتى يفرغ من نداء الليل. كان كل ما أرى، وكل ما أسمع يجعلني أكتب، أقوم من منامي وأكتب، وأقف على جانب الرصيف لأكتب، ولطالما كتبت المقالات والقصص، على حواشي الجرائد، وعلى كيس البقال، لقد قرأت مرة ما كتبه الأستاذ محمد نمر الخطيب عن (بنات العرب في إسرائيل) وأنا على قوس المحاكمة، بعدما فرغت من المحاكمات فكتبتها على كل قطعة ورق تحت يدي، لم أنتظر حتى أنزل عن القوس إلى غرفتي، ولم أنزل حتى كتبت (القصة) كلها في جلسة واحدة.

لذلك بلغ المطبوع مما كتبت إلى الآن أكثر من أحد عشر ألف صفحة، وما ضاع منه كثير فلماذا لم تلقني يا أستاذ زهير[1] في تلك الأيام؟ يا أسفي على تلك الأيام! لماذا لم تأتني وقلبي شاب، وذهني حاد، وذاكرتي قوية، وهمتي لا يقف أمامها شيء؟ لماذا.؟

آلآن يا أستاذ؟ بعدما جفَّ القلم، وطويت الصحف، ونسيت الوقائع، وخمدت نار الحماسة، وسكنت إلى عزلتي جئت تدعوني أن أملأ بالمداد قلمًا ما عاد يصلح للكتابة، وأنشر صحفاً بليت وآصفرت من طول الإهمال، ولئن قدرت على هذا ففعلته، فمن لي بأن تتقد بين جوانحي النار التي خمدت، وتبعث في نفسي الحماسة التي ماتت؟.

أبعدما ولَّى الربيع، وصوّح النبت جئت تطلب مني الزهر؟ من أين آتيك باللبن وشاتي قد جف ضرعها؟ أين مني الزهر وروضتي قد يبس زرعها؟.

على أني لا أيأس، فلا يكلف الله نفساً إلّا وسعها، فاقبل مني ما عندي، فهذا هو اليوم غاية جهدي.

---

(١) أعني الأستاذ زهيراً الأيوبي.

وتعليـق آخر . . .

قال الأخوان الأستاذان الناشران: إني لو أعلنت رقم هاتفي لما تركني السائلون ساعة في الأربع والعشرين ساعة.

يا سيديّ الكريمين، إني لم أعلن رقم الهاتف، ولكن قد كان الذي صورتماه. وطالما رجوت أن ينحصر سؤال السائلين بين العصر والمغرب، فما أستجيب رجائي.

إني لا أكتم شيئاً من علمي القليل، ولا أضن بمشورة على من يثق بي ويستشيرني، ولكن طاقة المرء محدودة، و (الصبر له حدود) كما تقول الأغنية.

وبعد: فلقد طال الوقوف على الباب، فتفضلوا بالدخول لا إلى الأطلال التي وصفتها في (العدد) الذي مضى، بل إلى الدار أيام عزها. أترون جلالها وتحسّون جمالها؟.

هنا كانت المـدرسة الأولى التي دخلتهـا في حياتي، لا تعجلوا علـيّ فتغبطوني إن انتقلت من ذلك الكتاب المعتم إلى هذه المدرسة المشرقة، ومن ضيقه إلى سعتها، فقد يعيش المرء سعيداً في الكوخ وقد يشقى في القصر. أما أنا فقد استهللت دراستي شقياً في الكتاب، وشقياً في المدرسة، هذه المدرسة الكبيرة، التي كانت تسمى (اتحاد وترقي مكتبي إعدادي سي) والتي اختصر الناس اسمها وعربوه فقالوا (المدرسة التجارية) لأن الذي فتحها جماعة من التجار[1].

وكانت مدرسة جامعة، فيها قسم للحضانة، وقسم للابتدائي، وقسم للإعدادي والثانوي، ومجموع سنوات الدراسة فيهـا اثنتا عشرة سنة، ومنها إلى الطب أو السفر لإسطمبول. وهي إحدى مدارس أهلية ثلاث: الكاملية التي أنشأها الشيخ كامل القصاب، العالم الوطني السياسي، من مؤسسي (المعارف) في المملكة. والكلية العلمية الوطنية، وهذه (المدرسة التجارية).

---

(١) يسأل الرئيس خالد بك العظم (في مذكراته) - وقد كان تلميذاً فيها عند أبي - أن لماذا سميت (المدرسة التجارية) وهذا هو الجواب.

ومدارس حكومية أنشئت في أواخر القرن الثالث عشر الهجري مع مدارس البنات التي فتحت بسعي المصلح الموجه (المعلم) الشيخ طاهر الجزائري. ولي عمة كانت رحمها الله من أوائل من تعلم في هذه المدارس، وأخذت منها الشهادة (الرشدية) وهي بين الابتدائية والمتوسطة سنة ١٣٠٠هـ وكانت الشهادة عندي، فضاعت من عهد قريب.

ومدارس نصرانية أقيمت في الأصل للنصارى ولكن كان يدخلها بعض المسلمين بحجة تعلم اللغة الأجنبية (الحجة الواهية الباقية للآن). ومن أعجب العجب أن شيخنا عالم الشام السلفي الجليل منشىء دار التوحيد في الطائف وعضو المجمع العلمي في دمشق، وهو أقدم المجامع العربية - أنشىء سنة ١٩٢٠ - شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار درس مدة في المدرسة العازارية النصرانية، وفيها تعلم اللسان الفرنسي، ولا أقول هذا ليكون حجة لمن يدخل ولده إليها، فقد كان دخول شيخنا إليها (فتنة وقى الله شرها) كما قال عمر رضي الله عنه.

* * *

كان المدير العام لهذه المدرسة (المدرسة التجارية)، هو أبي الشيخ مصطفى ابن أحمد بن علي بن مصطفى الطنطاوي وهذا كل ما أعرف من نسبي، أما الباقي فاسألوا عنه أهل طنطا، فإنه هناك، ولن يعرفه أحد لأن لقب الطنطاوي أخذناه في الشام، فماذا كان لقب أسرتنا هناك؟!.

كان المدير هو أبي، فهل تحسبون أني كنت مدللاً مكرماً لأني ابن المدير لا والله، ولقد رأيت أول عهدي بها ما كره إليّ العلم وأهله، ولولا أن تداركني الله بغير معلمي الأول لما قرأتم لي صفحة كتبتها، ولا سمعتم مني حديثاً أو خطاباً ألقيته، بل لما قرأت أنا كتاباً.

هذه القاعة التي وصفتها لكم بأنها من روائع فن العمارة، والتي يأتي السيّاح للتفرج برؤيتها، لبثت حيناً من دهري أرتجف من النظر إليها، أو التفكّر فيها.

وكلوا بنا معلّماً شيخاً كبيراً لا أسميه[1]. فقد ذهب إلى رحمة الله، فكان يحبسنا فيها ونحن أطفال، لا يدعنا نخرج منها حتى نكتب (ألف باء) كلها في ألواحنا الحجرية أربعاً وعشرين مرة، نكتبها ليراها وليمحوها، ثم نكتبها ليراها ويمحوها... إلّا أن يضطر أحدنا (أو يزعم أنه مضطر) للخروج إلى المرحاض فيسمح له بدقائق، إن زاد عليها، ازدادت عليه ضربات الخيزران، كنا نكذب.. نعم! أفليسوا هم الذين دفعونا إلى الكذب؟.

كنت أنظر من شباك القاعة إلى التلاميذ، يلعبون في الساحة الداخلية والطلاب الكبار يمشون في الصحن الكبير، كما ينظر السجين إلى الطلقاء من طاقة السجن.

كانت هذه بدايتي، أنا (ابن المدير العام) فهل يحمد الله تلاميذ المدارس اليوم على ما يتمتعون به من نعم؟.

وغاب الشيخ يوماً وجاؤونا بطالب كبير من طلاب الفصول العالية فوجدنا (للمرة الأولى) مدرساً من بني آدم، يكلمنا ونكلمه، ويضحك في وجوهنا، وما كنت أعلم أن المعلم يستطيع أن يضحك.

هذا الطالب الشاب الذي عرفته ولم يعرفني، لأن التلاميذ يعرفون معلمهم ولا يعرفهم كلهم، مرت عليّ وعليه الأيام، وصار صاحب مكتبة، ولم ينقطع عن العلم، فوضع معجماً لألفاظ القرآن اسمه (المرشد) ثم وضع مع صديق له من نوادر المكفوفين من الرجال، حافظ لكتاب الله أديب، ينظم الشعر ارتجالاً، عارف بالموسيقى ملحن، يقرأ الكتابة الموسيقية (بالحروف البارزة) ويعزفها، وأمامه في مجلسه خرز صغير من كل الألوان في علب صغار يؤلف منه بالإبرة والخيط صوراً على القماش لو حاولها مبصر بعينيه وهو متفرغ لها لما استطاعها، يصنعها وهو يتكلم معك أو يناقشك أو ينشدك الشعر وهو أعمى.

وهو من نوادر العميان واسمه الشيخ عارف القلطقجي وهو قريب في هذه المزايا من الرجل العجيب المشهور الشيخ عثمان الموصلي رحمهما الله.

---

(١) وقد سماه خالد بك العظم في مذكراته.

وهذا كله استطراد، وقد أنذرتكم به من أول الحديث وسأعود إلى الكلام الأصلي.

كنت أتكلم عن هذا الطالب الذي كان أول من رد إليّ ثقتي بالله، ثم بنفسي، وحبي للدراسة، وقلت: إنه وضع مع الشيخ عارف (هذا) معجماً آخر لموضوعات القرآن، وكلفني أن أكتب مقدمة له، فذكرت هذه القصة التي لم يكن يعرفها في مقدمة الكتاب[1].

ثم انتقلت إلى معلم آخر، فيه أنس وفيه إنسانية، فزاد من تقربي من العلم والدراسة، اسمه الشيخ كامل البغال، عمّر حتى ناهز المئة أو زاد عليها، رحمه الله.

* * *

لم أكن أمتاز من التلاميذ إلّا بأني كنت آكل أحياناً في غرفة في مدخل المدرسة، هي غرفة الفراشين، وكنت يوماً آكل رغيفاً وسطه لحم مشوي أمر لي به أبي، وكان في غرفة الإدارة ولد رجلاه في الفلق[2] والخيزران ينزل عليهما، فدعا بي وأخذت من وسط طعامي، وربطت بالفلق، وكانت علقة أقسم بالله أني لم أعرف سببها إلى الآن، وقد مضى على ذلك أكثر من سبعين سنة!!

هكذا كان أسلوب التعليم!!.

أفترونني حين أعيبه أعيب أبي؟ لا، ولكن أصف ما كان ليعرف التلاميذ ما هم فيه من النعيم الآن.

---

(١) الجامع لمواضيع القرآن الكريم للأستاذ محمد فارس بركات رحمه الله، طبع المكتبة الهاشمية في دمشق، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٩، قدم له علي الطنطاوي المستشار في محكمة النقض.

(٢) وكلما تكلم عن ذلك المسنون ـ يقولون (الفلكة) أو (الفلقة): مع أن الاسم عربي فصيح وهو (الفلق).

- ٤ -

من ذكريات الطفولة

ذكرياتي عن الحرب العالمية الأولى

بقيت في هذه المدرسة إلى سنة ١٩١٨ فماذا بقي لديّ من ذكرياتي الشخصية فيها؟ لقد قلبت جيوبي، ونفضت ثوبي، وفتشت كل زاوية من ذاكرتي، وبحثت في كل ركن، فلم أجد إلّا القليل الذي سأجلوه لكم.

أما الذكريات العامة فقد كان منها الكثير، وإن لم أدرك منها يوم حدوثها إلّا ما يدركه ذلك الولد الصغير.

وكانت أياماً عشتها، ورأيت أحداثها، ولكني لم أستوعبها، وأحسّ الآن وأنا أتحدث عنها كأني أسرد قصة حلم من الأحلام، أو رؤيا منام، صحا من رآها فلم يجد في يده شيئاً منها.

أشعر كأني ألخص صفحات من تاريخ قديم، قديم جداً، إي والله، لقد تبدلت حياتنا كلها من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٨١.

لم يبق شيء على ما كان عليه، وأنا إنما أعني هنا أوضاع الدنيا، أما الدين فلم يتبدل لأن الذي أنزله هو حافظه.

من هذه الأوضاع ما صار إلى أحسن مما كان عليه، ومنها ما ساء وفسد.

لقد استمتعنا بثمرات الحضارة، ورأينا من جديدها ما كنا نظنه من المستحيلات، ولقد ازددنا علمًا بالأرض وقوانين الله فيها، وضاقت مسافة الخلف بيننا وبين من كنا نراهم وحدهم المتمدنين من أهل أوروبا وأميركا، وصارت لنا جامعات كجامعاتهم، وقام فينا ومنا علماء مثل علمائهم، ومن

ينطق بألسنهم[1] ويعرف آدابها مثلهم بل ربما فاقهم.

كل هذا وأكثر منه قد كان، ولكن تعالوا فكروا معي ما هو ثمنها الذي دفعناه فيها؟ لقد ربحنا هذا كله فماذا خسرنا فيه من عقيدتنا ومن أخلاقنا ومن كريم سجايانا؟.

أخشى أن يأتي يوم نقول فيه، ونحن نعض بنان الندم، حين لا ينفع الندم:

خذوا هذا كله، لا نريده، وردوا علينا ديننا وخلائقنا.

كنا نعيش على شط بحر الحياة، نائين عن لجه، ما غصنا على لآلئه، ولا تعرضنا لعض كلابه، ولا لخطر الغرق فيه.

كنا (أعني الطبقة التي أنا منها من العلماء المستورين، لا أعني الأغنياء ولا الموسرين) كنا نحيا حياة ضيقة محدودة، ولكنها سعيدة مجدودة[2]. كانت تسلياتنا قليلة ولكنها نبيلة، ليس عندنا إذاعات، ولم تكن قد اخترعت، ولا كان (الرائي) ولا السينمات، إلاّ سينما واحدة أخذونا إليها، فأرونا (فِلْماً) صامتاً (إذ لم تكن السينما قد نطقت) عن معركة (جناق قلعة)، وكانت هذه السِنما) في موضع المجلس النيابي، احترقت وبقيت أنقاضها سنين طويلة، حتى أقيم المجلس مكانها ببنائه الجميل، وما فيه من الخشب المحفور[3] الذي أتقن صناعته أبو سليمان الخياط[4]، وصنع بعده خشب (دار عين الفيجة)، ثم دار (بيت الدين) في لبنان.

---

(١) اللسان بمعنى اللغة جمعه ألسن، أما العضو فجمعه ألسنة.

(٢) أي محظوظة.

(٣) من جنس الذي كان في مكة وجدة، في واجهات العمارات، ورواشن الشبابيك، ولكنه أجمل وأكمل، وقد دعوت في حلقة الجمعة ٢٥ المحرم ١٤٠٢ هـ من (نور وهداية) إلى حفظ ما في مكة وصيانته. ولكن كان العمال يكسرونه ويلقونه مع الأنقاض في الساعة التي كنت أتكلم فيها.

.. فإذا نتاج تلك الأيدي الماهرة، وبقايا ذلك الفن البديع قد صار حطاماً تطؤه الأقدام، مع أنقاض الدور بل القصور التي هدمت في أجياد لتوسعة الشارع!!.

(٤) وهو الأخ الأكبر لشيخ أطباء الشام الدكتور حمدي الخياط أول متخصص في البكتريا والجراثيم، =

ما كانت عندنا سيارات ولا شوارع يمكن أن تمشي فيهـا السيارات إنما كانت عندنا العربات الجميلة، تجرها الخيول الأصيلة.

وأنا أذكر أن أول سيارة وصلت إلينا، وصلت سنة ١٩١٦ وخرج الناس ينظرون إليها، فلما رأوها تمشي وحدها لا يسحبها حصان، قال قائل من العوام: إن الجن تسيرها، فتدافع ضعاف القلوب هـاربين، وهـربنا نحن الصغار معهم، وضاعت حقيبة كتبي، ونلت على ذلك جزائي.

أما الطيارة فقد جاءتنا قبل سنة ١٩١٥، سمعت بذلك ولم أره لأني كنت صغيراً وكانت قصة عجباً، تحدث الناس بها طويلاً. مع أن الطيران إنما ابتدأ سنة ١٩٠٣، يقودها طياران تركيان مسلمان، فتحي وآخر نسيت اسمه[١] واستقبلت في المرج الأخضر، وهو الملعب البلدي اليوم، وفيه معرض دمشق الدائم، وهو وقف إسلامي، استقبلت استقبالاً عظيمًا، وكان يوماً (كما قالوا) مشهوداً، وطارت بسلام وودع الطياران باحترام، ولكنها سقطت عند طبرية، ودفن الطياران، في صحن مدفن بطل الإسلام وفاتح القدس، صلاح الدين الأيوبي، وراء الجدار الشمالي للجامع الأموي.

وأول شارع فتح في دمشق هو شارع جمال باشا من رأس سوق الحميدية إلى محطة الحجاز، التي يبدأ منها خط القطار، وينتهـي عند محطة باب العنبرية في مدينة الرسول ﷺ، والخط وقف إسلامي ثابت بصكوك قضائية، وقرارات دولية، وهو من آثار السلطـان المفترى عليه، الذي شوّه اليهود صورته، السلطان عبد الحميد، (انتهى مدّهُ سنة ١٩٠٨ سنة مولدي، وخربناه نحن، نحن العرب، بأيدينا وأيدي لورنس وجماعته سنة ١٩١٨).

هذا هو أول شارع عرفناه، وكان عريضاً جداً، وسط ممر حوله الحدائق وأغراس المرجان، وفتح معه شارع من محطة الحجاز إلى نهر بردى، ومن أقدم

= كان أستاذاً في كلية الطب في دمشق من سنة ١٩٢٠، وهو أحد مؤلفي معجم المصطلحات الطبية، يحسن علوم العربية كما يحسن الفرنسية والإنكليزية والألمانية واليونانية واللاتينية، توفي رحمه الله سنة ١٤٠٠ هـ، وابنه الدكتور هيثم من أنبغ شباب العصر.

(١) ذكرني ولدي الأستاذ النابغة زهير الشاويش صاحب المكتب الإسلامي أن اسمه صادق.

عماراته (العباسية) نسبة إلى رجل بيروتي يقال له أبو عباس، وكانت طابقين من الخشب واللبن، فيها مقهى[1] وملهى.

ومن طريف أخبار ذوي الغفلة من الوعاظ (أذكره ولو لم يكن هذا مكانه) أن أحد مشايخنا، جاءه من يقول له إن منيرة المهدية تغني وترقص في (العباسية)،فأعلن غضبه في درسه في (الأموي)، وقال كيف ترقص هذه المرأة أمام الرجال وهي كاشفة جسدها، مبدية مفاتنها؟ أين الدين وأين النخوة؟.

قالوا: نعوذ بالله، وكيف يكون هذا، وأين يا سيدنا، ومتى؟.

قال: في العباسية في الليل بعد صلاة العشاء.

وكان نصف المقاعد خالياً، فامتلأت تلك الليلة المقاعد كلها! فليتنبه الواعظون، فكثيراً ما تكون المبالغة في وصف المنكر دعاية له.

* * *

وجمال باشا، كان قائد الجيش الرابع العثماني، وأحد أركان جمعية الاتحاد والترقي وهم: قائد الجيش أنور باشا، ووزير الداخلية طلعت باشا، وجاويد (دافيد - داود) وزير المالية ومترجم كتاب (شارل جيد) في الاقتصاد[2] إلى التركية. ثم جاء من بعدهم مصطفى كمال (أتاتورك).

وأصل أكثرهم من يهود الأندلس، ممن يدعونهم (الدونمة)، أضاعوا الدولة العثمانية التي كانت ثالثة الدولتين العظيمتين: الأموية والعباسية، والتي عاشت المدة الطويلة، وفتحت بالإسلام وللإسلام الفتوح الجليلة، وكانت يوماً أقوى دول الأرض، وملكها أكبر ملوكها.

فهدم هؤلاء ما بنى بنو عثمان، ونسوا (أو لم يعلموا) أن الإسلام لا يفرق الناس للألسن ولا للألوان، فأرادوا (تتريك) العناصر العثمانية، فبدؤوا بهذا الفتنة التي جعلت الأمة الواحدة (أمة محمد) هيئة أمم، حين قالوا: ترك، فقال ناس منا: عرب، وقال الفرس، وقال الأكراد، وكانت عودة إلى الجاهلية! مع

(١) كلمة مقهى فصيحة و(أقهى) أي أدام شرب القهوة.

(٢) وكنا ندرسه معرباً في معهد (أي كلية) الحقوق سنة ١٩٣١ لما كنا طلاباً فيها.

أننا ما كنا نفرق في معلمينا وفي رفاقنا بين عربي وتركي وكردي، ولا الإسلام يسمح لنا أن نفرق، وقد ماتت الآن هذه الفتنة أو هي على سرير الاحتضار، وستلحق بها إن شاء الله أخواتها، ولا تبقى إلّا دعوة الإسلام.

كانت مدرستنا أهلية، ولكنا ذقنا مع هذا الكثير من الثمر المرّ لهذه الدعوة، كان عندنا معلمون من الأتراك، أما الدَّيِّنُ التّقي منهم فينكر هذه التفرقة الجاهلية، وأما من كان غير ذلك فكان يؤيدها.

حتى قواعد اللغة العربية (النحو والصرف) فقد درسناها آخر المدة على معلم تركي، فكان يسأل الواحد منا: فاعل ندر؟ أي ما هو الفاعل. وانتقل خوف جمال باشا من الكبار إلينا، فكان عندنا معلم للموسيقى، قالوا إنه نسيب الباشا، فكنا نخشى أن نكلمه.

* * *

كان هذا كله استطراداً، وسبقاً للحوادث، فلنعد إلى سنة ١٩١٤ إلى السنة التي اشتعلت فيها نيران أول حرب عالمية في تاريخ البشر، ولكن لا تنتظروا مني أن أحدثكم عنها حديث المؤرخ المحقّق، فإني أدون ذكريات إنسان كان طفلاً في تلك الأيام، لا أنقل عن ابن خلدون، ولا عن شارل سنيوبوس[١].

* * *

مرَّ عليّ في هذه المدرسة شهور، لم أخالط فيها أحداً من الأولاد، ولم أكلمهم إلّا الكلمة التي لا بدّ منها، فقد نشأت أول ما نشأت على الوحدة، لم ألعب يوماً مع الأولاد في الحارة، ولا زرت أحداً من لداتي ولا زارني، فكنت (طول عمري عائشاً وحدي...) أنيسي كتابي، وإن زرت فالكبار من تلاميذ أبي أو إخوانه، كان يصحبني أحياناً معه، فأستمع ولا أتكلم لأن الصغار لا يتكلمون في مجالس الكبار.

لذلك كنت في المدرسة متوحداً منفرداً حتى كان يوم رأيت فيه سماء

(١) مؤلف (تاريخ الحضارة) الذي ترجمه أستاذنا محمد كرد علي ودرسناه في الثانوية.

(الصحن) الواسع مغطاة بسحابة سوداء. دانية منا ليست بعيدة عنا، وكان يسّاقط شيء منها على رؤوسنا...

... لا لم تكن قطرات المطر، فلم تكن سحابة ممطرة، وإنما كانت رِجْلاً من الجراد، ملأ سماء الشام وأرضها، وأتى على الأخضر واليابس من زرعها، وكان شيئاً رهيباً.

ولم تكن يومئذ هذه المبيدات ولم يكن شيء من هذه الوسائل التي قضت اليوم أو كادت على الجراد.

فبدأ القحط في البلد.

ثم سمعنا من أفواه الكبار كلاماً لم ندرك غوره، ولكن فهمنا من لهجة كلامهم، ومن ملامح وجوههم، ومن جزعهم أنه شيء مكروه مخيف.

فهمنا أنها قامت حرب في مكان بعيد عنا، ليست كحرب البسوس التي دامت (كما قالوا) أربعين سنة، ولم تقع فيها إلّا أربعون معركة ما زادت المعركة منها عن مناوشة خفيفة بين فصيلين من الجنود.

وأن هذه الحرب يموت في المعركة الواحدة منها، ما يزيد مئة مرة عن كل الذين ماتوا في معارك الجاهلية كلها، بل والذين ماتوا في (بدر) و(أحد) و(القادسية) و(اليرموك).

سمعنا هذا فلم نبال به، ما لنا ولقوم لا نعرفهم، ليسوا منا ولا نحن منهم، يتقاتلون في مكان لا نعرفه ولم نسمع به.

حريق ولكن لم تمتد إلينا ناره، ولم يلذعنا أواره، ولكنا ما لبثنا إلّا قليلاً حتى بلغنا شراره، وروّعتنا أخباره، حين كنت أمشي إلى المدرسة من داري في العقيبة، فأرى (الفرن) مسدودة واجهته بالخشب، ما فيها إلّا طاقة صغيرة والناس يسدّون نصف عرض الطريق، يطلبون أرغفة من الخبز الأسود، فلا يكادون يصلون إليها.

كانت الشام أرض الخيرات، وكانت تسمى قديماً (أنبار روما) فأين

ذهب قمحها، حتى صرنا نطلب الخبز المخلوط بالشعير وبالذرة، وبأشياء لا تبلغ قدر الذرة ولا الشعير فلا نصل إليه.

كان عهدنا بالخبز معروضاً بأثمان لا يتصورها القارىء اليوم من شدة الرخص، وكان منه المشروح، والتنوري، وخبز الصاج، والمصنوع من خالص القمح، والمعمول من الدقيق الأبيض المنخول. . .

فأين ذهب هذا كله؟.

ذهب ببعضه الجراد، وبباقيه حلفاؤنا (بل حلفاء الحكام الاتحاديين) من الألمان.

ثم خلت الشام إلّا من الشيوخ والنساء والأطفال، أما الشبان فقد ساقوهم (مشاة على أقدامهم) إلى حرب ترعة السويس أولاً، التي عدنا منها بالهزيمة، وإلى معركة (جناق قلعة) لمحاربة أعداء الألمان.

وكان الضابط الذي يتعقب الفُـرَّار يلبس لبادة، لذلك يدعونه بـ (أبو لبادة)، وإذا رأوه نادوا (عباية) ليهرب من ليس معه وثيقه إجازة من الجندية، وكان كلما أبصر شاباً أمسك به أعوانه وقال له: (نرده وثيقة؟) أين وثيقتك، فإن لم يجدها جره إلى السوقيات، في البناءين القائمين إلى الآن في سوق صاروجا، حيث فتح مرة الشيخ أحمد كفتارو (مدرسة الأنصار).

ثم رأينا الناس (ونحن في طريقنا إلى المدرسة) ينبشون أكوام القمامة لعلهم يجدون فيها بقايا طعام.

وعزّ السكر حتى صارت الأوقية (٢٠٠ غرام) بريال مجيدي، وقد كان المجيدي قبل الحرب يكفي لوليمة ضخمة، أي أن الكيلو بليرة (أي بجنيه) ذهبي!

وقل الكاز (البترول)، وفقدت أشياء كثيرة مما كنا نستورده. وما كان منه عند التجار، قبضوا عليه أيديهم، وأخفوه في مستودعاتهم، وكانت أيام شداد.

ولكن الأتراك مسلمون، وإن كان حكامنا وحكامهم يومئذ من الاتحاديين أعداء العربية وكدت أقول أعداء الدين، فقد عـزّ عليهم أن يجوع علماء

المسلمين، فخصّصوا لهم جرايات من القمح، تسد حاجة بطونهم، وتصون ماء وجوههم.

وكان والدي ـ وقد نسيت أن أقول لكم ـ قد ترك إدارة المدرسة وصار (أمين الفتوى) عند المفتي الشيخ أبي الخير عابدين، والد شيخنا الشيخ أبي اليسر عابدين مفتي الشام (الطبيب الذي نال شهادة الطب على كبر) والذي صار أستاذاً في كلية الحقوق (وكانت تدعى معهد الحقوق وكانت هي وكلية الطب نواة جامعة دمشق).

كان والدي هو الذي يتولى إعداد قوائم بأسماء العلماء وطلبة العلم، لينالوا أنصباءهم من القمح.

- ٥ -

من ذكريات الطفولة أيضاً

وكان من المناظر المألوفة، أن نرى جنود (أبي لبادة) يمسكون بجماعة من الشبان الفُرَّار (وكانوا يدعونهم الفرارية)، مربوطين يساقون، وحراب البنادق في ظهورهم إلى حيث لا ندري.

فلماذا يفرّون من الجيش؟ ومتى كان العربي المسلم، بل متى كان المسلم (عربياً كان أم تركياً أم كردياً) يهرب من مقارعة الأعداء، ومقابلة الخصوم؟.

إنه يستحيل أن يكون المسلم جباناً أو نذلاً، ولو أعوزه البارود، أو فقد الرغيف أنه يقاتل بالبندقية القديمة، ويقاتل بالسيف.. ويقاتل بالحجارة، ولو كان خصمه أقوى دول الأرض، ويقاتل جائعاً أو يصبر يومه على تمرة، أو يأكل الكلأ...

كما يستحيل أن يكون اليهودي شجاعاً أو نبيلاً، ولو قاتل بالسلاح الكثير الذي جاء من يضعه في يده، ويسلّطه به على الناس...

لا، ما هذه قصيدة فخر وحماسة، بل هي حقيقة واقعة، أما ترون ما يصنع المسلمون الأفغان أمام المعتدين الشيوعيين، ودولتهم إحدى الدولتين الكبريين في عالم اليوم؟.

أليست هذه الوقفة إعادة كريمة ماجدة لموقف المسلمين الأوّلين يوم نازلوا الدولتين الكبريين في عالم الأمس، في اليرموك والقادسية.

إن الإسلام صب البطولة صباً في أعصاب المسلمين، وأجراها في

دمائهم، فمهما حاقت بهم الشدائد، وتوالت المحن، فلن تتبدل طبيعة البطولة فيهم، والعاقبة لهم إن كانوا مع الله، لأن الله سيكون حينئذ معهم، ومن كان الله معه لا يغلبه مخلوق.

أتذكرون يوم عادوا من معركة الأحزاب وقد نفدت منهم آخر قطرة من الطاقة البشرية، استنفدها ما قاسوا من الشدة والامتحان في ذلك اليوم حتى لم يبق لأحدهم أمنية إلّا أن يأكل لقيمات، ثم يطرح نفسه على الأرض يستسلم إلى نومة مريحة.

... فجاءهم الأمر من القائد العام، من الذي لا ينطق عن الهوى، من الذي يأتيه (البريد الخاص) من السماء.

جاء الأمر بالمسير إلى الناقضي العهد، إلى حثالة البشر، وزبالة بني آدم إلى اليهود، إلى بني قريظة.

أما مسحوا النوم من عيونهم، واستلوا بعزائمهم (بل بإيمانهم) التعب من أجسادهم، وامتثلوا الأمر وساروا؟

لقد دعوا بعدها إلى الجهاد، إلى التضحية، إلى بذل الروح مئة مرة، فما تقاعسوا ولا تردّدوا، لقد لبّوا دوماً، وما أبوا يوماً، ولا يزالون حاضرين ليلبّوا إن دعوا من جديد.

على أن يدعوهم الداعي بلسانهم لا بلسان غريب عنهم، لا يفهمونه ولا يعرفونه، يدعوهم باسم الدين، جهاداً في سبيل الله، وإعلاءً لكلمة الله، لا باسم الوطنية ولا القومية ولا التقدمية، إن الله يعطي الشهيد الذي يموت في سبيله، جنة عرضها السماوات والأرض، يعطيه حياة مدتها مليار مليار قرن، بل إن مدتها لا تحيط بها الأرقام، لأنها لا نهاية لها، حياة ما فيها إلّا السعادة وكل لذيذ مشتهى، بدل حياة على الأرض مهما طالت فإن نهايتها الموت وفيها ما فيها من المتاعب والآلام.

هذا جزاء من يقاتل في سبيل الله، فماذا تعطي القومية، وتعطي التقدمية، وتعطي الوطنية من يموت في سبيلها؟.

هل عندها ما تعطيه؟ بل قولوا ما هي؟ هل هي شيء له وجود أم هي أسماء سميناها نحن (لا) آباؤنا، ما أنزل الله بها من سلطان؟ فما لنا ندع شرعة الإسلام، إلى نظام أساسه أوهام، ونتائجه أحلام، ولن يكون له (كما لم يكن لأمثاله) دوام؟.

* * *

فإذا كنا نحن أبناء الحرب، وإذا كنا أبطال القتال، وإذا كنا نحن، (نحن المسلمين)[1] أحفاد من خاضوا عشرة آلاف معركة مظفرة، ومن أزاحوا عن صدر البشر كابوس الدولتين الظالمتين الروم والفرس، ومن فتحوا بالحق والعدل وللعدل والحق، ما بين قلب فرنسا وقلب الهند...

فكيف كنا نفر من الجيش العثماني أيام الحرب الأولى؟.

* * *

نفر لأننا كنا نساق إلى حرب لم تكن جهاداً في سبيل الله فنرجو فيها الأجر من الله، ولم تكن حرباً اضطررنا إليها فلم يكن لنا بد من خوضها، ولا كان لنا فيها مصلحة ظاهرة فندخلها لتحقيق مصلحتنا.

حرب كان قادتها من غيرنا، لا أقصد أنهم من غير العرب، فإن الله قال: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ لم يقل (إنما العرب)، بل لأني أشك في صدق إسلام أكثر أولئك القادة من الاتحاديـين، ولا أشك أن أيدي غيرنا هي التي كانت تحركهم.

ولما انجلى غبار المعركة، ووضح الأمر، عرفنا حقيقتهم مما صنع (أتاتورك) وقد كان واحداً منهم.

وليس الضمير راجعاً إلى الأتراك ـ لا والله ـ فالشعب التركي ما عدل بالإسلام شيئاً من يوم دخل فيه مختاراً، والسلاطين الأولون كانوا من أحاسن

(١) اقرؤوا (نحن المسلمين) وهي في أول كتابي (قصص من التاريخ) واقرؤوا ما كتب عنها في الرسالة (التي تصدر في بيروت) للدكتور صلاح الدين المنجد.

الملوك، فتحوا للإسلام أوروبا، ولو مدّ الله في عمر (محمد الفاتح)[1] ولو استمر الخير في أحفاده، ولو لم تفتنهم وتُعْشِ أبصارهم بهارج هذه الحضارة لكان لهم تاريخ آخر.

* * *

واستمرت الحرب، وكان الكبار لا يعرفون من أخبارها شيئاً، فكيف بنا نحن الصغار؟ ولم نكن نقرأ الجرائد لأنها لم تكن عندنا جرائد كجرائد اليوم، ولم نكن نسمع أبداً أخبار الإذاعات لأنها لم تكن قد اخترعت الإذاعات، كانت حياتنا قبل الحرب كالبركة الساكنة، وإن كانت مياهها آسنة، كنا في عزلة عن الدنيا: عزلة مادية وفكرية. أضعنا ثمرات حضارتنا الأولى، التي قبست منها أوروبا في عصر نهضتها، ولم نأخذ إلاّ القليل من نتاج الحضارة الجديدة.

ولكن كانت في حياتنا فضائل، وكانت لها مزايا، إن فتحت باب الحديث عنها الآن لم أستطع أن أغلقه، وإن دخلت فيه لم أقدر أن أخرج منه فأوالي طريقي.

ولقد كتبت عن دمشق التي عرفتها وأنا صغير فصولاً ومقالات كثيرة في (رسالة) الزيات رحمه الله، وفي غيرها من الصحف والمجلات.

وأودعت بعضه كتابي (دمشق)، وكتابي (من حديث النفس)، و(صور وخواطر)، و(قصص من الحياة)، وكل هذه الكتب مطبوع مرات تتداوله أيدي القرّاء.

أما موقفنا من هذه الحضارة فقد ألقيت فيه محاضرة جامعة، في (ندوة الشباب العالمية) من نحو عشر سنين في الرياض طبعتها الندوة طبعة غاب عنها المصحّح فامتلأت بأخطاء الطبع، التي كان يدعوها صديقنا أديب العربية إسعاف النشاشيبي رحمه الله (التطبيعات).

* * *

لذلك أدعها الآن، وأرجع فأقتصر على حديث الذكريات، إلا وقفات

---

(١) اقرأوا سيرته الجامعة التي ألفها سالم الرشيدي وكتبت مقدمتها.

ولفتات، أقف قليلاً، أو ألتفت يميناً أو شمالاً ثم أمضي في طريقي.

* * *

قلت لكم إني كنت أرى الجياع ينبشون أكوام القمامة علّهم يجدون ما يؤكل، وما جاعت دمشق قط في عمرها الطويل إلّا تلك الأيام.

وكانت دمشق (مذ كانت) أرخص بلاد الله وأكثرها خيرات، كان ثمن رطل الخبز (والرطل كيلان ونصف) ما يعادل ثلاثة قروش سعودية، فصار رطل الخبز الأسود الذي فيه من كل ما يطحن دقيقاً إلّا دقيق القمح، صار بستين قرشاً، ولو وجدت القروش الستون (على صعوبة إيجادها) لم يوجد الخبز.

وصار كيلو السكر بدينار (أي جنيه) ذهبي، وصار النفط (زيت الكاز) أغلى من عطر الورد الأصلي الذي يستخرج من ورد (مسرابا) في الغوطة، وورده الجوري أعطر الأوراد.

وازدادت مناظر الجيـاع والهاربين من الجندية لأن مدرستنا قد انتقلت إلى سوق صاروجا، إلى دار هولو باشا العابد بجوار السوقيات، وترك والدي المدرسة وجاء مدير جديد، اسمه شكري بك عابدين.

وكانت دمشق (في التقسيم الرسمي) ثمانية (أثمان) أي أحياء، فأحياء العمارة وباب السلام يسكنها في الغالب العلماء، والقيمرية للتجار، والقنوات للوجهاء، أما سوق صاروجا[1] الذي يمتد من (العقيبة) إلى بوابة الصالحية فلكبار الموظفين وللأتراك، أما حي الميدان وحي الصالحية وحي الأكراد فكانت في الغالب مغلقة على أهلها.

وهولو باشا والد أقوى وأشهر عربي كان على عهد السلطان عبدالحميد، وكان كاتبه الثاني، وكان بمثابة أمين الدولة، وهو أحمد عزت باشا العابد، ومن آثاره (بناية العابد) في المرجة، وهي أول عمارة حديثة ضخمـة أقيمت في دمشـق على النمط الافرنجي، وهي أربعة طوابق من الحجر، لا تزال من أضخم العمارات.

---

(١) صاروجا من أمراء المماليك.

أما سبب ترك والدي إدارة المدرسة، وانتقاله إلى دائرة المفتي (أميناً للفتوى) وهو بمثابة مساعد للمفتي، فإني لا أعرفه.

* * *

وصلت سنة ١٩١٨ إلى الصف الخامس الابتدائي، وكانت مدرستنا (الأهلية) تتبع منهج مديرية المعارف، وتزيد عليه العناية بالعلوم الإسلامية، ولكن تدريسها سيء الأسلوب، معوج الطريقة، ولا أذكر لمدرس من مدرسيها أثراً في نفسي، فكأني كنت أنتقل من سنة إلى سنة، وأرتقي من فصل إلى فصل وأنا نائم.

* * *

ووصلت إلى أسماعنا أطراف من أحاديث الكبار عن ثورة قام بها شريف مكة على الدولة العثمانية، وكنا قد شهدنا من قبل شنق جماعة من كبار الناس في المرجة، دعاهم الناس (الشهداء)، وسَمُّوا من بعد المرجة من أجلهم بـ (ساحة الشهداء)، وبقينا سنين طوالاً نحتفل كل سنة في اليوم السادس من أيار (مايو) بذكراهم، ولقد كتبت في مطلع شبابي كما كتب غيري في رثائهم وتمجيد أسمائهم، ودعوا جمال باشا، لما صنع بهم، بـ (جمال السفاح).

ثم حصحص الحق، وشهد مؤرخو النصارى في لبنان، وفتحت مجلاتهم ملفات عنهم، فتبين أنهم إلّا قليلاً منهم (نحو الخمس منهم)، تبين أنهم كانوا خونة للدولة، جواسيس لأعدائها عليها، وإن الدولة (العثمانية) لما وضعت يدها على قنصليتي فرنسا وإنكلترا أيام الحرب، وجدت الأدلة القاطعة، والبراهين الدامغة على خيانتهم وتجسسّهم.

طلع النهار فجلى ما توهمناه في ظلام الليل، فسودت الحقيقة الصورة التي كانت بيضاء لهؤلاء الذين دعوناهم شهداء، كما بيضت وجه السلطان عبد الحميد، الذي حاول اليهود، تلاميذ إبليس أن يسودوه، سود الله وجوههم.

* * *

واستيقظنا يوماً من أيام سنة ١٩١٨ (المحرم ١٣٣٧) على صوت رعد شديد ولكن السماء ما فيها قطعة من غمام، ورجات هائلة كأنها زلزال، ولكن

ما اهتزت الدار.. فصعدنا نحاول أن نرى من سطوح المنازل، فشاهدنا نوراً يسطع ثم يخمد، وناراً تتفجر في الجو ثم تهمد، وانتظرنا فجاء من يخبرنا بأن (الجبخانة) في (القدم) أي مستودع الذخائر قد فُجِّر! وسألنا لماذا؟ فلم يعرف أحد لماذا؟.

فلما أصبحنا قالوا إن الجيش التركي قد انسحب في ظلام الليل، وخرج من دمشق، وأن الشريف فيصل بن الحسين قادم إلى دمشق، وكانت رجّة في البلد، وكانت مظاهرات، وما كنا نعرف ما المظاهرات، إنما نعرف (العرضة) في زفة العرس، أو في مثلها من المناسبات.

وكنا نهتف في المدرسة كل صباح بالتركية (باديشاهم شوق يشا) ومعناها (يعيش سلطاننا طويلاً) فسمعنا هتافاً جديداً ما كان لنا بمثله عهد هو (يعيش الاستقلال العربي).

ورأيناه مطبوعاً في أوراق، ليعلق على الجدران، لا أدري متى طبع، ولعلهم طبعوه وحملوه معهم.

ورأينا العلم الأحمر، ذا الهلال والنجم، الذي عشنا إلى ذلك اليوم تحته قد نزل، ورأينا في مكانه علمًا جديداً، فيه الألوان الأربعة.

الأبيض للأمويين، والأسود للعباسيين، والأخضر للهاشميين، والأحمر ما عدت أدري لمن هو، فكأنه يقول مع صفي الدين:

بيضٌ صنائعنا، سُود وقائعنا   خُضْر مرابعنا، حُمْر مواضينا



- ٦ -

من المدرسة التجارية إلى المدرسة السلطانية
ومن العهد التركي إلى العهد العربي

لبثنا ننتظر حتى إذا سكنت هزة المفاجأة، ورجعت الحياة تسير مسارها، وبدأ الناس يألفون العهد الجديد. .

. . . أخذنا كتبنا ودفاترنا وذهبنا إلى مدرستنا، فوجدنا المدرسة قد أغلقت، لقد جنى عليها اسمها، وما كان لها من صلة بجمعية الاتحاد والترقي إلّا صلة هذا الاسم، كما أن الجمعية لم يكن لها مما يدل عليه اسمها إلّا نصيب المدَّعي الكاذب في الدعوى الباطلة. اسمها جمعية الاتحاد، وهي التي جرّت علينا الانقسام، كانت الدول العثمانية جسداً واحداً، العرب أعضاء فيه والترك والكرد. فقطعوا الخيط الذي كان يربط أجزاءه، ويؤلف بينها، وهو الإسلام، فصار كل جزء جسداً مستقلاً، أي أنه صار مسخاً زريّاً لا إنساناً سويّاً.

وكانوا في أوروبا يشبهون الدولة بـ (الرجل المريض)، مريض؟ نعم! إن المريض يشفى والمرض ليس عيباً، ولكنه باعترافهم رجل.

وكان السلطان عبد الحميد رجلاً حقّاً؛ استطاع بدولة هرمة، وجيش هزيل أن يحجز دول أوروبا عن بلاده، وكان يضرب بدهائه بعضَها ببعض. كان (رجلًا) يلعب بالرجال، فلما جاء (صبيان) الاتحاديين، وأمسكوا هم الزمام، لعبت بهم الرجال وأشباه الرجال.

واسمها جمعية الترقي، وهي التي سببت لنا التدني، فبعد أن كانت الدولة على عهد السلاطين العظام أقوى دول الأرض، صارت بهم دويلات لا وزن لها في الأرض، يحكمها حكام من غير أبنائها بقوانينهم لا بشريعتها،

ذلك لما خاضت بحماقتها وجهلها، وخبث سرائرها وقبح نياتها، حرباً لا ناقة لها فيها ولا جمل، ولا شاة... فانتهت بها وبنا جميعاً إلى الضياع.

وبدأت دمشق تعيش كأنها في بهجة العرس وقد كانت قبل شهر واحد، في كربة كأنها كَمْدَة المأتم، وحل الوجدان محل الحرمان، فالخبز مبسوط أمام الشارين من كل نوع، وفي كل مكان، كما كان. وكثر السكر والبن والرز و (الكاز)، وكل ما كان مفقوداً صار موجوداً.

والأعلام الجديدة ترفرف على الدكاكين وعلى أبواب المنازل، والأناشيد التركية ذات الألحان القوية العبقرية، بُدِّلت أناشيد عربية، صيغت كلماتها على عجل، وركب اللحن التركي القديم على النشيد العربي الجديد. وكان الناس في الشام (كما كانوا في أكثر بلاد الشرق) لا يهتم جمهورهم بسياسة ولا رياسة. همهم أداء فرضهم، وحفظ عيالهم، وتسلية أنفسهم بما لم يحرمه عليهم دينهم، لذلك فرِحوا بما جاءهم من السعة بعد الضيق، والسلام بعد الحرب، لم يستطيعوا أن يزِنُوا ما كان بميزان الربح والخسارة، ولا أن يتبينوا هل كان خيره أكبر أم شره، ولم يتنبهوا إلى أن عهداً قد انتهى، وأن عهداً آخر قد بدأ.

سقوط روما كان نهاية القرون الأولى، وبداية القرون الوسطى، ولكن هل معنى هذا، أنه إذا كان سقوطها يوم الخميس، كان الأربعاء من القرون الأولى، والجمعة من الوسطى؟.

وإذا انتهى العصر الأموي بقتل مروان، وولاية السفاح، فهل القصيدة التي نظمت قبل مقتله بيوم لها مزايا وخصائص الشعر الأموي، والتي نظمت بعده بيوم لها خصائص ومزايا الشعر العباسي؟.

التبدل الآني ليس من سنن الله في هذا الوجود، الليل يكون أسود حالكاً ثم يكون بعده النهار أبيض مشرقاً، فهل تحول الظلام نوراً في لحظة؟ أم الله يولج الليل في النهار.

وكنت طفلاً ثم صرت شيخاً، فهل انتقلت في ساعة واحدة من الطفولة إلى الشباب، أو من الشباب إلى الشيخوخة؟ وهل أحسست بهذا التبدل؟.

راقب العقرب الصغير في الساعة، أنك لا تراه يتحرك، ولكنه مع سكونه الظاهر، يدور (دائرة) الساعة كلها.

وكذلك كنا ونحن نشهد ميلاد عهد جديد، العهد كان مخاضه عند بداية الحرب الأولى، وولادته عند نهاية الحرب الثانية، ولكنا لم نحسّ بذلك لأننا كن نعيش فيه.

إذا كنت في (المصعد)، وهو مغلق عليك، فهل تحسّ بأنه ينزل أو يصعد؟ إنك تدرك حركته بعد أن تخرج منه، وتقف فتنظر إليه، ونحن نستطيع الآن أن ندرك حقيقة الذي كان، ونزنه بميزان الربح والخسران.

* * *

وقبل أن أودع المدرسة التجارية أذكر أنها خرّجت طبقة من المثقفين كانت سبّاقة، وكانت رائدة، أتمنى لو كانت أسماؤهم عندي، لكني أسمّي من يخطر على بالي. فمنهم خالد بك العظم السياسي المعروف رئيس وزراء سورية، وقد درس فيها حيناً وإن لم يتخرج منها. ومنهم صبحي بك القوتلي الرئيس الثاني لمحكمة النقض، وفؤاد بك المحاسني النائب العام، وممن تخرج منها وحمل شهادتها: الأطباء؛ طاهر. الطنطاوي، وقد دخل بعدها مدرسة الطب وخرج منها طبيباً سنة ١٩٢٠، ورفاقه الدكتور محمد سالم، والدكتور سهيل الخياط وهو لا يزال حيّاً، مدّ الله في عمره، ورحم الباقين.

وقد كان يدرس فيها أكابر المشايخ الدروس الدينيـة، وقادة الجيش العثماني العلوم الرياضية والطبيعية، وحسبكم أن من مدرسيها مدير معارف سورية هاشم بك يوم كانت ولاية سورية تشمل البقاع وبعلبك وطرابلس والأردن إلى معان.

ومن مآثر المدرسة عنايتها المبكرة بالألعاب الريـاضية[١]، ولقـد كان الدكتور محمد سالم من أوائل المعنيين بكرة القدم ومن قدماء لاعبيها، ولقد أنشأ ابن عمي الدكتور طاهر الطنطاوي الذي توفي السنة الماضية[٢]، أنشأ في

---

(١) راجع مذكرات خالد العظم.

(٢) ١٤٠٠ هـ.

بستان داره في الصالحية ملعباً كاملاً لنفسه ولإخوانه. . .

أغلقت هذه المدرسة فتفرق تلاميذها في المدارس، وأدخلني أبي المدرسة السلطانية الثانية، وكانت في القسم الشمالي من جامع يلبغا في المرجة، في صحنه الواسع. وفي الغرف التي بنيت على جوانب الصحن، أما البركة الكبيرة فقد أقيم عليها حاجز من الخشب، يقسمها قسمين متساويين، قسم بقي في حيّز المسجد، وقسم في حيّز المدرسة.

وقد كان موضع المسجد تلاً يشنق عليه المجرمون، فأخذه والي الشام سيف الدين يلبغا سنة ٨٤٧هـ وأنشأ عليه هذا المسجد.

* * *

يا لله كم في حياتي من منعطفات! وكلما انعطف بي الطريق مرة في وادي العمر، تبدلت المناظر من حولي.

كنا في المدرسة التجارية نتعلم اللغة التركية، فصرنا هنا ندرس العربية، وكنا نهتف في الصباح (باديشاهم جوق يشا) فصرنا نهتف (ليحيا الاستقلال العربي)، وكنا قد بدأنا نتلقى مبادىء اللغة الفرنسية، فصرنا نتلقى مبادىء الإنكليزية.

على أن من الإنصاف أن أقول، تدليلاً على إسلامية الشعب التركي التي لا تحتاج إلى دليل، إن تعليم التركية كان يبدأ باسم الله. كنا نقرأ التركية ونكتبها بالحروف العربية، لم يكن قد نجم فينا (أعني الأمة الإسلامية) من يحارب ديننا، بإضعاف لساننا، فيستبدل بالحروف العربية اللاتينية، كما فعلوا (من بعد) باللغة الأندونيسية، وكانت تكتب بالحروف العربية. كنا نبدأ بحفظ كتاب صغير اسمه (أسماء تركية) أوله: تنري الله جل شأنه، بيغمبر النبي، أبدست الوضوء، نماز الصلاة. .

لا أزال أحفظه إلى الآن، وكانت كلمة (تنري) تكتب تكري، كما تكتب كلمة بينباشي (أي رئيس الألف) بكباشي.

ولعل المؤرخ المصري ابن تغري بردي، كان اسمه (تنري ويردي) أي

عطاء الله، أقول هذا من عندي، ما عندي فيه نص.

* * *

وكان في دمشق مدرسة سلطانية واحدة، هي مكتب عنبر، ثم فتحت في أواخر حكم الأتراك مدرسة أخرى، وكنا نسمي المدرسة المكتب، والسلطاني معناها الثانوي، وهذه المدرسة هي (المكتب السلطاني العربي)، وقد كانت في طريق (ستي زيتونة)، وممن أعرفه درس فيها أستاذنا الشيخ زين العابدين التونسي، والشيخ عصام الدين الحسني وهو ابن الشيخ بدر الدين الحسني والأخ الأكبر للشيخ تاج الدين، الذي صار رئيس الجمهورية السورية، ووالد الصديق الشيخ فخر الدين مدير دائرة الافتاء في سورية (سابقاً).

أما هذه الزيتونة، فقد كانت شجرة هرمة، أمامها قفص من حديد تربط النساء به الخرق، وتحتها قبر، وعندها (شيخ) دجال، قد جعل مرتزقه سدانة هذا الوثن.

أما قصتها فعجيبة حقّاً، هي أن قاسم الأحمد (جد صديقنا وزميلنا نهاد القاسم الأخ الوفي والوزير المستقيم رحمة الله على روحه) لما ثار على ابراهيم باشا أيام حكمه الشام، قبض عليه بعد معارك طويلة، فشنقه مع خمسة من رفاقه تحت زيتونة كانت هنا، فقال الناس (الستة بالزيتونة)، ثم نسوا القصة، فقدسوا الشجرة وسمّوها (ستي زيتونة)!

* * *

أما السلطانية الثانية التي دخلتها فقد فتحت بعد دخول الشريف فيصل بن الحسين ولورانس الانكليزي دمشق، وكانت ابتدائية، وسلطانية (أي ثانوية)، مدير القسم الابتدائي الأستاذ شريف آقبيق وقد سمعت أنه لا يزال حيّاً، قوّاه الله، ومدير الثانوي (والمدير العام) هو شيخ المعلمين الرسميين في الشام الأستاذ سعيد مراد.

وكان من معلمينا فيها شاب (أعني أنه كان يومئذ شاباً) من نابلس، هو أول من علمني الإنشاء العربي، كان يأخذ مقالات المنفلوطي، فيجعلها بحيث

نفهمها ثم يكلفنا أن نكتب مثلها، وكانت مزيته الأولى صوته، فما عرفت على كثرة ما سمعت من الأصوات، ما هو أحلى منه وأطرب، وقد أنشد يوماً في اجتماع عام نشيد (ويلي على أوطاني من غارة العدوان) أمام الشريف فيصل، فأعجب به فجعله مدرس الموسيقى في السلطانية الأولى، ثم صار مدرساً سياراً لها، يدور على المدارس، فيكون يوم وصوله فرحة للمدرسة، وكان ممن ينظم الأناشيد العربية، أو يترجمها عن التركية ويلبسها النغمة الأصلية. وهو الأستاذ حسني كنعان وسأعود إلى الكلام عنه، فقد استمرت اتصالاتنا حتى توفاه الله سنة ١٩٨٠ رحمه الله.

* * *

أما رفاقي فيها فلست أذكر منهم إلّا المهندس صلاح شيخ الأرض، وقد كان هنا منذ سنوات، والمحامي الشاعر عبد الحكيم مراد، ولم أره من ثلاثين سنة وأحسب أنه في الكويت، والأستاذ حسن السقا الكيميائي ولست أدري ما فعل الله به.

ومن ذكريات هذه المدرسة الباقية في نفسي أن حاكم دمشق العسكري الجديد، وهو رضا باشا الركابي الذي كان أعلى عربي رتبة في الجيش العثماني، زار المدرسة يوماً، فدخل علينا الفصل، ووراءه وزير المعارف ورؤساء التعليم ومدير المدرسة، وكان بلباس (الجنرال) العسكري، والشارات على كتفيه، والأوسمة على صدره.

وكان الأستاذ حسني قد حفظنا قصيد الحلِّي: سَلِ الرماح العوالي عن معالينا، ولكنه بدل البيت الثاني، فجعله:

وسائل العرب والألبان ما فعلت   بعسكر الترك والألمان أيدينا

وكان حسن السقا يلقيها بصوت عال، وحماسة بالغة، فقاطعه الباشا وسأله: من علمك هذا؟.

فارتعب وأشار إلى الأستاذ، فمدّ الباشا يده إلى الأستاذ، ولكن الأستاذ كان قد اصفرّ لونه، ولولا أنه استند إلى المقعد لهوى...

وإذا الباشا يصافحه!.

ولما خرج الباشا، ومن كان معه، قال الأستاذ: أرأيتم يا أولادي؟ هكذا تكون الشجاعة!.

واستدار لئلا نرى البلل في بنطاله!

ولا تظنوا أني أكتب هذا بعد ما توفاه الله لأني لا أقدره ولا أحترمه. لا والله، ولو علمت أنه كان يسوؤه ما رويته، ولقد كتبته في حياته، وضحك لما قرأه، ثم كتب القصة بقلمه، وروى عن نفسه أشياء أبلغ في بابها منها رحمة الله عليه.

* * *

ومن ذكريات هذه المدرسة فيضان بردى، بردى الذي كتبت عنه الكثير والذي يصل (المرجة) بعدما انشق عنه أبناؤه الستة: (يزيد، وتورا، وباناس والقنوات، والقناة، والديراني) ولم يبق من مائه ما يبلل ظهر قط مشى فيه، بردى الذي لا تذهب منه قطرة هدراً على حين تذهب مياه الأنهار الكبار إلى البحر، فلا هي حفظت ماءها لها، ولا البحر امتلأ منها، بردى الذي قال كاتب شوقي، لما زار دمشق فرآه بعدما سمع من شوقي أشعاره فيه، قال متعجباً: أهو ده بردى؟.

بردى هذا إذا وصل إلى المرجة وأردنا أن نسلبه حريته في جريه، وأن نسجنه تحت القناطر، فيدوس عليه الماشون في المرجة، بردى يثور... وإذا ثار أغرق المرجة وما فيها، ومما كان فيها مدرستنا (السلطانية الثانية) أني لأذكر ذلك الفيضان سنة ١٩١٨، واستحضره في ذهني حتى أرى المدرسة كلها قد صارت بركة واحدة، والمقاعد قد طفت على وجه الماء كالزوارق، وتصايح التلاميذ، واستدعيت الشرطة، وأسرع المدرسون إلى إنقاذ الصغار.. وكان يوماً لا ينسى.

* * *



- ٧ -
في المدرسة السلطانية

اذهب إلى المرجة اليوم، واستقبل جهة الجامع الأموي وانظر إلى يسارك لا تبصر إلّا برحة واسعة ما فيها بنيان.

إرجع إلى العهد الذي أخبر عن ذكرياته الآن، لترى بناءً من طبقتين، الداخلون إليه كثير، والخارجون منه كثير. هذا يدخل والحديد في يديه فيخرج طليقاً، أو يدخل طليقاً فيخرجون به إلى السجن (في القلعة)، وهذا يدخل مدعياً آملا الربح فيخرج خائباً خاسراً دعـواه، وذاك يخرج فـرحاً رابحـاً الدعوى.

هنا كانت (العدلية)، وإلى شرقها بناء أصغر هو (البريد)، والبريـد (مصلحة) القلوب والجيوب[1]. وحقيبة ساعي البـريد فيهـا البشائـر وفيها النذر، يترقبه العاشق، وينتظره التاجر، والأم التي غاب عنها. ولدهـا تعد الدقائق لتأخذ رسالة منـه تطفىء أو تخفف من نـار الشوق في صـدرها، والطالب يقف على الباب، وبصره على أول الشارع، ليرى ما يحمل إليه موزع البريد، هل يحمل خبر النجاح في الامتحان، أو نبأ السقوط والخسران؟.

وإلى قربها عمارات تطل على بردى، يقابلها من هناك (السراي)، وقد كانت في ذلك العهد بل إلى ما بعده بربع قرن تجمع وحدهـا وزارات الدولة كلها، ومعها مجلس الوزراء، وبجنبها البلدية.

---

(١) الجيب فتحة القميص عند العنق ولكن لا بأس باستعماله على الوجه المعروف.

ووراء العدلية والبريد جامع يلبغا، باب له من الشرق يطل على سوق الخيل، وباب من الغرب يخرج إلى (البحصة)، ومدرستنا في صحنه من ورائه، ومئذنته وراء المدرسة تطل على الشارع الخلفي.

فماذا فعل ذلك كله؟ لقد ذهب!

أما هذه العمارات فقد أودت بها إحدى الحرائق الهائلة التي كانت تشهدها دمشق، و(حريقة) أخرى ذهبت بالـدور المقابلة، وكشفت جـامع (تنكز)[1] فقام هنا (فندق أمية)، وقامت هناك عمارات حديثة.

أما البلدية فقد هدمت وبيعت للسيد الشربتلي (المعروف) فـأقام في موضعها عمارة كبيرة، وبنت البلدية لنفسها بناءً ضخماً.

أما (بردى) فقد دفنوه حيّاً، وجعلوا قبره شارعاً تطؤه الأقدام، وقد كانوا يدوسون فوقه من قبل حين ألزموه أن يمشي في المرجة تحت الأرض ليمشوا هم فوقها.

وكانت المرجة في طرف البلد، تلتقي فيها خطوط الترام الذي جاءت شركة بلجيكية به وبالكهربـاء سنة ١٨٩٨ كما سمعت، وقد ألغي في الشام من أكثر من ربع قرن، ولكني رأيته بذاته في بروكسل سنة ١٩٧٠ لما زرتها.

وذهبت مدرستنا مع ما ذهب، وذهبت معها قطعة من حياتي، وكم كانت لنا فيها آمال، وكم حملنا فيها من آلام، فأين آمالنا فيها وأين آلامنا، لقد كانت دنيانا كلها مختصرة فيها، كما يختصر الكتاب في صفحات، وكما تقطر قارورة العطر في قطرات، فأين دنيانا تلك يا ناس؟.

أين من كانوا يقعدون فيها على المقعد الواحد، لقد رفع الدهر منهم قوماً ووضع آخرين، اغتنى ناس وافتقر ناس، وربما صار (بل لقـد رأينا

---

(١) وكانت عندنا (مصلحة إطفاء) أنشئت لما أحسوا بالحاجة إليها عندما احترق مسجد بني أمية الكبير، ثم بناه أهل الشام هذا البناء سنة ١٣١١ هـ ولكن الإطفاء يومئذ لم يكن كالإطفاء اليوم.

بأعيننا) ابن الآذن (الفراش) قد صار هو الرئيس، وابن الرئيس قد أمسى فراشاً أو مثل الفراش.

هذه هي الدنيا، فالأحمق من اطمأن إليها، ووثق بدوامها، ولم يحسب حساباً لتداول الدول، وتبدل الأحوال، وظن أن ما نال منها من مال ومجد وسلطان باقٍ له، ما علم أنه لو دام على من قبله ما وصل إليه...

ثم مضى أكثر رفاقنا إلى حيث من مضى لا يؤوب، مضوا ليجدوا ما قدموا محضراً، فإما إلى جنة، وإما إلى نار، فاللّهمّ يا عفوّ يا من تحب العفو اعف عنا، واختم بالحسنى لنا، ولمن صفى قلبه مع الله، ومدَّ يديه خاشعاً، وقال: آمين.

وأرجو لكل من دعا لي بخير، مثل ما دعا لي به، هذا والله ما أريده، وهذا ما أحتاج إليه، لا أحتاج مالاً ولا منزلة ولا شهرة في الناس، كل ذلك لديّ منه الكثير، وكل ذلك سراب، تحسبه من بعيد ماء، فإن جئته لم تجد إلّا التراب... ما أريد إلّا دعوة صالحة من مسلم صالح، تبقى سرّاً بينه وبين الله.

لقد قارعت هذه المدرسة دهرها، فنزلت حتى صارت مدرسة ابتدائية، ثم أدركها ما يدرك كل ما سوى الله: من إنسان وحيوان ونبات. أدركها الأجل (الذي مهما تأخر)، فإنه آتٍ، فماتت، ولم تجد قبراً، يدل عليها أو لوحة تشير إلى وجودها.

* * *

لما دخلت هذه المدرسة كنت قد ارتقيت أيام الأتراك إلى السنة الخامسة الإبتدائية فردّوني لما تبدلت المناهج إلى الرابعة.

ومرت السنة ونجحت مرة ثانية إلى الخامسة وكنت الثاني بين رفاقي، ومع هذا الجزء من الذكريات صورة (جلاء) فيه درجاتي، وإثبات نجاحي[1].

---

(١) انظر نهاية الجزء.

وانتقلت المدرسة لسبب لا أدريه إلى البناء الذي أقامه أحد الولاة الأتراك على بردى، بين التكية السليمانية والأخرى التي أنشأها قبلها السلطان سليم.

والذي يشبه في طراز بنائه أبنية القرون الوسطى: برجان من الجانبين وفوقهما سقف هرمي من القرميد، والباب الكبير بينهما، وقد كانت فوقه لوحة من الحجر مكتوب عليها مدرسة دار المعلمين، فانتقلت مدرستنا إليه.

ثم صار كلية الحقوق (وكانت تسمّى معهد الحقوق)، وقد تخرجت فيها ونلت شهادتها سنة **١٩٣٣**،ثم صار وزارة المعارف، وهو اليوم إدارة التعليم في دمشق.

مالي أستبق الأيام؟ ولِمَ لا أنتظر حتى يصل بي إلى ذلك الكلام؟.

* * *

انتقلنا إليها، وصار مديرنا الدكتور كامل نصري، ومن مدرسينا فيها الشيخ زين العابدين التونسي وهو الأخ الأصغر لشيخ مشايخنا السيد الخضر حسين، الذي صار من بعد شيخ الجامع الأزهر، وأستاذ الأساتذة مصطفى تمر، الذي كان المفتش الوحيد لمدارس سورية، والشيخ أبو الخير القواس، الذي اخترع الطريقة المنسوبة إليه في تدريس قواعد اللغة العربية (النحو والصرف)، وجعل للأمثلة لوحات كبيرة، حروف الزوائد في كلماتها ملونة، ورتب عليها أسئلة، ثم صغرها في سلسلة كتب كنا ندرسها اسمها (دروس القواس)، وأشهد الآن أنها كانت أفضل الطرق، وكان يدرسنا اللغة الفرنسية الأستاذ علي الجزائري.

وخرجنا مع أول مظاهرة مشينا فيها يتقدمنا طالب كبير، يسأل: ماذا تريدون؟ فنجيب بصوت واحد: ياسين باشا.

من ياسين باشا؟ ماذا نريد منه؟ لم أكن يومئذ أدري، لكني علمت بعد ذلك أن الإنكليز (كما قال الناس) قد اختطفوه، فخرجنا نطالب بإرجاعه.

وفي تلك السنة قرر المؤتمر السوري الذي كان يمثل سورية ولبنان وفلسطين، نصب الأمير فيصل ملكاً، وكان تتويجه يوم (٨ آذار ١٩٢٠).

وطالما كتبت بعد ذلك في ذكرى هذا اليوم.

ودعيت إلى حفلة التتويج، وحضرتها مع رفاقي في المدرسة، ولكن (من برا)، وقفونا صفاً أمام السراي، ثلاث ساعات على أقدامنا بلا طعام ولا شراب!.

كذلك كانت مشاركتنا في الاحتفال، وكذلك كانت معرفتنا بعهد الشريف، نعيش فيه ولكن لا نرى منه إلا الظواهر، وما أبعد ما بين ظواهر الأحداث العامة وحقائقها.

الذي رأيته في هاتين السنتين بقيت حلاوة طعمه تحت لساني، كنت أظن أن دمشق في فرحة متصلة، في عرس لا ينتهي، المظاهرات مظاهرات الفرح، والحماسة التي عمت الجميع، وسوق عكاظ للخطب في (النادي العربي) وكان في الركن الغربي، من ملتقى طريق الصالحية والطريق إلى بيروت، أمام فندق فيكتوريا، ولقد كتبت عنه كثيراً، وحدثت عنه أكثر، وكان أبرز خطبائه (كما أذكر) الدكتور عبد الرحمن شهبندر، كان يخطب كأنه يتحدث، لا ينفعل ولكن يفعل بالسامعين ما يشاء، يقيمهم ويقعدهم، ويلعب بمشاعرهم وبقلوبهم، ومن خطبائه شيخنا الشيخ عبد الرحمن سلام وسيأتي عنه الكلام، ورجل نصراني كان اسمه حبيب اسطفان خطيب نادر المثال.

وكانت نهضة عظيمة في الأناشيد، أشهرها (أيها المولى العظيم فخر كل العرب) و(سيروا للمجد طراً سيروا للحرب) و(صليل الظبا وصرير القلم لفلك القيود وقشع الظلم) و(افتحوا لنا الطريق) وعشرات لا أزال أحفظ الكثير منها، وأحفظ ألحانها.

ولما تكلمت في الرائي عن نشيد (بلادي بلادي منار الهدى) وقلت إن لحنه قديم أحفظه من صغري، وأنا أؤكد ذلك هنا تأكيداً جازماً، تعجب الناس مني، من أين لشيخ مثلي المعرفة بالألحان؟.

معرفتي بها، من حفظي أولاً للأناشيد التركية، وأناشيد هذا العهد الذي أتحدث عنه، والثالثة أن معلمينا من المشايخ كانوا يأخذون كل لحن يسمعونه،

ولو كان لأغنية غرام مبتذلة، فيؤلفون كلاماً سخيفاً يزعمون أنه في مدح الرسول ﷺ وينزلونه على اللحن، وقد أنكرت هذا في الصحف وفي الإذاعة وعلى المنابر من أكثر من أربعين سنة وأنكره الآن، ولكني أقرّ أني حفظت بسببه أكثر ألحان عبده الحامولي، ومحمد عثمان، وداود حسني (اليهودي)، وأمين حسنين، والشيخ أبي العلا، وسيد درويش، وزكريا أحمد.

ونشيد بلادي (السعودي) نظم معارضة لنشيد الرافعي:

بـلادي بـلادي هــواك دمي   جعلت حياتي فدى فـاعلمي
غـرامـك أول مـا في الفؤاد   وذكــرك آخـر مــا في فمي

ولحنه جاء من هنا مشوباً بشيء من لحن القصيدة التي كانت تغنيها أم كلثوم: (مصر التي في خاطري وفي فمي) لا من نشيد سيد درويش:

بــلادي بــلادي لــك حـبي وفـؤادي

ولأنهم علمونا في المدرسة (النوتة الموسيقية) مفصلة غاية التفصيل، وإن كنت لم أمسك بيدي آلة موسيقية، فضلاً عن العزف عليها، وإنما هو علم نظري بها، كما أعرف (نظرياً أيضـاً) المقامـات والأنغام العـربية، وأنـواع الضروب والإيقاعات، على مبدأ (تعلَّم السحر ولا تعمل به)، وإن لم يكن حديثاً.

* * *

وكان لي مع الشيخ زين (رحمة الله عليه وعلى أساتذتنا جميعاً) موقف أسأت فيه إليه وأنا لا أدري، وكان ذلك سنة ١٩١٩، وقد زرته آخر مرة ذهبت فيهـا إلى دمشق، وقلت لـه: أنت أستـاذي وبـدأت أذكــره بتلك الأيام.... فبان على وجهه الغضب المكتوم وقال: دع هذا الآن.

قلت (متعجباً): ولِمَ يا سيدي؟

قال: أنسيت أنك كنت تكذبني وأنا ألقي الدرس؟.

قلت: يا سيدي، أبعد أربع وخمسين سنة؟ والله إني مظلوم وبريء (كما يقولون في المسرحيات).

لقد كانت القصة أن الشيخ كان يدرسنا التوحيد، وكانوا يبدؤون عادة بذكر الواجب والمستحيل والممكن، فجعل يضرب أمثلة على المستحيل، ويسألنا من يدَّعي هذا ماذا نقول له؟ فنقول: كذاب.

وشرد ذهني ولم أنتبه إلى أنه انتقل إلى كلام آخر، فكنت كلما أكمل الجملة أقول بلا تفكير: كذاب!.

رحمه الله لقد كان مدرساً نافعاً، وكان مؤلفاً يصنف للطلاب الكتب التي توافق مداركهم، وتسيغها عقولهم: ألف (المعجم المدرسي)، ثم ألف رسالة ما سبقه أحد فيها أعلم إلى موضوعها هي (المعجم في النحو والصرف) وجعله مرتباً على الحروف... وأنا أقترح على الأستاذ الكبير عبد الرحمن التونسي، والشيخ هو عم أمه أن يعيد طبعه وأن يسعى لتعممه وزارة المعارف على جميع التلاميذ، فإني لا أعرف كتاباً في حجمه، يحوي مثل علمه، ويفهمه التلاميذ مثل فهمه، وهذا شيء خطر على بالي الآن وأنا أكتب هذا الفصل، ما فكرت فيه من قبل، ولكن أرجو أن يكون خدمة لذكرى أستاذي، ومنفعة لأبناء بلدي، وأنا أعد هذا البلد بلدي. وبلد كل مسلم يتوجه في صلاته إليه.

* * *

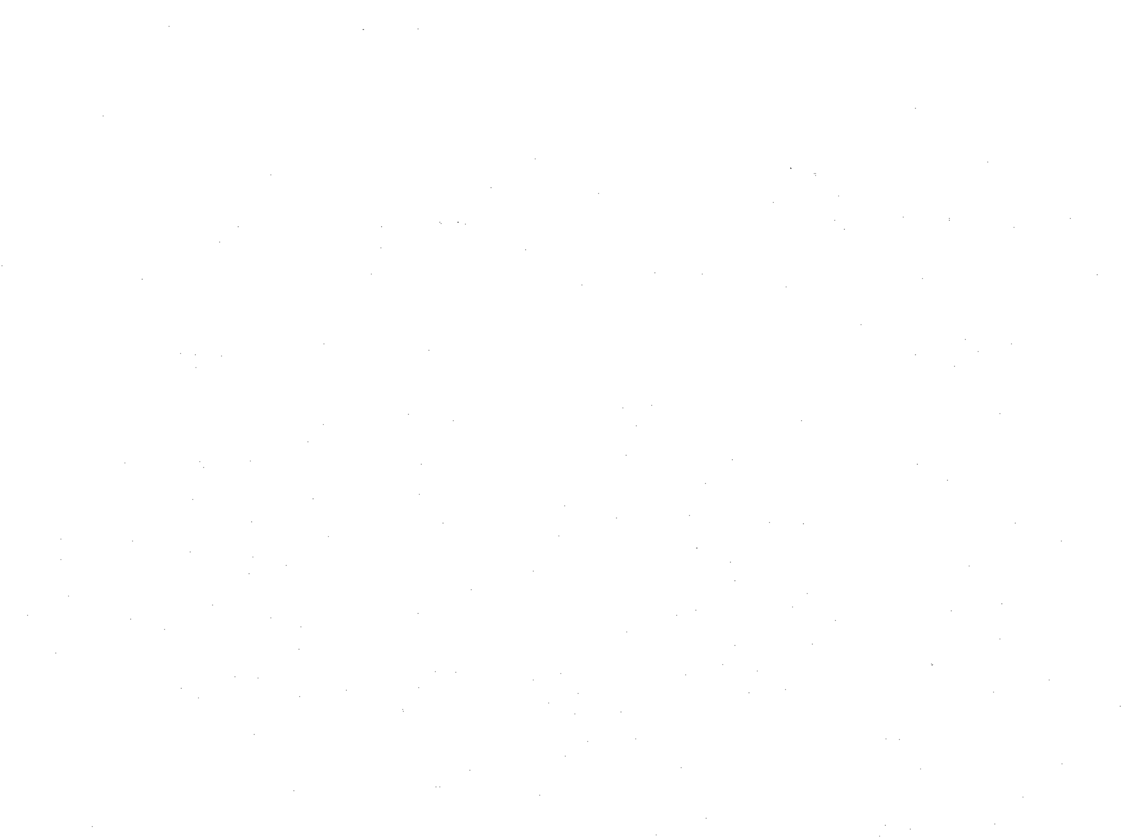
وهنا جاء في طريق حياتي منعطف آخر.

كنت من أصغر تلاميذ صفي (أو فصلي كما تقولون)، وكان عبد الحكيم مراد وهو في مثل سني، وكنا لا نتكلم إلاّ الفصحى، فكان التلاميذ الكبار يسخرون منا، وربما آذونا، وعلم أبي بذلك فأخرجني منها، وأدخلني المدرسة الجقمقية[1]، عند الشيخ عيد السفرجلاني...

ومنعطف أكبر منه، كان في حياة سورية كلها، هو موقعة (ميسلون) وانتهاء الحكم العربي، وبداية الانتداب الفرنسي.

---

(١) نسبة إلى جقمق من حكام المماليك.



- ٨ -
منعطف خطير في تاريخ سوريا

وقفت بكم أمام منعطفين: واحد منهما في طريق حياتي أنا، وواحد في طريق تاريخ بلدي، والبلدان التي تجاوره وتجمعها به جوامع العقيدة والمصلحة واللسان، وهو منعطف معركة ميسلون.

لا أكتب عنها بقلم المؤرخ الذي يجمع الروايات، ويصفّيها ويصنفها، ثم يؤلف بينها، ويستخرج العبرة منها، فقد كتب عنها كثير، ولعل أحسن ما كتب فيها كتاب الأستاذ ساطع الحصري.

وهذا الرجل سابق من السابقين من الموجهين والمربين من العرب، وإن عاش حياته الطويلة جداً ومات وهو لا يحسن العربية لا نطقاً ولا كتابة، مفكر ممتاز كان شيخ المشتغلين بالتربية من عام ١٩٠٨ في تركيا، ثم في الشام على العهد الذي أتحدث الآن حديث ذكرياته، ثم في العراق، وقد تسلّم (المعارف) من بابها إلى محرابها، وأصدر يومئذ مجلة كانت أولى مجلاتها، ثم أشرف على (المعارف) في سورية بعد الاستقلال، وهو نسيب الزعيم سعد الله الجابري، ثم عمل في مصر في جامعة الدول العربية.

هذه مزاياه، إما: هل أحسن أم قد أساء؟ وماذا كان موقفه من الإسلام؟ الجواب لا يرضيه لو كان حيّاً، ولا يُرضي تلاميذه ومحبيه، ولكنه الحق ولا يضر الحق أن كثر أعداؤه وكارهوه.

كان العقل المفكِّر لفتنة القومية، التي لم يأت منها إلّا إن كنا أمة واحدة هي (أمة محمد)، فصرنا جمعية أمم، وكنا إخوة يجمعنا الحب في ظلال

الإيمان، فصرنا أعداء تفرقنا هذه الدعوة الجاهلية....

ولقد أفسد مناهج سورية لما دعا بعد الاستقلال لإصلاحها.

ولقد كان لنا (أنا ونهاد القاسم رحمه الله) مجلس معه في مصر، سنة ١٩٤٧ استمر ساعات...

...ولكن لماذا أقف عنده الآن؟

إنه داء الاستطراد، والخروج عن الجادة، فلنعد إليها، ولنتابع طريقنا فيها.

لقد كانت معركة ميسلون منعطفاً خطيراً في تاريخ بلادي، وما أكثر المنعطفات في قصة حياتي.

ذلك لتعلموا أن حياة الإنسان لا تقاس بـ(طول) السنين، بل بـ(عرض) الأحداث، فلقد بلغ عمري في التاريخ الذي أكتب عنه، اثنتي عشرة سنة فقط، ولكني رأيت فيها حكم الأتراك، وحكم العرب ومن ورائهم الإنكليز، مستخفون بأشخاصهم ظاهرون بأعمالهم، كالوسواس الخناس مع الناس. وسأشهد قريباً حكم الفرنسيين، وهم ظاهرون ظهوراً قوياً ولكن أثرهم (إن قيس بأثر أولئك) كان ضعيفاً.

أتعرفون القصة الرمزية عن الريح والشمس، لما تراهنتا على أيهما يقدر أن ينزع عن الفلاح معطفه، فعصفت الريح واضطربت وحركت الهواء، فبرد فلبس فوق المعطف عباءة، وجاءت الشمس فوجهت أشعتها إليه، فأحسّ بالحر، وسال من جسده العرق، فنزع المعطف.

هذا هو مثال الإنكليز والفرنسيين كما رأيناهما في الشام، وهما بعد ذلك كحماري العبادي (من سكان الحيرة)، قيل له: أي حماريك أسوأ من صاحبه، قال: هذا وهذا! أو كما يقول المثل اللبناني العامي: كما حنا كما حنين. الله يلعن الاثنين!.

وكانت ميسلون، وأنا أصف منها ما رأيت وما يمكن أن يراه مثلي.

* * *

كنا في جنة، أو فيما نتوهمه جنة، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت، وكنا في قصر فيه كل ما نطلب وما نتمنى، فأتاه زلزال مدمر فتركه خراباً.

كنا نعيش (أو نظن أننا نعيش) في عرس دائم: ابتهاج وحماسة، وعودة الخير، والسعة بعد الضيق، والحرية (أو ما حسبناه حرية) بعد أن كنا في سجن كبير.

أصبحنا، وإذا الأخبار تتوارد عن مسير الفرنسيين إلينا، وأن الأعور الدجال قادم علينا.

إنه الجنرال غورو[1] لم ندر أنهم تقاسمونا ونحن نيام، وأن (سايكس وبيكو) وزعونا غنائم حِرب كما توزع المواشي التي أخذها الجيش الغالب من الجيش المغلوب، وأن إنذاراً قد وجه بحلّ الجيش، وأن الملك وافق عليه وسرح الجيش، كل ذلك لم يعلم به عامة الكبار، فما بالك بالتلاميذ الصغار؟.

وسرت أقوال أن مدير البريد العام حسن بك الحكيم، قد أخّر برقية الملك لأنه لم يرض أن يكون شريكاً في هذا الموقف الذليل، ثم تبين أن ذلك لا أصل له.

وحسن بك السياسي النظيف رئيس الوزارة مرات، رجل الاستقامة والإصلاح لا يزال حياً، يعيش على راتب تقاعدي لا يعدل راتب معلم ابتدائي، وهو أحد الأعلام في تاريخنا الحديث، ولو شاء لكان كما كان غيره من أصحاب الملايين. فيا أسفي! أهكذا يعامل شرفاء الرجال؟.

* * *

واشتعلت البلد بنار الحماسة، وكان الوطني المخلص، وأحد أركان التعليم الشيخ كامل القصاب، يذكي هذه النار ويضرمها، وتألفت اللجان الشعبية لجمع المال[2]، وهجم الناس على الثكنة الحميدية (القشلة) وهي تشبه

---

(١) والأعور الدجال الثاني موشي ديان وقد فطس في أواخر عام ١٩٨١ م (وكلمة فطس من العامي الفصيح)، والثالث هو الذي يظهر قبل يوم القيامة.

(٢) وكان المشرف على هذه اللجان خالي الأستاذ محب الدين الخطيب، وأنا أذكر غرفة كبيرة في داره (قرب البادرائية) مملوءة حتى سقفها بالبنادق توزع على المتطوعين.

أختـها في مكة، ولكنها أكبر، وهي اليوم جزء من جامعة دمشق، وخطفوا ما وجدوا من السلاح، ومنهم من أخذ بندقية فرنسية ورصاصاً ألمانياً. . فانفجرت منه.

وظنوا بأن الحرب تكتسب بالخطب، كما ظن ذلك الأستاذ أحمد الشقيري رحمه الله، وأبوه الشيخ أسعد من قبله وكان خطيباً مثله، وكما يظن كثيرون، وخرجوا بالأهازيج والأناشيد، يتسابقون إلى ساحة المعركة. . .

وكان من المتحمسين القائد الشاب يوسف بك العظمة، شهيد ميسلون وقبره فيها، ولم يستمع أحد لنصح كبار العسكريين كرضا باشا الركابي، وكانوا يظنون أن جماهير ما عندها من أدوات الحرب، إلّا الحماسة تستطيع أن ترد جيشاً فرنسياً يقوده جنرال. فكانت الهزيمة المرتقبة بعـد قتال قصير، ودفن الاستقلال وهو لم يتم سن الرضاعة، وبدأ حكم الأجنبي للشام.

* * *

أما المنعطف الصغير في حياتي أنا، فهو نقلي من المدرسة السلطانية الثانية (الـرسمية)، إلى مـدرسة الشيـخ عيد السفـرجـلاني (الأهليـة) وكـانت في الجقمقية. أما (الجقمقية) فقد بناها (جقمق) المتوفى في سنة ٨٢٤هـ، وهي في جوار قبر صلاح الدين الأيوبي، والمدرسة السميساطية التي كانت يوماً دار عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين، والمدرسة الاخنائية، وقريب منها العادلية التي بناها العادل الأيوبي، وفيها اليوم مجمع اللغة العربية، وكانت يوماً دار الإفتاء، وكان القاضي المؤرخ ابن خلكان ينام فيها، وأمامها الظاهرية أغنى المكتبات في الدنيا بالمخطوطات في علوم الحديث، وقد صنع لها المحدث الشيخ ناصر الألباني[1] فهرساً.

وهذه المحلة من دمشق ممتلئة بالمدارس القديمة، حتى أنك لتلقى داراً مملوكة على بابها لوحة باسم المدرسة وواقفها وما وقفه عليها. . وهذا من

---

(١) وأنا أقر له بالصدارة في علوم الحديث وأرجع فيها إليه، وأنكر تفقهه وآراءه التي يخالف فيها جمهور العلماء من الفقهاء.

العجب، وأعجب منه أن جدار الأموي الشمالي وعرضه نحو المترين أو قريب منها فيه نافذة، أرضها ملحقة بدار مملوكة مسجلة في السجل العقاري. . وهي من جدار الجامع!.

ومحلة أخرى كان فيها سلسلة متصلة من المدارس، هي ضفة نهر يزيد من غرب دمشق على سفح قاسيون إلى حارة الأكراد، لم يبق منها إلّا أنقاض مدرسة في أعلى شارع المالكي، وعدة مدارس في الصالحية، ومدرسة ركن الدين، ومجموعة من المدارس في طريق لا يزال اسمه (بين المدارس).

ويقولون إن ذلك العصر كان عصر الجهل والانحطاط!.

* * *

والجقمقيـة قد جدّدتها وزارة الأوقاف بإشراف إدارة الآثار، وأعادتها كما كانت وهي من أجمل المباني المملوكية.

أما الشيخ عيد فهو معلم الشام حقيقة لا مجازاً، ولقد كتبت عنه كثيراً وفي كتبي كلام طويل عنه، فقد لبث يعلم أكثر من ست وستين سنة، ولقد كان أبي تلميذاً لديه، ثم صار معلّماً عنده، وكنت أنا تلميذاً لديه ثم صرت معلّماً عنده، ولقد رأيت في سجلات مدرسته اسم التلميذ، ثم اسم ابنه، ثم اسم حفيده، ثم اسم ابن الحفيد، علم أربعة بطون. وابنه الأستاذ عبد الرحمن كان شيخ المعلمين الرسميين، بعد الأستاذ سعيد مراد، والشيخ محيي الدين الخاني، وسيأتي الكلام عنه.

في هذه المدرسة بدأ التأثير الباقي في نفسي للأساتذة الذين حضرت دروسهم. أما الشيخ عيد فكان له أبقى الأثر فيها، وما كان يعلمنا ولا يلقي علينا دروساً بل كان يلقي الكلمة، فيصيب حبّات القلوب منا، وأنا قد نسيت أكثر ما سمعت من دروس المدرسة ولكن أمثال هذه الكلمات التي تأتي في موضعها وتقترن بمناسبتها لا تزال في أذني، وفي قلبي.

كان شيخاً كبيراً، وكنا نتكوم حول مكتبه، يبري لنا أقلام القصب، ويهدي إلينا رسائل عليها خطّه، وكان يحسن الخط، ويحدثنا، فإذا أراد أن يؤدب واحداً منا أخذ برأسه، فحناه على صدره (صدر الشيخ) ثم أمسك بالعصا

بجمع يده، إبهامه إلى أعلى، ثم ضربه على ظهره ضربات لا تؤذي، وكان إذا شتم قال للمذنب: (يحرق بدنك)، ويضرب لنا الأمثال، فيقول كونوا مستقيمين، ولكن استقامة (الحورة) أي شجرة (الحور)[1] لا استقامة عمود الكهرباء، الحورة تميل قليلاً مع الريح، وتبقى على استقامتها، أما العمود (وكان يومئذ من الخشب) فإنه يعاند حتى ينكسر.

ولطالما حفظت أحاديث صحيحة، وأحكاماً فقهية، ووعيت نصائح وحكمًا، انتفعت منها في حياتي، كل ذلك من هذه الكلمات، فإذا دخل الغرفة المراقب، وكنا نسميه الناظر، وهو موظف لديه، وتابع له، قال ضاحكاً: لقد جاء فاهربوا.

* * *

ومن هو الناظر؟ هو الشيخ محمود العقاد، أحد تلاميذ أبي، وأقربهم منه صلة، وكان حسن الصوت، مجود القراءة، يتقن الأناشيد، فإذا انتهى الدرس، بعثتني جدتي إليه، لأقول له: يا شيخ محمود، اقرأ لنا، أو أسمعنا نشيداً.

وكان يفعل، وجئت المدرسة وهذا نظري إليه، وحكمي عليه وإذا هو في المدرسة رجل آخر غير الذي عرفته في الدار، لا ينشد ولكن يشد أرجلنا في الفلق، ويقرعها بالعصا.

كان مخيفاً، وكان التلاميذ إذا خرج عليهم وهم في الفرصة وهم يصرخون ويصيحون صمتوا فجأة، وكُمَّت أفواههم.

ولما صرفه الشيخ عيد، أو انصرف هو، جاء يودعنا، يرتقب منا أن نبكي حزناً للفراق، ففرحنا من الأعماق.

أقول هذا بلسان ذلك التلميذ، وأشهد وقد استمرت صلتي به إلى أن توفاه الله من سنوات، إنه كان يحب الخير للتلاميذ ويريد لهم الكمال، أما الشدة فقد كانت (موضة) المعلمين في تلك الأيام.

---

(١) يقول شوقي في شاميته:

والحـور في (دمر) أو حول هامتها   حُـور كواشف عن ساق وولدان

في هذه المدرسة اتضح لي طريق الجمع بين القراءة على المشايخ على الأسلوب الأزهري القديم، والدراسة في المدارس على الأسلوب الجديد.

ولقد كنت منذ وعيت أجد إذا أصبحت مشايخ بعمائم ولحى يقرؤون على أبي، وكنت أدخل بالماء أو بالشاي، فألتقط كلمة بعد كلمة، لا أفهم معناها، ولكن تبقى في نفسي ذكراها، ثم صار أبي يأمرني، أن أناوله الجزء الأول من حاشية ابن عابدين، أو الثاني من الفتاوى الهندية، أو جزءاً من القاموس، أو تنقيح الحامدية، فعرفت بعض أسماء الكتب.

ولكن لم يضح[1] لي الطريـق إلاّ في هذه المدرسة، إذ كان بين مدرسينا شيخ جليل، ولكنه شديد. كنا (مع الأسف) نحترمه ولا نحبه، وكنت أحضر دروسه في الأموي، يوم كان في الأموي أكثر من عشرين حلقة دائمة، وكانت حلقته متميزة تجمع العلم والأدب، والفقه والشعر، يتكلم بلهجة تونسية يلقي جملاً مسجَّعة كثيرة الترادف، مزينة بالشواهد، كأنه يقرؤها من كتاب مطبوع، هو الشيخ صالح التونسي[2].

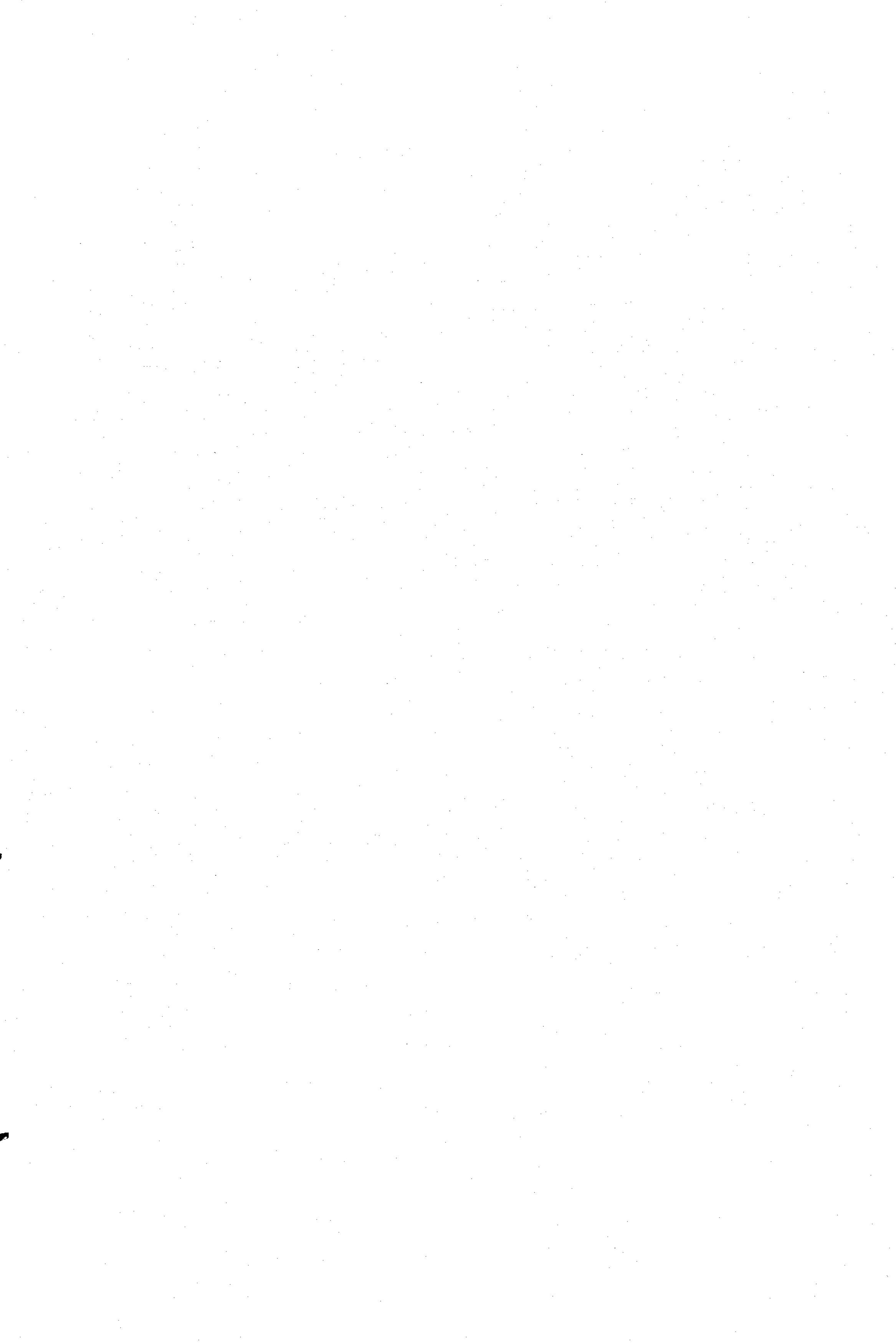
لهذا الشيخ، ولصديقه الشيخ الكافي (وسأتكلم عنه) أثر بالغ في نفسي؛ ذلك أنه كان صديق أبي، وكانت له غرفة في المدرسة البادرائية فألزمني أبي بأن أحضر عليه في غرفته (دروساً إضافية) فوق دروسه في المدرسة التي ضقت بها، وكنت أتمنى الخلاص منها، ولكن أمر الأب لا يرد.

ولقد أدركت بعده مبلغ ما استفدت منه، حين حفَّظني ألفية ابن مالك، و (الجوهر المكنون) في البلاغة، ومتوناً أخرى، نقشت في خاطري في الصغر، وانتفعت بها في الكبر.

---

(١) وضح يضح مثل وعد يعد.

(٢) والد الفريق الطيب والأستاذ عبد الرحمن مدير مدارس الثغر.



ـ ٩ ـ
عهد جديد في حياتي
وذكرياتي عن الجامع الأموي

عهد (المدرسة الجمقمقية): مدرسة معلم الشام الشيخ عيد السفرجلاني. عهد جديد في حياتي، دخلت قبله كتّاباً ومدرستين، ومررت بجماعة من المعلمين والمدرسين، وقد ترك ذلك في نفسي أثراً بلا شك، ولكني لم أدركه في حينه، ولا أذكره الآن إما لصغر سني، وإما لأني لم أصادف المدرس الذي أعطاه الله القدرة على فرض نفسه على تلاميذه، وأول عهد شعرت بأثره فيَّ هو هذا العهد.

وأستطيع حصر عوامل هذا العهد في تكوين تفكيري، وتحديد سلوكي، في أربعة:

١ ـ مدير المدرسة وصاحبها الشيخ عيد.
٢ ـ والجامع الأموي وحلقاته.
٣ ـ ومدرسنا الشيخ صالح التونسي.
٤ ـ ورجل عالم كان صديق أبي وأعمامي، كان قوي الشخصية، فقيهاً مالكياً عظيمًا، قوي التأثير فيمن حوله، على شذوذ فيه هو إلى شذوذ العباقرة أقرب منه إلى شذوذ أشباه المجانين.

* * *

أما الشيخ عيد فقد أوردت طرفاً من أخباره، وجانباً من وصفه في الحلقة الماضية، ولكن لا بأس بأن أحدثكم بشيء جديد عن هذا الرجل.

هذا الرجل كان معلمًا عظيماً، ولم يكن يلقي علينا دروساً محدّدة الأبواب،

واضحة المنهج، بل كان ينثر أقواله، ونصائحه نثراً يلقيها علينا ونحن متكومون عليه حول مكتبه، وهو يجول بيننا في ساحة مدرسته، بل كان لا يحجبها عنا وهو يؤدبنا، وربما مرت الكلمة فلم نلتفت إليها عندما كان ينطق بها، ولكنها كانت تغرس في نفوسنا، تنزل إلى أعماقها، حتى أنني لا أزال أذكر أكثرها إلى الآن، كلما دعت إليها مناسبات المقام.

وأمثال هذه الكلمات يلقيها معلم يجتمع له في قلب تلميذه الحب مع الاحترام، هي التي تبقى على كرِّ الأيام، وإن نسيت محاضرات الفصل التي يكون فيها الامتحان. أضرب لكم عليها مثالاً:

تجوز الصحراء، فلا ترى إلّا أرضاً جرداء، لا ظل ولا ماء، ولا نبتة خضراء، فإذا نزل المطر اهتزت وربت وكسيت ثوباً أخضر من العشب والزهر، وصارت مرعى للسوائم ومتعة للنظر، فمن أين ترونه قد جاء هذا النبات؟.

من بذور صغار قد لا تأخذها من دقتها الأبصار، قد ركب الله لبعضها ما يشبه الأجنحة القصار، تحملها الرياح فتلقيها بين حبات الرمال، فلا ترى إلّا تلالاً من الرمل تتلظى تحت وهج الشمس....

فإذا أنزل الله الأمطار، وجمع الله لها (الظروف) التي جعلها سبب الإنبات كان منها هذا النبات، وكان منه الزهر البارع، والثمر اليانع، أو كان منه الشوك الجارح والسم الناقع.

وكذلك كل ما تسمعه لا سيما إن سمعته في الصغر، إنه بذرة خير أو بذرة شر، إذا جاءها (الظرف المناسب) وضعتك على طريق الجنة، أو على سبيل النار.

فانتبهوا يا أيها القرَّاء لما تنظرون فيه من كتب ومجلات، وما تسمعونه من إذاعات ومحاضرات، وما تشاهدونه من مسلسلات ومسرحيات، ولا تظنوا أن أثر ذلك يذهب مع إكمال الكتاب، أو انتهاء المحاضرة أو إسدال الستار على المسرحية، بل إن بعضه يبقى ما بقيت الحياة.

فيا رحمة الله على الشيخ عيد السفرجلاني وعلى أمثاله من مشايخنا الأولين

الذين كانوا لنا آباء، وكانوا مربين، وكانوا مراقبين ناصحين.

الشيخ عيد هـذا أعلم أن تسعة وتسعين بالمائة من قراء هذا الفصل لم يسمعوا باسمه، ولا أحسبهم يهتمون بخبره، وكذلك يكون نصيب الجندي المجهول من ثناء الناس، ولكن ماله وللناس؟ وما الذي يرجوه من الناس؟ إنه عند الله معلوم لا مجهول، وإنه يرجو ونرجو له (من فضل الله ورحمته) الجنة ونرجوها لأمثاله من المجاهدين المخلصين، والعاملين الصامتين. الشهرة وخلود الذكر ليست ما ينفع الناس ويمكث في الأرض، بل هو رضا الله، وثوابه العظيم، فاطلبوا ما يبقى، لا تجعلوا أكبر همكم السعي لما يفنى.

أسأل الله أن يوقظ قلبي وقلوبكم من غفلتها، فأنا أحوج إلى هذه الدعوة لأني منغمس فيها أكثر منكم.

* * *

الجامع الأمـوي

وهل تظنون أن استطراداً في فصل من هذه المذكرات مساحته ثلاث صفحات يتسع للكلام عن الجامع الأموي؟

لقد كانت (المدرسة الجقمقية) ولا تزال أمام الباب الشمالي للجامع، فكنا ندخله كلما سنحت لنا فرصة بين الدروس، وفي أوقات الصلوات، وكان لنا مهوى القلب، ومستقر الحب، كما كان مع الأسف ميدان اللعب!.

لقد كنت في تلك الأيام التي أتكلم الآن عنها (سنة ١٩١٩) كلما سمعت خبراً عن الأموي اختزنه في ذاكرتي، وكنت لا أنسى شيئاً سمعته أو قرأته، أحفظه من مرة واحدة فلا يفلت مني، تقولون: إن الفتى من يقول هأنذا. فلا تفخر بما كان بل صف ما هو كائن الآن.

أصدقكم القول، إنني لا أزال (احفظ) ما أسمع أو أقرأ، ولكني أنسى نصه فأرويه بمعناه، وأنسى ممن سمعته أو أين قرأته وهذه نعمة أحمد الله عليها. أتريدون أن أكون في الشيخوخة كما كنت في الصبا؟ هيهات:

أترجو أن تكون وأنت شيخ كـما قد كنت أيـام الشبـاب

لقد كَذَبَتْك نفسُك ليس ثوب　　خَلِيق كـالجديـد من الثيـاب

وحسبي أنني الآن (بفضل الله) أقوى جسداً، وأوعى ذاكرة، من أكثر من أعرف من الشيوخ.

* * *

ثم صرت بعد ذلك أدون ما أجد من أخباره حتى اجتمع لي منها الكثير الكثير، فلما كلفتني وزارة الأوقاف أيام الوحدة مع مصر أن أؤلف عن الأموي كتاباً يكون دليلاً للسياح أخذت منها خلاصة وافية، وضعتها في كتاب عنوانه (الجامع الأموي) يبيعونه لزوار المسجد من السياح. و(يـأخذون هم. . .) ثمنه، ولم أبين فيه المراجع التي أخذت منها الأخبار، لأنني في كتابي (أبو بكر الصدِّيق) المطبوع من أكثر من خمسين سنة، وكتاب (عمر بن الخطاب)، ثم (أخبار عمر) الذي جمعته من (١٧٠) مرجعاً، قد وضعت في الذيل مصدر كل خبر (الكتاب والطبعة والجزء والصفحة)، فأخذ ذلك كُتَّاب كبار وصغار منهم العقاد في العبقريات ومحمد حسين هيكل، ونسبوا الخبر إلى مصدره وأهملوا ذكر كتابي الذي نقلوا منه اسم المصدر، ولي على ذلك أدلة وبراهين وقد قلته من قبل، سامحهم الله.

ولست أعرض هنا لما في كتابي (الجامع الأموي) لأني لا أكتب اليوم بقلم المؤرخ، بل أتكلم بلسان المحدث.

لقد كان الأموي يومئذ حافلاً بحلقات التدريس، لا يكاد يخلو من ثلاث أو أربع منها (على الأقل) إلّا ساعات محدودات. قبل الظهر وبعده، فيه دروس بعد الفجر، ودروس بعد العصر، ودروس بعد المغرب.

في مقدمتها حلقتا المحدثين الكبيرين الشيخ بدر الدين الحسني الذي كانوا يدعونه المحدث الأكبر، والشيخ السيد محمد بن جعفر الكتاني. أمـا الشيخ بدر الدين فإني من يوم عرفت الدنيا كنت أسمع باسمه، وأنه شيخ علماء الشام، ولقد وصفت مرات درسه تحت القبة وكان التدريس تحت القبة لكبير علماء الحديث في البلد، ووصفته فيما كتبته عنه يوم وفاته سنة ١٩٣٥ في مجلة (الرسالة)، وقد جعـل الأستاذ الـزركلي هـذه المقالـة من مصادر تـرجمته في

(الأعلام). وقد ارتجت الشام لوفاته رجّة شديدة، وهرع علماء سورية إلى دمشق، جاؤوا من مدنها كلها، وأتعجل القول (وأنا أتكلم عن أحداث سنة ١٩١٩) فأقول: إنهم قرّروا أن يشرفوني بأن أكون أنا الذي ينعاه للناس في الأموي، في جمع لم تشهد دمشق جمعاً في الأموي أكبر منه.

أما الشيخ الكتاني فقد كان آية في معرفة علوم الحديث، وكتابه العظيم الذي سماه (تواضعا) الرسالة المستطرفة دليل هذا العلم الذي لا أعرف في هذا العصر ولا غيره من ألف مثله. وأحسب أنه أملاه إملاء، وسلوا عن هذا صديق العمر أخي الشيخ ياسين عرفة الذي طبع الكتاب.

وكنا نحضر درسه فيقرأ معيد الحلقة، وهو السيد محمد الزمزمي (ابن الشيخ ووالد الصديق السيد المنتصر)، ثم يأخذ الشيخ بالكلام عن رواة الحديث، واحداً واحداً، يذكر من وثقه ومن تكلم فيه، ثم يتكلم عن المتن كأنه يقرأ من كتاب، وذلك في هيبة ملك، وتواضع عابد، واطلاع عالم منقطع النظير، بلهجة مغربية حلوة. وكلا الشيخين: الشيخ بدر الدين، والشيخ محمد بن جعفر مغربي، ولكن الشيخ بدر الدين مولود في دمشق.

وقد ورد علينا مرة مغربي اسمه الشيخ البلغيثي، درّس مدة في الأموي، وكان أعجوبة في المسائل المعقولات، وفي حل المشكلات. وممن كان يدرس في الأموي الشيخ الكافي، وشيخنا الشيخ بهجة البيطار يدرس في رمضان خاصة لأن دروسه اليومية كانت في جامع الدقاق في الميدان. وفي هذا المسجد (بسيط) آخر مثل البسيط الموضوع في منارة الجامع الأموي، وكلاهما من صنع جدنا الشيخ محمد الطنطاوي.

ومن مدرسي الأموي الشيخ هاشم الخطيب، والشيخ عبد القادر الاسكندراني، وهو عالم مصري سكن دمشق كان يتكلم بلهجة مصرية، والشيخ أحمد النويلاتي، والشيخ عبدالله العلمي المفسر، والد الدكتور عبدالحليم، وعبد الباسط وهما من رفاقنا في (مكتب عنبر) ، والدكتور عبد الستار وهو أصغر منهما، وله ولد طبيب يعمل هنا اسمه الدكتور فواز لم ألقه. والشيخ خالد النقشبندي وهو حفيد مولانا خالد (هذا هو لقبه الذي يعرف به على

طريقة الهنود)، والأتراك يقولون للعالم المولى فلان (راجع الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية). والأكراد يقولون (الملا فلان) وأصلها المولى. ورأيت في جاوة لما زرتها عالماً اسمه الكياي دحلان، والكيا لقب للعالم وليس اسماً، ومنه عرفت معنى اسم الفقيه الشافعي الكيا الهراسي.

قلت: إن الشيخ خالد النقشبندي هو حفيد (أو ابن) مولانا خالد الذي جلب الطريقة النقشبندية إلى دمشق. ولكنه مع ذلك سلفي - وهذا من العجائب - ومثله أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني، أموي النسب شيعي المذهب، وولدي الأستاذ سعيد المولوي أهله من أركان الطريقة المولوية، وهو سلفي.

وكانوا في الشام يومئذ يدعون السلفيين بالوهابيين، وكانت الوهابية تهمة مخيفة (اقرأ الجزء الأول من كتابي عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب) ولقد عوقبت مرة في المدرسة لأنهم أمسكوني بالجرم المشهود، في حلقة الشيخ عبد القادر بدران صاحب (المدخل).

ومن مدرسي الأموي الشيخ يعقوب المدني، وهو من الذين هاجروا من المدينة، لما تركها شطر من أهلها هرباً إلى الشام في أواخر العهد العثماني. ومنهم الشيخ العيطة، وهو كفيف طلق اللسان عالي الصوت، صوفي خرافي، ومن الصوفية ما يمشي مع الشريعة، ولا يخالف الكتاب والسنة ككتاب (مدارج السالكين).

وممن جاءنا من المدينة الشيخ الغاطس، أحد مؤذني المسجد النبوي، وقد تلقى عنه بعض مؤذني الأموي نغمة الأذان المدني.

ومن عادات هؤلاء المؤذنين أنهم يأتون بعد صلاة العشاء بابتهالات وأناشيد نبوية، موجود مثلها في مصر وغيرها، (وهي بدعة)، لكن الذي في دمشق ينفرد بشيء لا يوجد مثله، فيما أعلم في غيرها، هي أن لحن هذه الأناشيد مربوط بالأيام، فلكل يوم مقام (نغم) من المقامات السبعة الأصلية، فمن لم يعرف ما هو اليوم، وكان له بصر بالأنغام عرفه من نغمة (أي من مقام) النشيد، وأحسب أن هذا الترتيب من وضع الشيخ عبد الغني النابلسي.

ومن مدرسي الجامع الأموي الفقيه الشافعي الكبير الشيخ الجوبري، والشيخ العذري، وهو رجل عجيب، إذا أسمعته بيتاً في الغزل هاج وماج، وكان في درسه صراحة عجيبة، كان يشتم الفرنسيين ومن يعاونهم أقبح الشتائم فمنعوه من التدريس.

وكان كل من ورد دمشق من العلماء يقرأ درساً في الأموي يبين فيه عن علمه، ويكشف عن مشربه، ولقد حضرت دروساً منها لأكابر علماء مصر والشمال الأفريقي وغيرهما.

حادثة طريفة

ولما جاءنا الشريف فيصل كثر الواردون من الحجاز من علماء وغير علماء، وهذه حادثة طريفة إذا لم تجدوا في روايتها نفعاً، فإنكم واجدون في ذلك متعة. هي أن الشريف فيصل نزل في دار عثمان باشا، وهي الدار التي اشترتها فيما بعد السفارة الفرنسية، وسكنتها، وهي في محلة (العفيف) أول حي المهاجرين، ونزلت حاشيته الدور المجاورة لها. وكان لعمي الشيخ عبد القادر دار كبيرة جداً لها براني وجواني (اقرأ وصفها في كتابي: من حديث النفس) فاستأجروا برانيها.

وكنت أمشي يوماً في الحرم في مكة أول سكني بها (وذلك سنة ١٣٨٤) ولم يكن قد تم بناؤه، فسمعت صوتاً يناديني فالتفتُّ فإذا أنا بشيخ له سمت وهيئة، مع جماعة يتبعونه، فوقفت له حتى وصل. قال: أنت الشيخ علي؟ قلت: نعم.

فهش لي، ورحب بي، وسلم عليّ، وانطلق يسائلني. فقال: ابن الشيخ مصطفى؟ قلت: نعم.

قال: كيف حاله؟ فدهشت، وقلت: رحمه الله. قال: متى؟ قلت في شعبان سنة **١٣٤٣** أي من أربعين سنة.

قال: رحمه الله، رحمه الله. وعمك الشيخ عبد القادر؟ قلت: توفي من عشرين سنة. قال: وأخوه؟ وفلان وفلان؟.

يسأل عن ناس مرت على موت أقربهم وفاة عشرون سنة.

قلت: يا سيدي. من أنت؟ هل أنت من بقايا أهل الكهف!! فإذا به الشيخ حسن فدعق رحمه الله، وكان (كما تذكرت بعد) إماماً للشريف فيصل، استأجر براني بيت عمي، وعرفنا ونحن صغار. رحمهم الله جميعاً.

- ١٠ -
من جوار الأموي إلى سفح جبل قاسيون

الطريق طويل، وأنا أمشي كـالسلحفاة. لقـد رضيتم مني أن أكون كالسائح يقف ليرى فيصف، ثم يعاود المسير، فرأيتني إلى الآن أقف ولا أسير فدعوني أسرع، وأدع التفصيل في الكلام على عهد، أكثر القرّاء لم يدركوه وعلى رجال لم يسمعوا بهم ولا يعرفونهم.

وسأكتب إن شاء الله عن (الشيخ الكافي) وغيره في فصول آتيات أو في طبعة مقبلة من كتابي (رجال من التاريخ). أما الشيخ صالح التونسي، الذي كان يدرسنا في (المدرسة الجقمقية) فلا بدّ لي من وقفة قصيرة معه.

لقد عرفته من حلقته في (الأموي) قبل أن أقعد تلميذاً بين يديه في المدرسة.

كانت حلقات الدروس في الأموي كثيرة، في علوم مختلفة، منها ما هو لطلبة العلم، ومنها ما هو (مواعظ) للعامة، ولكن درس الشيخ صالح كان يمتاز منها جميعاً، بأنه كان موعظة، وكان أدباً، وكان تاريخاً، وما أكثر ما حفظت فيه من أحاديث صحيحة، ومقطوعات من الشعر بارعة، وأخبار من التاريخ نادرة، وكان يلقي ذلك بلهجة تونسية، فصيحة المبنى، جامعة المعنى، كثيرة الأسجاع، تأتي معه عفواً بلا تكلف. لا يكتفي بأن يتكلم ونحن نسمع بل كان يسأل ويطلب الجواب، فيكون لنا من درسه (فوق ما نتلقى من العلم والأدب) تدريب على الخطابة، وتمرين على الكلام. وهذا فن عني به العرب قديماً، حين كان من خطبائهم من يدرب على ذلك الشباب وعني به الأميركان

حديثاً، إذ يفتحون مدارس يتعلم فيها تلاميذهم (وجلّهم من الكبار) فن مخاطبة الجماهير.

ثم كنت تلميذه في المدرسة، وكنت أتلقى عنه فوق ذلك درساً خاصاً، أمرني أبي به، وطلبه لي منه، وكان صديقه.

وأشهد لقد استفدت منه، ومن المتون الكثيرة التي ألزمني حفظها: ألفية ابن مالك[1] في النحو، والجوهر المكنون في البلاغة، ومتن الجوهرة والزّبد، وإن كنت قد نسيتها الآن إلّا قليلاً منها!.

وإذا وعدتم وعد الصدق ألا تخبروا ولده الأستاذ عبد الرحمن مدير مدارس الثغر، ولا أحداً من إخوته الكرام، لقلت لكم: إني كنت وكان رفاقي كلهم يحترمونه غاية الاحترام، ولكنهم لا يحبونه، فقد كان معلّماً كاملاً، ولكنه كان شديداً، وكان قوي الجسد، مشدود العصب، جاداً كل الجد، فكنا نخشى قوة بدنه أن يبطش بنا، وقوة لسانه أن يلبسنا من جمله التي كان يصوغها صياغة الفولاذ، فتعلق بنا واحدة منها، وتتناولها ثم تتداولها ألسنة الرفاق، فتكون لنا وصمة العمر.

وكان من أساتذتنا في المدرسة، عالم يماني اسمه الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي، لا أعرف ما صنع الله به، بعد أن فارقنا.

وأستاذ أظن أن اسمه سعيد الطيب، كان يدرسنا النحو الفرنسي بالعربية باصطلاحات النحو العربي.

أما الذي كنا نخافه جداً، ويخافه التلاميذ جميعاً، فكان ناظر المدرسة الشيخ محمود العقاد تلميذ أبي، وكان أخي ناجي يذهب معي، وهو صغير، فإذا ضربوني في الدار بسبب منه أنتقم منه، فأضربه حين أنفرد به، فيشكوني إلى الناظر، فيعاقبني عقوبة هينة في ظاهرها، ولكن ضرب العصا كان أهون عليّ منها.

---

(١) كان قبر ابن مالك في مقبرة الصالحية في جبل قاسيون، فلما مات الشيخ أمين التكريتي، ضاقت عليهم الأرض!! فدفنوه في قبره، فلم يعد له قبر يعرف.

كان يأتي بي وبرفيق لي هو عبد المجيد مراد، أخو شفيق وعبد الحميد وابن الشيخ أبي النصر مراد، الذي جرّ إلينا الكهرباء من داره وكانت له بسببها القصة التي رويتها لكم في غير هذه الذكريات.

كان يقعد على مقعد في قاعة المدرسة، ويوقفنا أمامه، وينصحنا فيتكلم، ويقول: ضعوا عيونكم على عيني. ويطول الكلام، وأحسّ كأني مشدود بحبل إلى عينيه، والحبل يدور بي في الهواء، فلا أعود أفهم شيئاً.

وكان من رفاقنا الأستاذ محمد علي بدير كبير رجال الاقتصاد في الأردن اليوم وابن عمه خالد رحمه الله، والأستاذ هدى الطباع، وعبد الوهاب محفوظ، وعبد السلام الخطيب، وواصف الخطيب، وعبده العظمة، وفؤاد الجلاد.

ومرّ العام، وودعنا الشيخ محمود، وذهب، ثم ودعنا الشيخ صالح وسافر إلى المدينة، فصار مدرساً في الحرم النبوي، وأقام بها إلى أن توفاه الله.

رحمه الله ورحم أساتذتنا جميعاً.

* * *

كنا في (العقيبة) وهي حيّ فقير من أحياء دمشق، ذكر في ترجمة الإمام الأوزاعي أنه كان (قرية ظاهر دمشق)، مع أن بينه وبين السور ثلاثمئة متر فقط، وبين السور وبين (الأموي) مثل ذلك، قدرته تقديراً، ولم أقسه قياساً، فسامحونا إن نسينا أو أخطأنا.

وكنت أذهب إلى المدرسة فأدخل من باب الفراديس، وهو أحد أبواب دمشق السبعة، التي بقي منها ستة كما بقي السور سالماً، ثم أدخل السور الداخلي، وبينهما حارة تسمى اليوم (بين السورين).

وأذكر بالمناسبة شيئاً نسيت أن أتكلم عنه في مكانه، هو أن جمال باشا، لما فتح أول شارع في دمشق سنة ١٩١٦ سمي باسمه، فلما انتهت الحرب وخرج الأتراك سمّوه شارع النصر، يقصدون النصر على الترك.

وكنت مرة عند شيخ مشايخنا، الشيخ عبد المحسن الأسطواني، وكيل اللجنة التي أشرفت على بناء الأموي بعد أن احترق سنة ١٣١١هـ، ونائب دمشق

في مجلس النواب العثماني، ورئيس محكمة التمييز في سورية.. وقد عاش (١١٨) سنة، وتوفي كامل العقل قوي الذاكرة.

كنت عنده فسألته: أين الباب السابع من أبواب دمشق؟ أولـم يكن بين باب الجابية وباب الفرج باب؟.

قال: بلى، كان هناك باب النصر.

فكانت تسمية الشارع بشارع النصر، رمية من غير رام.

وانتقلت دارنا إلى الصالحية، فأخرجني أبي من المدرسة الجقمقية وفارقت جو الأموي الذي تحيا به الأرواح، وتنعش النفوس يوم كان الأموي قلب دمشق: الدار القريبة هي التي تقرب منه، والبعيدة هي التي تبتعد عنه.

وكان مثابة الناس، يجلسون فيه في (الحرم) في الشتاء، وفي الصيف يقعدون في الصحن، حيث النسيم الرخي لا ينقطع، والماء يتدفق من (فوهة) البركة، والرواق الفخم من حولهم، والمآذن الثلاث تطل عليهم، ويطل معها أربعون قرناً من الزمان من يوم كان معبداً وثنياً، إلى أن أصبح كنيسة نصرانية إلى أن شرفه الله بالإسلام، وضوّأ جوانبه بنور الإيمان، فكان بذلك (أي في جاهليته وفي إسلامه) أقدم المعابد القائمة في الدنيا، كما أن دمشق أقدم المدن العامرة المسكونة على الأرض.

كذلك كان الأموي، فهل تدرون اليوم ما حاله؟ كانت دمشق تحوطه بذراعيها، وتعطف عليه جوانحها، تعيش بقربه، وتحيا بحبه، لا تستطيع الابتعاد عنه، صباحها فيه ومساؤها، ونهارها بجواره وليلها.. فتركته وسارت مشرقة، وسارت مغربة، وبقي وحده حيث كان....

* * *

وسرنا نحن مع من سار، وإن لم ننكر عهده، ولم ننس ودّه، انتقلنا من منزلنا الصغير في آخر العقيبة إلى دار كبيرة فسيحة الأرجاء، كثيرة الغرف والأبهاء، قريب منها الشجر والماء، الشجر في بساتين الصالحية التي انتقلنا إليها، والماء من نهر (يزيد) أكبر أولاد بردى الستة في سفح قاسيون، بحيث نرتفع عن

المدينة وننزل عن جادات حي المهاجرين، نرى من غرف الدار العليا، الشام والأموي في وسطها.

والشام في اللغة من جنوبي تبوك إلى جبال طورس وفي العرف البلدة القديمة. فيقول أهل الصالحية: ذهبنا إلى الشام، وعدنا من الشام، كما يقول المصريون (مصر) لا يعنون بها الإسكندرية ولا أسيوط، بل ولا يقصدون شبرا ولا حلوان.

وأعادني والدي إلى المدارس الرسمية، وكان في دمشق (أول عهد الانتداب) أربع مدارس رسمية ابتدائية، وكانوا يسمونها بـ (الأنموذج)، وهي: (أنموذج البحصة) التي كانت مدرستنا السلطانية الثانية، و(أنموذج الملك الظاهر) وهي أقدمها وكانت في المدرسة التي أنشأها الملك الظاهر بيبرس، وهو ثالث (الفرسان الثلاثة) الذين أنقذ الله بهم سورية من الصليبيين: نور الدين، وصلاح الدين، والظاهر.

وفيها اليوم المكتبة الظاهرية التي يعود الفضل فيها، بعد الله، للشيخ طاهر الجزائري، مربي الجيل الذي سبقنا، جمع الكتب التي كانت موزعة على المدارس والمساجد، تعبث بها أيدي العابثين وكانت منها نواة هذه المكتبة التي تعدّ اليوم من أغنى المكتبات في ديار الإسلام.

و(أنموذج الميدان)، و(أنموذج المهاجرين)، التي دخلتها سنة ١٩٢١ وأعدت إلى الصف الخامس، ثالث مرة.

ذلك أني ارتقيت إلى الصف الخامس على عهد الأتراك، ثم ارتقيت إليه مرة ثانية على عهد الحكم العربي، وهأنذا أعود إليه على عهد الانتداب الفرنسي....

... فكأننا ما رحنا ولا جينا.

لقد ضاعت ثلاث سنوات، من عمري هدراً، ضاعت بالمقياس الرسمي، ولكنها ما ضاعت والحمد لله، بمقياس الدين، ومقياس العلم، بل لقد كانت سنوات خير وبركة، تركت في قلبي ذخيرة من الإيمان أسأل الله أن يديمها لي، وأن يزيدها، وأن ينفعني بها في آخرتي.

وتلقيت فيها من العلم ما لا أجد مثله في مناهج المدارس الرسمية، وقرأت من الكتب ما لا يقرأ مثله تلميذ في مثل سني يومئذ، وسأتحدث عن مطالعاتي وقراءاتي فيما يأتي من الفصول، وإن كنت قد قرأت معها القصص التي كانت تسلية تلك الأيام: قصة عنتر، وقصة بني هلال، والملك سيف، والأميرة ذات الهمّة، ورأيت فيها من أخبار الفروسية وأنباء البطولة، ومن الأكاذيب والانحرافات ما لا مزيد عليه.

كنت في السلطانية الثانية، والشام من حولي في عرس، والناس في فرحة الأمل بعد اليأس، والوجدان بعد الحرمان، نهتف للاستقلال، ونملأ الجو بأناشيد الحماسة والفخر، نمشي نحن تلاميذ المدارس نهتف بالنشيد فتردّده معنا أفواه الباعة في الدكاكين، والمارّة في الطرق.

ثم كنت في الجقمقية في حي الأموي، وفي جوه الروحي، نجلس في حلقاته، ونستمع إلى علمائه، ونقوم في صفوف المصلين، نركع مع الراكعين، ونذكر مع الذاكرين.

فجئت الآن إلى هذه المدرسة في لحف الجبل، أمام جامع الشمسية وقد مات الاستقلال ودفن في ميسلون، وخنقت الأناشيد في الأفواه، وأصاب الناس اكتئاب فكأنهم في مصاب.

الشام التي هي وشطر لبنان ومملكة الأردن الآن كانت كلها ولاية من ولايات بني عثمان، ثم صارت سورية ولبنان جزءاً من المملكة العربية التي أرادها الحسين بن علي، لما قام بثورته، أو بنهضته، فلست أدقّق الآن في الأسماء.

الشام صارت لما دخلها غورو أربع دول، دولة دمشق، ودولة حلب، ودولة العلويين، ودولة الدروز.

إنهار البناء الضخم الذي أقمناه من أمانينا وآمالنا، وهوت الدولة العربية التي نفخنا فيها من أرواحنا، وسقينا شجرتها من دمائنا، وهبطنا من ذروة الأمل الكبير، إلى حضيض الواقع المرير.

لم يبق شيء من الدنيا بأيدينا ... إلّا بقيــة دمـع في مــآقينــا

- ١١ -

فصل جديد في تاريخ الشام

بدأ الآن فصل جديد في تاريخ الشام. فصل مداده دموع ودماء، وصفحاته بطولة وفداء، فصل أوله هزيمة واستعمار، وآخره استقلال وانتصار.

وكان فصلاً غريباً عن تاريخ الشام، ما عرفت مثله مذ شرفها الله بالإسلام.

لذلك أصابت الناس صدمة فلم يصدقوا أن حكامهم صاروا غرباء عن دينهم ودولتهم. حكام أجانب لا لسانه لساننا، ولا عاداتهم عاداتنا، ولا نحن منهم ولا هم منا.

لم يصدقوا أن الاستعمار[١] قد وصل إلى دمشق، التي لم تعرف من قبل استعماراً أوروبياً حتى في أيام الحروب الصليبية. لقد مدّ الله للصليبيين فكانت لباطلهم جولة، ثم كانت العاقبة للحق أظهره الله على يد البطل المسلم (التركي) نور الدين، والبطل المسلم (الكردي) صلاح الدين، وسيأتي الله ببطل مسلم يزيل باطل اليهود عن فلسطين، ويظهر عليهم المسلمين، إن رجعنا إلى الله وعدنا إلى التمسك بالدين. أقول: لقد حكم الصليبيون السواحل، وبعض مدن الداخل، ولكن الله حمى دمشق منهم، فلم تطأ ثراها جنودهم، ولا حكمها أمراؤهم.

---

(١) التبشير والاستعمار من أسماء الأضداد، وما هما إلا التكفير والخراب (وكتاب التبشير والاستعمار) الذي لا أعرف مؤلِّفيه ولم ألقهما، كتاب أتمنى أن يقرأه كل مسلم.

وما يسميه السفهاء منا (الاستعمار العثماني) لم يكن استعماراً لأن حكم المسلم (ولو كان تركياً) لبلد مسلم (ولو كان عربياً)، لا يسمى في شرعنا حكمًا أجنبياً، والمسلم لا يكون أبداً أجنبياً في ديار الإسلام. ونحن ما كرهنا الاتحاديين لأنهم أتراك بل لأنهم حادوا عن جادة الإسلام، فأساؤوا للمسلمين جميعاً، من عرب وأتراك.

لقد كانت الشام أيام الشريف كأنها في عرس، هذا ما كنا نراه نحن الصغار، لأننا لا نعلم من الأمور إلّا ظواهرها، وفي ليلة العرس تزدان الدار، وتزداد فيها الأنوار، وتعلّق المصابيح على كل جدار، وإذا نحن بتيار الكهرباء ينقطع فجأة فيعم الظلام.

كنا كالحالم يرى أن قد أتيحت له اللذاذات، وجمعت له أنواع المشتهيات، يأخذ منها ما يبتغي ويشاء، فصحا فجأة فلم يجد في يده إلّا الهواء.

لقد انتهت في الشام أيام الأعياد، وبدأت ليالي الحداد.

إن الرقيق المولود في قيد العبودية، والناشىء فيها، لا يأسى على فقدان الحرية، لأنه ما عرفها ولا ذاق طعمها، إن الذي يأسى عليها إن فقدها هو الحر الكريم، الذي عاش عليها، ولم يألف غيرها. لذلك أبت على الشاميين عزة نفوسهم أن يصدقوا ما يرون، وخيلت لهم أنهم في منام سرعان ما ينتهي الليل ويطلع النهار فيبدّد ضوؤه ظلام هذه الأحلام.

لم يصدقوا أن كافراً جاء يحكم المسلمين، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً إلّا إن خالفوا عن أمر ربهم، وتنكبوا صراط شريعتهم، فيكون ذلك تنبيهاً لهم، فإذا عادوا إلى الطاعة والامتثال، عادت إليهم الحرية والاستقلال.

لقد استيقظت في نفوسهم عزّة الإيمان، ومواريث الجهاد، فأبوا أن يستكينوا وأن يذلوا، ونثرت فيها من أول يوم بزور[1] المقاومة والصدام،

(١) البزور من العامي الفصيح كالبذور.

فكانت منها الثورة السورية، أروع الثورات بعد الحرب الأولى، وسيأتي إن شاء الله حديثها.

وما أصاب البلاد عامة أصابني أنا مثله:

وهل أنا إلّا من غزيَّة إن غَوَت غَويت وإن تَرْشُد غزيَّة أرشد

وإن كان الشاعر قد جانبه الصواب فما يكون عذراً لك إن ضللت أن تحتج بضلال الناس.

* * *

لقد انتقلت من مدرسة إسلامية، تقوم على باب الجامع الأموي، مديرها المرشد الصالح الشيخ عيد السفرجلاني إلى مدرسة حكومية في لحف الجبل مديرها رجل نصراني اسمه (ميخائيل).

أما دارنا فقد ارتفعت من حارة الديمجية إلى جادة عريضة في الصالحية من بيت صغير، ظهره للشمس في بلد شتاؤها ستة أشهر. (وكذلك كانت أكثر المنازل الشامية) إلى دار واسعة تحييها الشمس ساعة بزوغها من وراء الأفق الشرقي البعيد، وتودعها قبل أن تنزل من خلف الجبل فلا نحضر وداعها كما حضرنا استقبالها. وهذا من النعم لأن الاستقبال لذة والوداع ألم.

وهذه هي الدنيا: علو وانخفاض، وقوة وضعف، نهار مضيء بعده ليل مظلم، وشتاء باك بالمطر، بعده ربيع ضاحك بالزهر، لا يدوم على حال إلّا الكبير المتعال، ثم تذهب الدنيا ويذهب هذا كله معها، ولا يبقى للإنسان إلّا إحسان قدمه يرجو ثوابه أو عصيان يخشى عقابه، إلّا إذا مات على الإيمان وأدركته نفحة من عفو الرحمان، والله ﴿لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

اللّهمّ اجعلنا ممن تشاء له المغفرة يا رب.

* * *

المدرسة التي انتقلت إليها هي (أنموذج المهاجرين) كما كانت تسمى أو مدرسة طارق بن زياد، كما تسمى الآن. ما تبدل شيء فيها إلّا أنهم زادوا في

غرفها، ووسعوا مساحتها وأنها (وهي في الجادة الثالثة) لم يكن فوقها إلّا جادتان، فبلغت الجادات اليوم أكثر من عشر، بل لقد صعد الناس في الجبل وفتحت الشوارع العراض، حتى بلغت الصخر، ثم التفت من حوله حتى وصلت إلى الذروة، وكان فيها (قبة النصر) وكانت علم دمشق، فهدمت أيام الحرب الثانية. وفي مكانها اليوم محطة الرائي (التلفزيون).

وكانت الضباع في تلك الأيام تنزل في الشتاء حتى تجول بين البيوت فيخاف منها الناس، فلما صعد الناس خافت فهربت منهم الضباع. وهذه الجادات تعلو متوازية في الجبل، الأولى جادة ناظم باشا، التي يمشي (أو كان يمشي) فيها الترام، وناظم باشا أحد الولاة العثمانيين المصلحين هو الذي أنشأ حي المهاجرين لما صار والي دمشق سنة ١٣١٣ هـ، وفي كتابي (دمشق) فصل بيّنت فيه تاريخ إنشائه، وهو الذي جر مياه عين الفيجة[1] إلى دمشق وجعلها سبلاً في الطرق والحارات، وله مآثر كثيرة، وفي كتابي (قصص من الحياة) قصة عنه عنوانها (النهاية).

وإن أنت قدمت دمشق في الليل، ونظرت من بعيد إلى هذه الجادات، من (الكسوة) إن كنت قادماً في البر أو من شرقي الغوطة إن كنت آتياً في الطيارة من الجو. . . .

رأيت أضواء هذه الجادات، سلاسل من العقود، تلمع في جيد قاسيون. منظر ما رأيت مثله على كثرة ما سرت في البلاد ورأيت من المدن، ومهما أبصرت من جبال فما أظن أني رأيت أبهى ولا أجمل من قاسيون إلّا جبل (أحد) لما رأيته أول مرة هفا إليه قلبي، وذكرت بلدي، على أن (أحداً) أفضل وأشرف، فضّله قول رسول الله ﷺ: «أحد جبل يحبنا ونحبه»؛ وشرفته صلته بالرسول وبتاريخه، أمجد تاريخ بشري وأطهره وأسماه.

* * *

---

(١) نبع غزير الماء في قرية تبعد عن دمشق عشرين كيلاً، ثلثا ماء نهر بردى منها، وهي معقمة (بلا تعقيم) خالية من الجراثيم.

وكان من معلمي هذه المدرسة عالم فاضل من تلاميذ الشيخ جمال الدين القاسمي كان أكبرهم سناً، وإن كان شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار، هو أكثرهم علمًا وأجلّهم قدراً، هذا المدرس العالم هو الشيخ حامد التقي.

وكان منهم معلم آتاه الله بسطة في الجسم، وهيبة في العين، وكان من الضباط في الجيش العثماني، اسمه عبد الحميد عبد ربه، وأسرة (عبد ربه) معروفة في حي الصالحية، وكان رساماً وخطاطاً، ولقد نسيت أن أقول إنّ (حسن الخط) كان من المواد المقرّرة في مناهج المدارس، وأول من علمنا الخط (في العهد العثماني) اثنان من شيوخ الخطاطين في الشام: الشيخ حسين البغجاتي، وسيأتي ذكره عند الكلام على رحلاتنا الكشفية في الجبال الشامية، وموسى الشلبي وهو خطاط مجدّد (مودرن) ومن أقدم من اشتغل بالتصوير الشمسي (الفوتوغرافي)[1]، ثم الشيخ عيد السفرجلاني رحمهم الله جميعاً.

الرسم عن الطبيعة

والذي استفدناه من عبد الحميد بك (هكذا كان يدعى) هو الرسم عن الطبيعة، وأنا أقدر للآن أن أصور من أراه أمامي بالقلم ثم تركت ذلك لأنه لا يجوز.

والطريقة فيه أن تمد يدك بالقلم، وتغمض إحدى عينيك، وترسم أبعد ما بين طرفي الرأس (مثلًا) من أعلاه وأسفله، وخطاً آخر لعرض الرأس. والتصوير الجانبي أسهل فتأخذ بعد ما بين أرنبة الأنف والأذن، ثم تحدّد مكان الأنف والفم والعين.. ثم تدع القياس وترسم بالخطوط القليلة سمات الوجه المميزة إن كان فيه سمة مميزة وأساريره وتجاعيده وتبرز الملامح العامة، وتدع التفاصيل لأن المطلوب في هذا النوع من الرسم أن يعرف الناظر إلى الصورة أنها صورة فلان.

مالي تركت ذكرياتي وصرت مدرس رسم؟! أستغفر الله فما أردت ذلك. ولا أفتي بجوازه، ولكن أردت أن أقول إنّ دراستنا كانت أشمل وأكمل مما يدرس التلاميذ اليوم.

---

(١) من اليوناني (فوتوس) ضوء، و (كرافي) تخطيط في رسم.

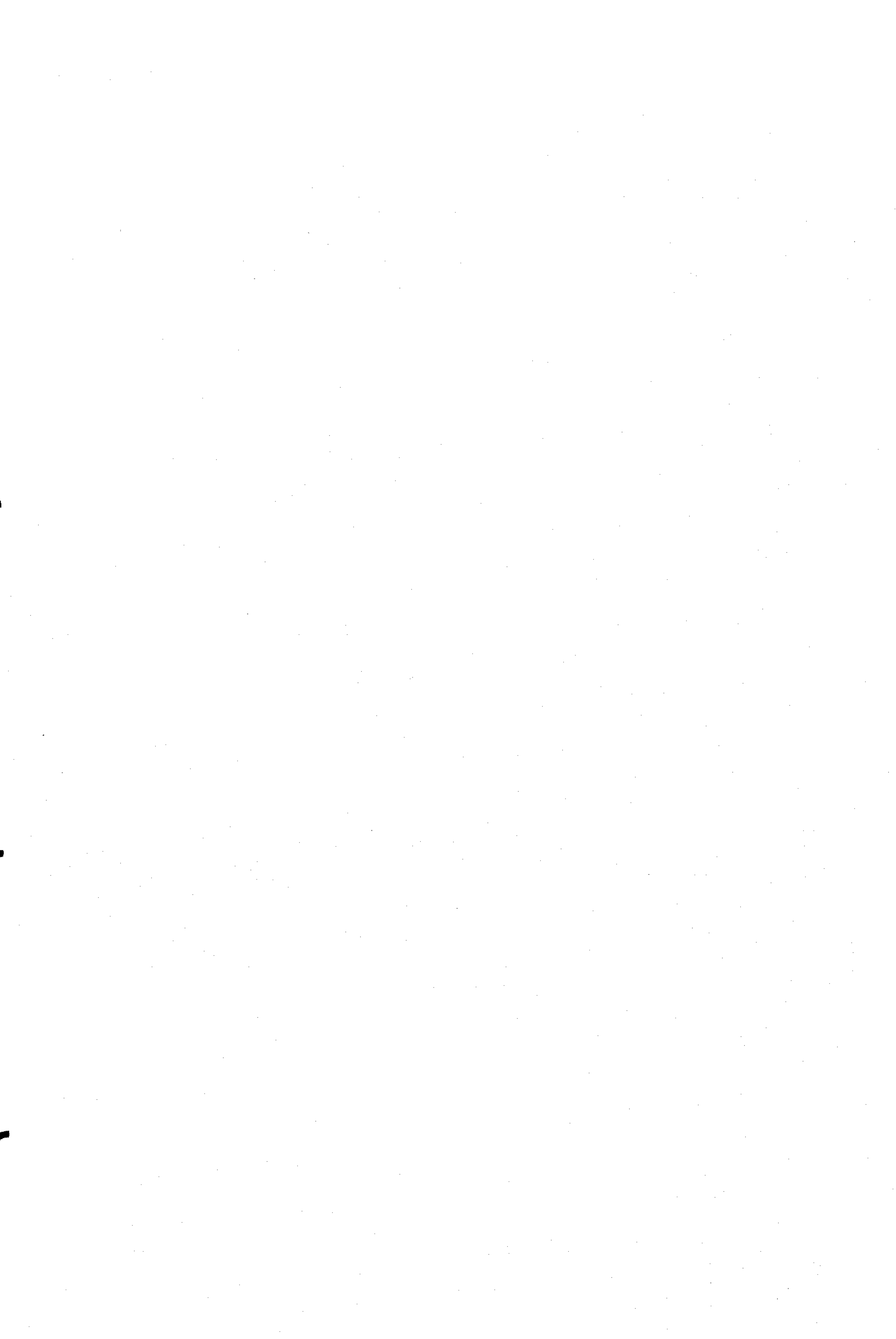
وممن كان عندنا في هذه المدرسة معلم للخط هو أعظم خطاط ظهر في هذا القرن، أقرّر هذا وأنا أعرف أكابر الخطاطين: سيد إبراهيم، وحسني البابا، ونجيب هواويني، وغيرهم من مصر، ومكارم والبابا في لبنان، وأعرف بعض كبار خطاطي العراق وأشهد أني ما رأيت مثل (ممدوح)، ولقد كان (ممدوح الشريف) أستاذاً عبقرياً في الخط، والذي تركه من آثاره شاهد عدل على ما أقول، ومن تلاميذه (بدوي) الخطاط العظيم وليس مثله ولا يدانيه، ومنهم (حلمي) حلمي حباب وهو أخي من الرضاع.

كان ممدوح يبري أقلام القصب لأربعين أو خمسين تلميذاً ويكتب لنا (المشق) لنخط مثله، (وكان مقرراً علينا تعلم خط الرقعة، والثلث، والفارسي، والديواني) ويصحّح ما كتبنا كل ذلك في (الحصة) وهي أقل من ساعة.

كانت حياتنا حياة جد وعمل، ما كان فيها شيء مما يلهو به التلاميذ في هذه الأيام، ما كانت هذه المجلات المصورة التي لا يحصيها عد، ولا كانت في الدنيا كلها إذاعة ولا رائي (تلفزيون)، وما كان يظن أحد أنه سيكون، وكانت في دمشق (كما قلت) سينما واحدة للدعاية الحربية، هي التي كانت في موضع المجلس النيابي، ثم أنشئت داران للسينما حقيرتان، (الزهرة) أمام بناية العابد، ثم (النصر) في سوق الخيل، لايدخلها إلّا سفلة الناس، وكانتا صامتتين لأن السينما الناطقة لم تكن قد عرفت. فكان من أراد لهواً قرأ هذه القصص الشعبية التي أشرت إليها عند الكلام عن المدرسة الجقمقية، وكان أسوأ كتاب يضرب بسوئه المثل، ولا يكاد يوصل إليه، هو كتاب (رجوع الشيخ إلى صباه) وهو إن قيس ببعض القصص المترجمة التي تباع في كل مكان وبما فيها من وصف الفسوق والعصيان، إن قيس بها كان بالنسبة إليها (كتاب أخلاق).

ولو حدثتكم عن الكتب التي قرأتها وأنا في تلك السن، وأنا تلميذ في السنة السادسة الابتدائية لما صدقتم، وكنت أمضي يومي (إلّا ساعات المدرسة) في الدار لا أجد ما أشغل نفسي، وأملأ به فراغ حياتي، إلّا القراءة فإذا أنا أكملت كتابة (وظائفي) ومطالعة درسي، مددت يدي إلى المكتبة، وكانت لدينا

مكتبة حافلة فأسحب كتاباً فأفتحه فانظر فيه، فإن لم أفهمه أو فهمته لكن ما أسغته أعدته إلى مكانه، وقد رسخ في نفسي اسمه واسم مؤلفه، وإن أعجبني قرأته، وكان الذي أقرؤه ينقش في ذاكرتي نقشاً لا تمحوه الأيام، وحديث المطالعات سيأتي مفصلاً إن شاء الله.



- ١٢ -
في امتحان الشهادة الابتدائية
خطبتي الأولى وتهجمي على الفرنسيين

مرت على دخولي هذه المدرسة سنتان، وقد جاء الامتحان. والامتحان اليوم كتابي، يقعد التلاميذ على مقاعدهم، يعطون ساعة أو ساعتين، ليفكروا ويتذكروا، ويكتبوا على مهل، إن عطشوا طلبوا فجاءهم الماء، أو ما شاؤوا من حلو الشراب، وربما سمح لهم أن يدخنوا! إي والله.. الطلاب يدخنون في الامتحان! عشنا حتى رأينا هذا بأعيننا، وقد صار مألوفاً (معروفاً) لا نملك أن ننكره، فينكروا علينا إنكارنا...

أما الامتحان الذي أحدثكم عنه في هذه الحلقة، وعن أمثاله فيما يأتي من الحلقات فقد كان شيئاً آخر.

كانوا يأتون في كل مادة نمتحن فيها بأكبر أساتذتها في البلد، يصطفون حول مكتب كبير، ويوضع أمامه كرسي يقعد عليه التلميذ الصغير، ويمدّ كل منهم يده إلى أغرب المسائل التي حفظها وأصعبها، يستخرجها من رأسه فيلقيها على رأس هذا الولد المسكين، لا يريد منه أن يجيب عليها، فهو يعلم أنه لا يقدر على الجواب، ولا يكلفه به منهج رسمي، ولا عرف سائد، ولكن ليظهر علمه لرفاقه وليريهم سعة اطلاعه، وطول باعه. ويأتي الثاني بأشد منها صعوبة وأكثر غرابة، كأنه امتحان للأساتذة الفاحصين. يكون هذا في أول الامتحان، فإذا انتهوا من (عرض عضلاتهم) ألانوا وسهّلوا. لذلك كنا نتدافع[1] الدخول في بداية الامتحان، فإذا هانت شدته، ووهت حدّته، تزاحمنا عليه، وتسابقنا إليه.

---

(١) أي يدفعه كل واحد منا عنه.

وكان هذا الامتحان بإشراف حاكم دولة دمشق الذي عيّنه الفرنسيون، وهو (حقي بك العظم)، وهو رجل كان يطالب بأن يحكم سورية الفرنسيون من قبل ميسلون، وكان يعلن هذا بلسانه وقلمه، ويقيم عليه أدلة يراها هو صحيحة، ولما جاءت لجنة (كراين) الأميركية لتستفتي الناس عما يريدونه كان هو، خلافاً لرأي الجمهور الأكبر من السوريين، يطلب الانتداب الفرنسي، مثله في ذلك مثل نوري باشا السعيد مع الإنكليز في العراق.

وقد تعجبون من اسم (دولة دمشق) وحق لكم العجب، فقد أقام الفرنسيون في سورية أربع دول لكل منها حاكم، وفي كل منها حكومة: دولة دمشق، ودولة حلب، ودولة الدروز، ودولة العلويين. وقديماً قال الشاعر:

مما يزهدني في أرض أندلس ألقاب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

دولة دمشق التي كانت على أيام الوليد بن عبد الملك تمتد من قلب فرنسا إلى آخر المشرق، وإلى أطراف الصين، وكانت الكلمة تخرج من الدار الخضراء، وراء جدار القبلة في الجامع الأموي، فتمضي شرقاً، وتمضي غرباً لا يقف أمامها شيء ولا يردها شيء، لا تلقى إلّا الطاعة والامتثال في ثلث المعمور من هذه الكرة، في الأرض المسلمة التي تعيش (تحت راية القرآن)، كما عاشت معها يوماً تحت هذه الراية نصف أوروبا يوم كان البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية، وكنا بالإسلام سادة الدنيا. هذه الدولة تقلصت أطرافها، وتقطعت أوصالها، وتناكر أهلها وتباعدوا فتضاءلت وتضاءلت حتى صارت (دولة دمشق)!.

وهذه سنة المستعمرين في كل زمان ومكان، عملهم قطع رابطة الإيمان بين المسلمين، وربطه بروابط الجاهلية، قانونهم (فرِّق تَسُدْ)، وعملهم كسر الحزمة عوداً عوداً، لما عجزوا عن كسرها جملة، ولكن لا تخافوا فالذي عقدته يد الله، لا تحله يد بشر، وقانون ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ لا ينسخه قانون (الوطنية) ولا (القومية) ولا الروابط الحزبية والعقائدية[1] البشرية، ولا تميعه

وتضيعه الدعوة (الأممية) و(الإنسانية) فالإسلام حق بين باطلين: بين القومية وبين الأممية.

* * *

لقد كان التلاميذ يفزعون من هذا الامتحان ويخشونه، ولكني كنت أترقبه متشوقاً إليه، وما خفت منه في يوم من الأيام.

هل تدرون أن فينا، في أعماق نفس كل منا خبايا وخفايا لا يعرفها صاحبها؟.

أنا الآن بعد هذا العمر، وهذه الشيبة لا أستطيع أن أزور أحداً من أصدقائي إن لم يكن معي رفيق، أما الذي لا تجمعني به صداقة وأُلفة تزول معها الكلفة فلا أقدر أن أزوره أبداً. لذلك أبتعد عن مجالس الأمراء والوزراء ولو كنت أشعر بالتقدير لهم، أو الشكر والعرفان. ومن أصعب الأمور عليّ أن يزورني من أحتشمه، ومن ليس بيني وبينه خلطة. ولقد اقترح من أيام أخ لا أعرفه في مقالة كتبها في جريدة (المدينة) أن يقيم لي أهل مكة حفلة تكريمية، لم يدر (جزاه الله على حسن مقصده خيراً) لم يدر أن الذي اقترحه أعتبره تعذيباً، وأفتدي نفسي منه بمرتب نصف شهر، صدقوني.

ولطالما هربت من أمثاله وأنا أعلم أن هربي مخالف للآداب الاجتماعية، ولأعراف الناس، وأني أفتح على نفسي باب الظن بأني قليل الوفاء وأني لا أقدِّر المعروف ولا أشكر عليه، أو أني مستعل متكبر أو أنني حافّ وجافٍ وما بي والله شيء من ذلك ولكنه ما ذكرت. على أني إذا صرت داخل المجلس وجدت عندي من الأخبار والقصص والنوادر ما يسلي الحاضرين ويسرهم ويفيدهم، ولكن الصعوبة في دخول المجلس.

فكيف كنت إذن لا أفزع من الامتحان؟ ولا أتهيب لقاء الجماعات من وراء المنبر؟ وكيف أخطب في مئة ألف بلا استعداد، فأرى ذلك أهون عليّ من حضور مجلس نفر من الناس.

---

(١) إذا جرى الجمع مجرى العلم جازت النسبة إليه فيجوز أن نقول: (قوانين عمالية) و(قضايا طلابية) كما قالوا لمسألة أصولية ومائدة ملوكية.

كيف؟ الجواب فيه نصف العلم. ونصف العلم (لا أدري)!.

كان هذا امتحان الشهادة الابتدائية، لم يكن يجمع له التلاميذ، بل كانت اللجنة تدور عليهم في مدارسهم. وكان لحضورها رجّة وضجة، وكانت تسبقه الاستعدادات وتعد الاستقبالات، لأنها تجمع كبار رجال (المعارف)، وأساتذة المدارس، برياسة الرئيس الأعلى للحكومة المحلية. وهو دولة الحاكم!.

وهذه شهادتي الرسمية، لا تزال عندي، درجاتي فيها كلها عشر من عشر إلّا السلوك والأخلاق، فقد كانت تسعاً من عشر، أي أنني بلا أخلاق أو كما كانوا يقولون لنا أيام الحكم العثماني (أدب سز).

إذا عرف السبب.....

ولكن إن عرفتم سببها، أدركتم أنها لم تكن وصمة عار بل وسام فخار. السبب أن فرنسا عزلت الجنرال غورو، وعينت مكانه الجنرال ويغان، الذي صار من بعد القائد العام لجيوش الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، وأمرت الحكومة بأن تخرج المدارس كلها بمعلميها وتلاميذها لاستقباله.

ولست أذكر الآن من هو المعلم الذي سنّ لنا سنة حسنة، هي أن يخصّص يوم في الأسبوع للخطابة، يجتمع كل من في المدرسة، ويقوم أحد المعلمين، على هذا السلم الذي ترونه في الصورة[١]، والذي بلغني أنه هدم الآن وأقيمت للمدرسة عمارة ضخمة، يقوم فيخطب، ثم يتبعه أحد التلاميذ فيلقي كلمة ارتجالية.

وكان دوري في الكلام، يوم أعلن أمر الحكومة بوجوب خروجنا لاستقبال المفوض السامي الجديد.

المفوض السامي كانت له سلطة حكومة سورية ولبنان معاً، ومجلسيهما النيابيين، والإشراف على قضائهما، أي أن سلطانه أضخم من سلطان رئيسي الجمهوريتين وحكومتيهما.

أتدرون ما الذي كان؟ أنا أرويه بلا تزيد ولا مبالغة، أرويه وأنا

(١) انظر الصورة؟ في نهاية الكتاب.

أعجب والله منه، الذي كان أني ألقيت خطبة حماسيّـة بصوت سمعه كل من في المدرسة، وسمعه جيرانها، ومن كان في المسجد أمامها، قلت فيه: بأن الفرنسيين أعداء ديننا ووطننا، وإنه لا يجوز أن نخرج لاستقبال زعيمهم..

ولست أذكر الآن ما قلت، وما كانت خطبة بليغـة الأسلوب رائعة البيان، ولعله كان فيها أخطاء وكان فيها لحن، فقد كانت أول خطبة لي، وكنت في الرابعة عشرة من عمري، في السنة السادسة الابتدائية. ولكن يظهر من آثارها أنها كانت خارجة من القلب، وكانت ممتزجة بالصدق، لأن التلاميذ جميعاً، ولأن نصف المعلمين، رفضوا حضور الاستقبال.

وقد كانت العقوبات في المدرسة، هي التنبيه، فالتوبيخ، فالتكدير العلني، فالطرد المؤقت من المدرسة، فالطرد الدائم.

فعوقبت بالتكدير وكسـر علامـة الأخلاق والسلوك، وكـانت هذه هي الخطوة الأولى التي صعدت بهـا المنابـر، حتى لانت لي درجاتهـا، وألفتني أعوادها، وصرت (ولا فخر) أعدّ إن عدّ روادها.

* * *

لا، لم يمتنع التلاميـذ وبعض المعلمين من استقبـال الجنـرال تـأثراً بخطبتي، بل لأن النفوس كانت كالقنبلة المحشوّة بالبارود، لا ينقصها إلّا أن تسحب منها مسمار الأمان.

كانت الأمة كجبـل البركان، إذا كان خامداً وطئت صخره بالنعـال وقرعته بالمطارق، فتحسبه (إذ لم يتحرك) أنه قد مات، وإذا به ينفجر فيذيب الصخر، ويلهب الأرض، وتخرج منه النار التي تدمر كل شيء بإذن ربها.

* * *

من الذي دفعني لإلقاء هذه الخطبة، وأنا لا أخالط أحداً، ولا أعرف إلّا بيتي ومدرستي والطريق بينهما، حتى أنني لم أعلم إلّا بعد ذلك التاريخ بسنين طوال، بالثورة (الرائدة) التي قام بها إبراهيم هنانو في الشمال، ولا بثورة صالح العلي، لا لم يحركني أحد، ولم يوجهني أحد، إلّا مشاعر الحرية والإباء التي كانت تملأ كل نفس في الشام، بل هي عزّة المؤمن مهما خبت

نارها، فإن جذوتها باقية إذا هبت عليها ريح الإيمان توقّدت وعلا لهيبها.

كنت أمشي مرة (في تلك الأيام) في حي العمارة، قرب الأموي، وكان الناس لم يفيقوا بعد من صدمة الهزيمة في ميسلون، ولم يألفوا منظر جنود الفرنسيين، يطئون بنعالهم مدينة معاوية وعبد الملك وصلاح الدين، فكانوا في شبه رعب منهم.

وكان جنود الفرنسيين لا يمشون إلاّ جماعات، فمرت امرأة مسلمة محجبة بالملاءة، فتعرضوا لها، ووقفوا في طريقها، فجعلت تتلفت مذعورة، تستغيث، والناس ينظرون إليها وإلى الجنود المسلحين، وإذا ببياع كبير السن، قد اعترته حال كأنها الصدمة الكهربائية، فوقف ينادي بصوت تحسّ منه لذع النار، وفورة الدم.

ويلكم أما عاد فينا دين ولا شرف؟

ثم يأخذ العصا التي يفتح فيها غلق الدكان، ويقفز (وكأني، أرى مشهده الآن) ويهجم بها على الجنود المسلحين، وتستيقظ القوة المدخرة في أعصاب الناس، فيهجمون معه، يهجمون بأيديهم فينزعون من الجند سلاحهم، وينقذون المرأة...

ويرطن الجنود مستخذين متوسلين، يشيرون بالتوبة، فيدعهم الناس ينصرفون.

وكانت هذه كلها إرهاصات الثورة الكبرى، وكانت إحدى الدلائل على أن هذه الأمة أمة محمّد، قد تغلب على أمرها حيناً، ولكنها لا تذل أبداً.

* * *

ولا أحب أن أودع هذه المدرسة قبل أن أشير إلى ثلاث حوادث، حوادث تنبه المدرسين إلى أن التلاميذ الصغار يراقبونهم ويسجلون حسناتهم وسيئاتهم.

الأولى: أن معلم الخط (ممدوح) كتب لكل واحد بقلم الرصاص السطور الثلاثة التي سنمتحن فيها، سطر الفارسي، وسطر الثلث، وسطر

الرقعة. ودعا كبار الخطاطين ومنهم نجيب هواويني، وكلفنا أن نمشي بأقلامنا على خط الرصاص، كأننا نحن الذين نكتب الحروف.

وقد نلنا الدرجات العالية، وإعجاب المدعوين، ولكني أحسّ إلى الآن بالخجل من مشاركتي في هذا الغش، وأشعر بأن المعلم صغر في عيني.

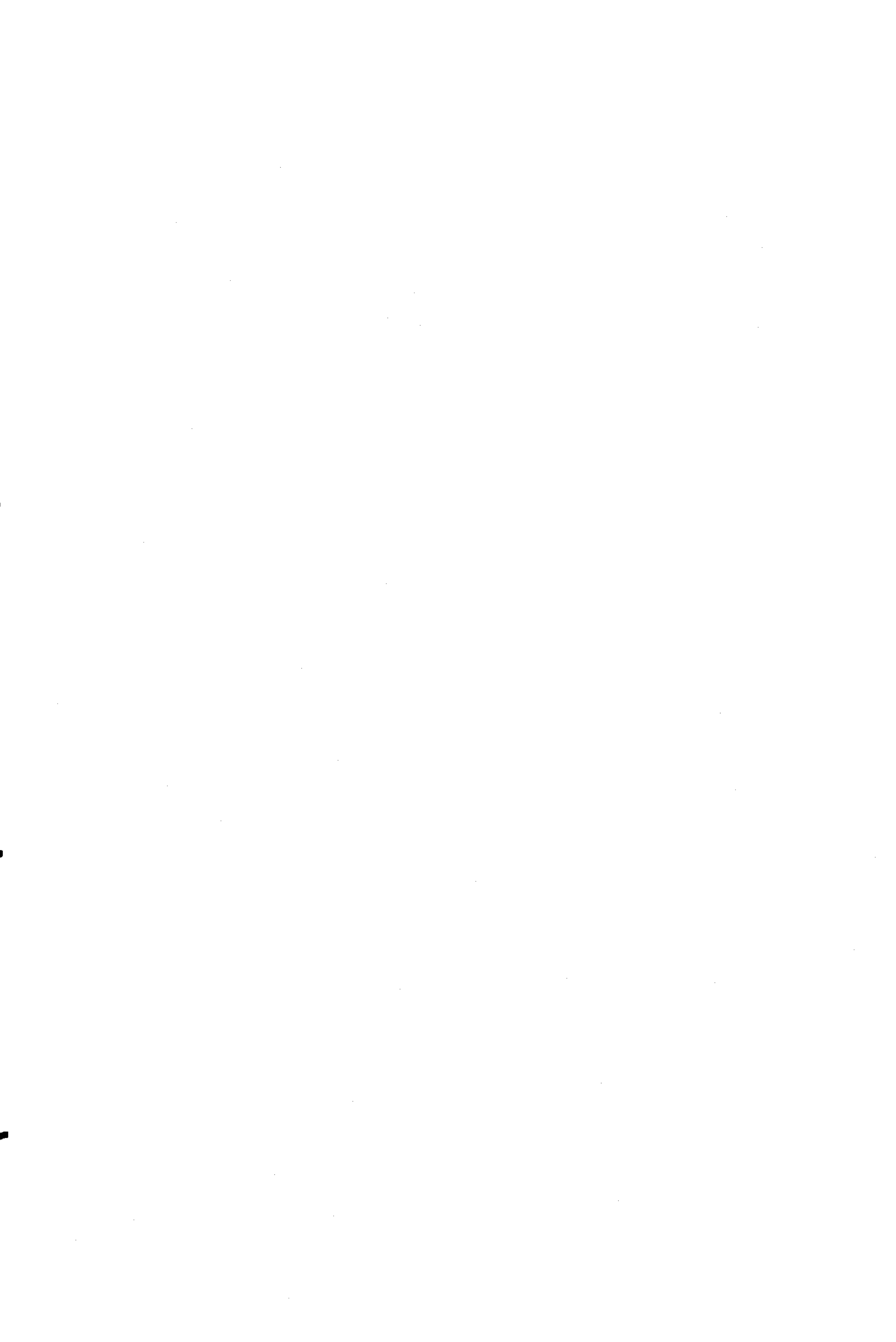
والثانية: أني تكلمت عن النصارى، فدعاني المدير النصراني، وكان عنده المعلم (ممدوح)، فقال لي: ألم تسمع قول الله: ﴿ولتجدن أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾.

فقلت له: أكمل الآية. فحقدها عليّ.

والثالثة: أنه كان في المدرسة لوحة شرف، فيها أسماء من تخرج فيها. وعند صورة كل منهم درجته وعلامة أخلاقه وسلوكه، وكان اسمي فيها وعلامة السلوك تسع من عشر.

فلما عُيِّنت معلمًا في هذه المدرسة سنة ١٩٣٥، وجدتها عشراً من عشر، فقلت للمدير: أما كانت تسعاً؟.

فقال: أعوذ بالله، أنت كنت مثال الخلق الكريم، والسلوك القويم. فتبسمت، وازداد هبوطاً في نظري.



- ١٣ -
في ثانوية «مكتب عنبر»
ومرحلة خصبة وهامة في حياتي

حياتي كحياة كل إنسان: طريق طويل فيه مراحل، مرحلة تمشي فيها في سهل منبسط، كل ما فيه مكشوف ظاهر، ليس فيه مجهول تتشوق إلى معرفته، ولا غامض مخوف تخشى من لقائه، تمشي فيه أياماً فكأنك ما مشيت إلّا ساعة، لأنه متشابه المناظر، بعيد عن المخاطر. ومرحلة تمشي فيها بين الجبال، تعلو حتى تبلغ الذروة، ثم تهبط حتى تصل إلى الحضيض. كلما دار بك الوادي تبدلت من حولك المشاهد، فربما رأيت الروضة المونقة والنبع الصافي، جنة ذات خمائل وعيون تجري من تحتها السواقي والأنهار، وربما اعترضتك عقبة، أو سلكت قفرة موحشة، ما تحتك إلّا الجنادل والحجارة، وما حولك إلّا جلاميد الصخر، تشتهي قطعة من ظل يقيك لذع الشمس، أو كأساً من ماء يطفىء منك أوار العطش فلا تجد.

وربما فتحت تحت رجليك حفرة، أو طلع وحش مخيف أو ذئب كاسر، أو مجرم قاطع طريق.

الأول: مثال من يعيش في البلد الآمن، في العصر الهادىء، السنة عنده كأنها يوم، يكون ابن خمسين وكأنه مِنْ تشابه أيامه، ما عاش إلّا عشر سنين، مطمئن النفس، ولكنه هامد الحس، خامد الشعور.

والثاني: مثال من يعيش في عهود الانتقال، في ظل الأحداث الكبار، اليوم عنده من تبدل الأحوال كأنه سنة، يكون ابن خمس عشرة سنة (وقد ناهزتها أنا في الأيام التي أتكلم عنها) وكأنه من كثرة ما رأى وما شاهد ابن

أربعين سنة، مستوفز الحسّ، مشدود العصب، كله عيون مفتوحة، وذهن حاضر.

وقد تجوز في هذا الطريق الطويل بسوق تتزود منها الزاد لسفرك كله، أو تجد من أهلها من يهديك ويرشدك في مسيرك: عالماً ناصحاً يقوّم اعوجاجك ويحسن توجيهك، أو تجد جاهلاً أو غشاشاً يصرفك عن الطريق المستقيم، ويعدل بك عن الجادة الموصلة، فيضلك بدلاً من أن يهديك. وهذا هو مثال المدرّس الصالح المصلح، والمدرّس الفاسد المفسد.

ولقد وصلت الآن إلى المرحلة التي كان لها أعمق الأثر في نفسي، وفي فكري وفي سلوكي، مرحلة (مكتب عنبر)، أحفل مرحلة بالأحداث الخاصة في حياتي، والأحداث العامة في حياة بلدي، فيها لقيت أساتذة وقرأت كتباً، كان لهم ولها أثر في دنياي وفي آخرتي، وفيها كان أكبر منعطف في طريق عمري وهو موت أبي، وفيها واجهت الحياة وأنا لم أستعدّ لمواجهتها، وخضت معركتها وأنا لم أتسلح لخوضها، فعملت معلمًا واشتغلت أجيراً، وحاولت أن أكون تاجراً، ثم تداركتني رحمة الله فعدت إلى ما خلقت له وهو العلم والأدب.

وفيها كانت (نهضة المشايخ)، وفيها كانت (الثورة السورية)، وفيها ابتدأ (النضال للاستقلال)، وفي آخرها صرت من قادة الشباب في هذا النضال، وصرت أكتب وأخطب وغدا اسمي معروفاً في البلد.

هذا هو الموجز يقول المذيعون، وهاكم تفصيل هذه الأخبار.

* * *

مواقف كثيرة ما حدثتكم عنه في هذه الذكريات كنت قد كتبت فيها مقالات مفصلة، أشرت إليها ولم أنقل شيئاً منها، لأنها منشورة وما أريد أن أعيد على القرّاء كلاماً سبق أن حدثت به، بل أريد أن أسوق إليهم كلاماً جديداً، ليأتي الحديث مؤتلفاً متسقاً، ولكني أستأذنهم اليوم، فأسرق فقرات من مقدمة كتاب (مكتب عنبر) الذي ألفه الأستاذ ظافر القاسمي، ذلك لأن كاتب المقدمة يحمل اسماً مثل اسمي، وأراه دائماً معي كلما وضعت المرآة أمامي، وقد علمت أنه يسمح لي أن أسرق من مقدمته، ولأن الكتاب لم ينشر إلاّ في مدى ضيق،

وذلك أن الأستاذ ظافراً القاسمي ترك مطابع الشام، وفي الشام مطابع قديمة وعظيمة، ومطابع مصر، وهي أقدم وأعظم، واختار (المطبعة الكاثوليكية) في بيروت، فأخرجت الكتاب إخراجاً بلغ في فن الطباعة الغايـة، ولكن من تحت. . . حتى أنني لم أر (وقد رأيت آلافاً من الكتب) غلاف كتاب هو أقبح شكلاً، وأبعد عن الذوق، من غلاف (مكتب عنبر) الذي أخرجته (المطبعة الكاثوليكية) في بيروت!.

ومع ذلك فقد ترك مطابع الشام ومطابع مصر، واختارها!!.

* * *

أقول: إن (مكتب عنبر) كان الثانوية المركزية في سوريا، كان مدرسة وهو في الحقيقة أكبر من مدرسة، كان منبع الوطنية، كان منار العلم، عاش من أواخر القرن الذي مضى، إلى أوائل الحرب الثانية، وهو يضم جمهرة المتعلمين في الشام، فكان يمر عليه كل واحد منهم يدخل إليه، ثم يخرج منه فيعلو في مدارج الحياة، أو يغوص في أوحالها، حتى ما تكاد تجد كبيراً في دمشق، ولا ذا منصب، ولا نابغاً في علم أو فن، إلّا وقد جاز يوماً بـ (مكتب عنبر).

كان من تلاميذه رجال لو عاشوا إلى الآن لكان عمر أصغرهم مئة سنة أولئك الذين ندعوهم رجال الرعيل الأول، وتسلسلت القوافل من بعدهم تجوز كلها بهذه الواحة الظليلة، تستمتع بزهرها، وتجتني من ثمرها، قبل أن توغـل في صحراء الحياة.

فإذا أردتم أن تنشقوا الآن ريّاها، وتتعلّلوا بعد فقدها بذكراها، ففتشوا كل من تلقونه من روادها، علَّ معه نفحة من وردها، أو لمحة من عهدها. سائلوهم جميعاً عن (مكتب عنبر) فإن لدى كل واحد منهـم طرفاً من حديثه، وفصلاً من تاريخه، فامسكوا بأطراف الأحاديث، تجيء في أيـديكم فصول الكتاب، وهيهـات هيهات، بعـدما فات منها ما فات، ومات منهم من مات.

لقد ذهب من رفاقي أنا (دع عنك قوافل مرت من قبلنا) من لا أستطيع الآن حصر أسمائهم.

لقد أراد أستاذ أساتذتنا محمد كردعلي أن يشجع طائفة من شعراء الطلاب من زملائنا، فاختار سنة ١٩٢٥، أنور العطار، وجميل سلطان، وزكي المحاسني، وعبد الكريم الكرمي (وهو أبو سلمى)، وأقام لهم حفلاً في المجمع العلمي بحضور أساتذتنا: سليم الجندي، وعبد القادر المبارك، والداوودي، والقواس، والبزم، وألقى الطلاب الأربعة قصائد جياداً، لو نشر مثلها الآن من يعدّ من كبار الشعراء لاستحسنت منه، ولا أزال أحفظ مطلع قصيدة أنور، وكان عنوانها (الشاعر):

خلّياه ينح على عذباته ويصغ من دموعه آياته

أين هؤلاء الطلاب الشعراء؟ وأين من شجعهم؟ وأين من حضر الاحتفال بهم؟ لقد ذهبوا جميعاً. ذهب أساتذتنا كلهم، وذهب الكثير من إخواننا الذي كانوا يقرأون عليهم، رحمهم الله ورحمنا معهم وختم لنا بالحسنى.

* * *

لقد عشت في هذا المكتب ست سنين كانت أحفل سني حياتي بالعواطف، وأغناها بالذكريات، وكانت لنفسي كأيام البناء في تاريخ الدار، لو عاشت الدار بعدها ألف سنة لكانت كلها تبعاً لهذه الأيام، التي يرسم فيها المخطط، وتحدّد الغرف، ويرسى الأساس، فكيف أدخل ست سنين بطولها وعرضها في عشر دقائق، هي مدة قراءة هذا الفصل، كيف أجمع البحر في كأس، وأحصر الدنيا في صندوق؟ لقد عشت فيه من الصف السابع إلى الثاني عشر، ما تأخرت ولا رسبت، ولكنها لم تكن ست سنين إلّا بحساب التقويم المعلق على الجدار، وهل يقاس عمر الإنسان بالأشهر والأعوام؟.

إن ليلة الصيف تمتد في تقدير عقارب الساعة عشر ساعات، سواء في ذلك ليل العاشق الناعم بالوصال، وليل السجين المكبل بالأغلال، مع أن ليلة الوصال في الحقيقة لحظة، ولحظة العذاب دهر طويل؛ أليست هذه هي نظرية النسبية؟

لقد سرقها (أنشتاين) من ابن زيدون حين قال:

إن يطل بعدك ليلي فلقد بِتُّ أشكو قصر الليل معك

ست سنين، ولكن كانت هي العمر.

* * *

كان (مكتب عنبر) في دمشق القديمة، في محلة تسمّى الخراب، في السوق الطويل، الذي يصل باب الجابية، الذي طالما ذكر في تاريخ الفتوح، بالباب الشرقي الذي دخل منه خالد بن الوليد أعظم قواد التاريخ القديم، يوم الفتح: فتح دمشق.

وقد ورد في الأثر بأن عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان عند المنارة البيضاء، عند هذا الباب.

وهذا السوق، هو الشارع المستقيم المذكور في التوراة، أما اسم الخراب، فلأن تيمورلنك، قد خرّب هذا الحي مع ما خرب من دمشق، وكثيراً ما رأيت الناس يحفرون في الأرض، فيظهر بلاط الدار التي هدمت، وتبدو البركة التي كانت فيها، على عمق عشرة أذرع.

ولو أن حفريات أجريت في هذه البقعة من دمشق، لظهرت أربع مدن أو خمس، بعضها مبني على أنقاض بعض، وقد رأينا مثل ذلك في بابل، وفي (أور) مدينة سيدنا إبراهيم قرب (الناصرية) في العراق.

ولما أرادوا إصلاح درج الجامع الأموي من جهة الشرق ظهر تحته بناء، ولو أنهم تابعوا الحفر (ولا أشير بذلك ولا أحبذه) لوجدوا تحت الجامع الأموي، بناء آخر، كما وجدوا في الجامع الكبير في بيروت من نحو ثلاثين سنة.

* * *

كان مكتب عنبر هو الثانوية الوحيدة الكاملة في سورية، حتى أن طلاب حلب إذا نالوا (البكالوريا الأولى) قدموا دمشق فأتموا الدراسة فيه، ومن هؤلاء الأستاذ أسعد الكوراني (وكان قبلنا بسنة)، والشيخ مصطفى الزرقا (وكان بعدنا بسنة) وإن كان أكبر مني سنّاً، وكان معنا رفاق من حمص وحماه وحوران،

وكانت رابطة مكتب عنبر، تشدهم جميعاً.

وإن من المدارس ما يجعل بين طلابه صلة أقوى من صلة الزمالة، كالأزهر في مصر، ودار العلوم، وندوة العلماء في الهند.

- ١٤ -

في مكتب عنبر

أرأيت الماء الذي ينزل من الأنبوب قطرة قطرة؟ يملأ كأسك في ساعة. أما إن كان يخرج منه بقوة واندفاع، فإن الكأس لا تمتلىء أبداً، لأن الماء ينبو عنها، ويتطاير منها، فلا يستقر منه شيء فيها.

هذا مثالي لما قعدت أكتب عن المدرسة التجارية، وحين أقعد الآن لأكتب عن مكتب عنبر.

كانت ذكرياتي هناك قليلة فلم أجد منها ما يصلح لمقال، وهي اليوم كثيرة جداً لا أدري ما الذي أدعه منها، وما الذي أختاره لهذا المقال.

مكتب عنبر، في دار شامية جميلة، في مدخلها رحبة فسيحة فيها شجرات كبار، حولها رواق تحته مقاعد، كنا نلعب في وسط الرحبة أو نستريح على المقاعد من حولها، فإذا جُزْتها رأيت الدار، في صدرها الإيوان، قد ازينت جدرانها بعبقري النقوش والألوان، قد قام من حول بركتها (الشمشير)، وعرشت على جدرانها دوالي العنب تبلغ السطح والياسمين والمليسا، وأبهى وأعطر ما خلق الله من النبات، فتحس حين تدخلها أنها تضحك لك.

لقد درت غرفها كلها وأبهاءها، لأن كل غرفة منها لطلاب صف من الصفوف، فلي في كل غرفة منها ذكرى، وفي كل زاوية قطعة من حياتي التي ذهبت ولن تعود. . . .

فما الذي أستطيع أن أذكره الآن، وما أذكره كيف أقدر أن أثبته على الورق؟.

إن أجمل آثار الكاتب أو الشاعر هي التي لم يكتبها.

ومتى كانت الكلمات تسع العواطف والأفكار، بل متى كانت تسجل كل مشاهد الكون، فضلاً عن مشاعر النفوس؟.

أتقدر أن تسجل ألوان الغروب حتى لا يفوت قارىء قصيدتك ـ أيها الشاعر ـ أو ناظر لوحتك ـ أيها الرسام ـ شيء منها؟.

كم قال الشعراء وكم كتب الكتّاب في (الحب)، فهل أحاطوا بمعاني الحب، هل أدركوا أسرار الجمال؟.

هذه الكلمة المؤلفة من حرفين اثنين: الحاء التي تعبر عن الحنان، والباء الساكنة التي ترى الفم وهو ينطق بها مجموع الشفتين كأنه متهيِّء لقبلة!

هل تحيط كلمة (الحب) بكل أشكال الحب، الأم تحب ولدها، وهذا يحب من الشعراء البحتري، والثالث يحب من البلاد مكة، والرابع يحب ركوب البحر، والخامس يحب الفول المدمس بالزيت لا بالسمن.

... وقيس يحب ليلى، أفهذا كله (حب) واحد؟ وحب الله الذي هو جوهر الإيمان أترونه يشبه ما ذكرت من أنواع الحب؟

والجمال؟ جمال الطبيعة، وجمال البلاغة، وجمال الشيخ الوقور، وجمال المرأة الحسناء، هل هو (جمال) واحد؟.

ولو جئت بمئة جميلة، لوجدت مئة جمال، كل له طعم، وكل له لون، وكل من نوع، وما عندنا لهذا كله إلاّ كلمة واحدة، لذلك نعمد إلى الأوصاف فنقول: هذا جمال وديع، وهذا وحشي، وهذا شهواني، وهذا ما لست أدري.

إن لغات الأرض تعجز عن التعبير عن مشاعر النفوس، فكيف نريد منها أن تعبر عن عالم (ما وراء المادة)، عن (عالم الغيب)؟.

عفوكم يا أيها القرّاء، لقد ذهبت مع خواطري، وابتعدت. لقد ابتعدت كثيراً عن موضوعي.

* * *

سألني الإخوان عن (عنبر) هذا، الذي سميت باسمه هذه المدرسة العظيمة، التي كانت وحدها فصلاً كاملاً من تاريخ الشام الحديث، ما عنبر هذا؟.

فضحكت، لأن عنبر لم يكن عبقرياً ولا عظيماً بل هو اسم الرجل الذي بنى هذه الدار، وهكذا ترون أن الشهرة، وبقاء الاسم، ليسا دليل عظمة الرجال.

في جدَّة حي من أفخم أحيائها الجديدة، اسمه (حي عنيكش)، فاسألوا من (عنيكش) الذي كرمناه فسمينا باسمه حياً كاملاً، والناس إن كرموا عظيماً سمّوا به شارعاً واحداً؟.

وباب إبراهيم، من أشهر أبواب الحرم ما سمي باسم سيدنا إبراهيم الخليل، كما ظن من أطلق اسمه على الشارع، بل باسم خياط كانت (دكانه) عند هذا الباب.

وأميركا، ما سميت باسم كريستوف كولومبس الذي اكتشفها بل باسم بحار اسمه (اميركو فيسبوسيو) كان من أوائل من أبحر إليها بعد اكتشافها بخمس عشرة سنة!.

أتسمونها مصادفات؟ أم هي حظوظ؟ أم دليل على أن الشهرة ليست مقياس عظمة الرجال.

* * *

لما أرسل إليّ الأستاذ ظافر أصول كتابه (مكتب عنبر) لأكتب مقدمته، كنت في الرياض، في أول سنة قدمت فيها المملكة، هذه القدمة الأخيرة سنة **١٣٨٣هـ** تركت محكمة النقض وكنت مستشاراً فيها، وجئت، ولم أكن أعرف أحداً، ولا يكاد يعرفني أحد، فكنت من السأم والملال، كمن كان في ظلام السنما، فطلع عليه الفلم، يعرض صور عالم كان يوماً دنياه وكانت فيه حياته.

لقد حركت تلك الأصول سواكن نفسي وبعثت لي أحداث أمسي،

وهزتني هزّاً حتى لقد أحسست كأن قد عادت لي مواضي أيامي . . .

. . . وهل تعود الأيام الماضيات؟! لا ما تعود، ولكن أنا الذي عاد إليها على جناحين من ذكرى وخيال، لأدخلها مرة ثانية، فأعيش فيها في حلم ممتع فتان.

إن مدرسي الإنشاء، ومخبري الصحف ومذيعي الإذاعة، لا يكادون يلقون أحداً حتى يسألوه: ما هو شعورك؟.

كلمة تقال وتردّد، لا السائل يدري عم يسأل، ولا المسؤول يدري بم يجيب؟.

ولكني إن سئلت عن شعوري وأنا أتحدث عن (مكتب عنبر) بعدما فارقته من ثلاث وخمسين سنة[1]، لقلت إنه كشعور البدوي العاشق، الذي طالما أنس بلقاء المحبوب على غفلة الرقيب، في ظلال الخيمة المنفردة ساعة الأصيل، وعلى طرف الغدير الصافي عند العشية، وعلى سفح التل القريب في ضوء القمر، والليل يغلّف بسكونه همسات الغرام، ليالي المنى ماثلات أمامه لما رأى حبيبه معه، واللذائذ كلها في يديه، وماضيه ومستقبله قد احتوتها اللحظة الحاضرة، فلم يعد يذكر ما كان، ولا يفكر فيما يكون . . . وكذلك يصنع الحب بالمحبين . . . . .

ثم يتفرق الشمل الجميع، وينأى الحبيب القريب، ولا يبقى من هذه الحياة . . . إلاّ (الأطلال) المواثل، في القفرة الخالية، قد جف الغدير، وهُدَّت الخيام، ورحل الأحبة.

ماذا يكون شعور هذا (البدوي العاشق) حين يجيئه من يحمل إليه رسالة من ليلاه. (ولكل محب ليلى . . .) فيها وعد باللقاء، وبشارة بالوصول.

كذلك كان شعوري.

غير أن (البدوي) يأمل أن يرجع إليه الحبيب، وتعود أمسيات اللقاء، وأنا أعيش بلا أمل ولا رجاء.

---

(١) كتبت هذا الكلام سنة ١٣٨٣ هـ.

وهل يعود لي أمسي الذي مضى، وشبابي الذي ولى، ورفاق الصبا، وإخوان الصفا، حيث كنا نعيش في دنيا لا تعرف الغش ولا الخداع، ولا زيف الصداقات، تلك حياة الطفولة الطاهرة فهل تعود؟:

وليست عشيات الحمى برواجع   عليك ولكن خل عينيك تدمعا

كان موعد دخولي (مكتب عنبر) كما قلت لكم هو سنة ١٩٢٠، ولكني لم أدخله إلّا بعد ذلك بثلاث سنين. ما قصرت عنه سني، ولا عاقني عنه كسلي، ولكن طال إليه طريقي.

إني لأذكر من رفاقي فيه سعيد الأفغاني، وهو اليوم مرجع في قواعد اللغة العربية، نحوها وصرفها، وإن كان أبوه على صلاحه وتقواه، لا يحسن العربية.

وما هذا عجباً، فإن سيبويه شيخ النحو، ومؤلف (الكتاب)كان فارسياً، وإن كان كتابه معقوداً أكثره بلفظ رجل عبقري كان من أذكى أذكياء البشر هو (الخليل).

وشيخ الفقه أبو حنيفة كان فارسياً، وشيخ الحديث البخاري، وشيخ الشعراء المُوَلَّدين بشار، وأقوام لا يحصيهم العدّ.

ومن رفاقنا الشعراء: أنور العطار، وأبو سلمى، وزكي المحاسني، وجميل سلطان، وممن كان سابقاً لنا سليم الزركلي، وممن جاء بعدنا أمجد الطرابلسي.

ومن رفاقنا الأطباء: منير شورى، وبشير العظمة، ورشاد فرعون، وهو رفيقهم في كلية الطب (شفاه الله)، ونصرة الشلق، وعبدالحليم العلمي، وعبد الستار، الأول: كان قبلنا بسنوات، والثاني: كان بعدنا بسنوات. ونجم الدين الجندي، وأحمد الأسود.

ومن رفاقنا القضاة والفقهاء والمحامين: مصطفى الزرقا، وأسعد الكوراني، ومحمد الجيرودي، ورضا العظمة، وعبد العظيم الباجقني.

ومن رفاقنا في المدرسة: محمود مهدي الأسطنبولي، وخالد بكداش،

ومحمد المبارك (رحمه الله) وكان بعدنا بثلاث سنوات، ومحمد كمال الخطيب، ومظهر العظمة (رحمه الله)، وبطل أبطال الرياضة محمود البحرة، وجمال الفرا، ووجيه السمان، ونظيم الموصلي، وأحمد الفتيح، وأكثر هؤلاء وُلِّيَ منصب الوزارة، وأنور الشلاح.

لا،لا أستطيع أن أعدّ الآن أكثر مما عددت وإن كانت أسماؤهم في ذاكرتي وذكرياتهم في نفسي، ولكن الذكريات تتبع قانون (تداعي الأفكار)، فالشيء تراه أو تسمعه يذكرك بشبيهه أو بنقيضه أو بما يتصل به، وستأتي إن شاء الله خلال الحديث أسماء من لم أذكرهم الآن وأخبارهم فلا يعتب عليَّ من أغفلت اليوم اسمه، أو يعتب ولده أو صديقه.

أما أساتذتنا، فالحديث عنهم في الحلقة التالية إن شاء الله، وسترون أنهم اختاروا لهذه المدرسة الواحدة، لكل مادة كبار أساتذتها في البلد، فلما كثرت المدارس اليوم وازدادت، هبطت درجتها وصار يدرس فيها أصحاب شهادات، وقد كان المدرسون على عهدنا أصحاب علم، صرفوا في تحصيله أعمارهم، وأحيوا فيه لياليهم،وأتعبوا فيه أبصارهم، وصار كل منهم هو المرجع في المادة التي يدرِّسها.

كانت المدارس كالبئر ضيقة الفوهة، ولكنها عميقة القرار، فصارت كالبركة الضحلة واسعة الرقعة، لكنها قليلة العمق.

ـ ١٥ ـ
أساتذتي في مكتب عنبر

قعدت لأكتب هذا الفصل، فجاءتني الجرائد التي يتفضل أصحابها بإرسالها إليّ، وهي: المدينة، وعكاظ، والرياض، وقصاصات يبعث بها إليّ أخي ناجي، من الجرائد التي لا تصل إليّ وهي: الشرق الأوسط، والجزيرة، والندوة.

فوجدت في (الشرق الأوسط) المرافعات العظيمة التي ألقاها المحامون عن المتهمين بقتل السادات، ووجدت في (الندوة) مقالة جيدة جداً عن حرية إجارة العقارات، وما تجره من متاعب ومشكلات.

ووجدت أخبار المسلمين المعذبين في أفغانستان، وفي فلسطين، ومسلمين آخرين أشد منهم ابتلاءً، مع عدو أعظم خطراً، وأشد كفراً، ولكن لا يسأل عنهم أحد، ولا تمتد إليهم يد بعون أو مدد.

لما قرأت هذا فترت عزيمتي، وتعثر القلم في يدي.

أنا أقعد لأكتب ذكريات لا تهم أحداً، والنار تشتعل في كثير من بلاد المسلمين، والوباء يسري، والغمُّ يعمُّ؟

للناس قضايا يفكرون فيها، ويتحدثون عنها، وأنا أسرد ما وقع لي من قبل حين؟.

لقد كنت إن أَلَمَّ بالمسلمين خطب، أحمل سلاحي، وأسرع إلى الميدان، فمالي صرت من القاعدين؟ لم يكن سلاحي الحسام والسنان، وإنما كان القلم واللسان، والنضال بالمقال مثل القتال بالنصال والنبال.

وفكرت أن أقطع سلسلة هذه الذكريات، ثم رأيت أنها لا تخلو إن شاء الله من نفع، وأنها ربما ذكرت ناسياً، أو أوقدت من العزائم خابياً، ورأيت أن مثلي في سني وكبري، لا يطلب منه مثل الذي يطلب من الشباب، وأن لكل موظف وعامل حقاً في التقاعد فلماذا أحرم أنا هذا الحق؟.

فهل ترون في هذا عذراً لي إن أضعت وقتكم، وملأت صحف مجلتكم، بحديث ذكرياتي التي لا تهم أحداً منكم؟. أترونه عذراً أم أنا أعلل النفس بالأوهام؟.

ولو كانت ذكريات ملك أو أمير، أو قائد كبير، لغذت التاريخ بإظهار الخفايا وكشف المخبآت، ولكنها ذكريات واحد من الناس، كل الذي عمله أنه قرأ وأقرأ، وأنه كتب وخطب، وما أكثر الكتاب والخطباء، إني لأخجل حين أشغل القرّاء بنفسي، لذلك أفر إلى وصف أحداث البلد وأخبار الناس. وهذا ما لامني عليه رئيس التحرير، لوّح باللوم ولمّح، ولكنه ما صرَّح ولا وضّح.

أتكلم اليوم عن أساتذتي في مكتب عنبر، لقد كان أول درس حضرناه فيه للشيخ عبد الرحمن سلام، البيروتي، فاستقبلنا رحمه الله بخطبة رنانة أعلن فيها أنه غدا ذلك اليوم مدرساً للعربية حقّاً، ذلك أن من كان قبلنا قد درسوا في العهد التركي، فنشأوا (إلّا من عصم الله) على ضعف بالعربية، ومن كانوا معنا درس أكثرهم في العهد العربي، فكانوا أقوى ملكة، وأقوم لساناً.

رحمة الله على الشيخ سلام، فلقد كان نادرة الدنيا، في طلاقة اللسان وفي جلاء البيان. ولقد عرفت بعده لُسُن الأدباء، ومصاقع الخطباء، فما عرفت لساناً أطلق، ولا بياناً أجلى، ولست أنسى خطبته عندما أطل من شرفة النادي العربي قبل يوم ميسلون، على بحر من الناس يموج موجان البحر، قد ملأ ما بين محطة الحجاز، والمستشفى العسكري (الخستة خانة) في بوابة الصالحية[1]

---

(١) المحطة باقية وهي من أجمل أبنية دمشق، وأختها الصغرى في المدينة، أما المستشفى فقد قامت في مكانه عمارة (الأركان).

وسراي الحكومة[1] وحديقة الأمة (المنشية)، وكبر تكبيرة ردّدتها معه هذه الحناجر كلها، وأحسسنا كأن قد ردّدتها معه الخمائل من (الغوطة)، والأصلاد من (قاسيون)، ثم صاح صيحته التي لا تزال ترن في أذني، من وراء اثنتين وستين سنة،[2]، حتى كأني أسمعه يصيح بها الآن: (غورو، لن تدخلها إلّا على هذه الأجساد)

ولكن غورو دخلها!.

دخلها لما حسبنا أن الحرب تكتسب بالحماسة وبالخطب، ثم خرج قوم غورو، لما عرفنا كيف تكتسب الحروب.

غورو هذا وقف على قبر (صلاح الدين الأيوبي)، الذي غلب أوروبا كلها مرتين، مرة بسيف القتال، ومرة بنبل الفعال، وقف يفاخر عظامه ميتاً، وقد كان قومه يرتجفون من بأسه حيّاً، ولا يفاخر الأموات إلّا الجبناء، يقول: يا صلاح الدين لقد عدنا.

حسب من غروره أنه ملك الشام إلى الأبد، كما يحسب هذا المغرور المأفون (بيغن) أنه ملك القدس إلى الأبد.

فأين من يذهب فيبحث عن حفرة غورو، فيقف عليها ليرد عليه بالحق كلمته التي قالها بالباطل، ليقول له: كلا، بل لقد طردتم!.

وليستعد من الآن من سيقوم غداً على حفرة (بيغن) ليقول له: أين غرورك، وأين ادعاؤك؟! إن القدس قد رجعت على رغمك إلى أصحابها المسلمين.

نعم إنها سترجع إليهم، إن رجعوا هم إلى دينهم، ولقد بدت بوادر الرجوع إلى الدين.

لقد أقام الشيخ سلام معنا أشهراً ثم عاد إلى بلده، فعُيِّن أميناً للفتوى في لبنان، وجاءنا من بعده الأستاذ سليم الجندي ولما أصدرت أول كتاب لي سنة ١٩٣٠ وهو (الهيثميات) أهديته إلى روح المنفلوطي، سيد كتّاب العصر،

---

(١) وهي باقية أما شارع بغداد فلم يكن قد فتح. (٢) كانت هذه الخطبة أوائل سنة ١٩٢٠.

وإلى علميّ العربية: الجندي، والمبارك.

لقد ماتا وما أعرف تحت قبة الفلك، أعلم منهما بالعربية وعلومها، ولقد كانا أشد المدرسين تأثيراً في تكويني اللغوي والأدبي، رحمة الله عليهما وعلى أساتذتنا جميعاً.

* * *

أما المبارك فقد كان الإمام في اللغة، والمرجع فيها، قيد أوابدها وجمع شواردها، وحفظ شواهدها، وكان أعلم العرب بالعرب، عرف أيامهم[1] وروى أشعارهم، وكان المفرد العلم في بابته[2]، لا أعرف نظيراً له في العلماء، تحسّ إذ تجالسه وتسمع منه كأن الأصمعي وأبا عبيدة قد تمثلا لك في جبته، وكأن ما كنت تقرؤه من أخبار الرواة والحفاظ، قد عاد لك حتى رأيته بالعيان.

لقد كثر اليوم الأساتذة من حملة الشهادات، وأصحاب الدكتورات ولكن ذلك الطراز لم يعد له وجود.

أما درسه، فما حضرت، على كثرة ما حضرت من الدروس، درساً أكثر منه حياة، وأبقى في نفس سامعه أثراً، إن نغمته لا تزال إلى اليوم في أذني وكلماته في قلبي.

كنا ندخل الصف في مثل(العرضة): أصوات عالية متداخلة، وضجيج صاخب مزعج، وكان المدرسون يجدون مشقة في إسكات المتكلمين، وتهدئة الصاخبين، فإذا كان درس الشيخ المبارك، رأى التلاميذ الباب قد انفرج مصراعاه، وبدا من بينهما جبين عريض، من فوقه خط أبيض، ثم ظهر وجه الشيخ وعمامته، وجلجل صوته الذي كان يعرف من بين أصوات البشر جميعاً بضخامته وجهارته، بصدر بيت من الشعر، فيسكت الطلاب ليسمعوا، فيخطو الخطوة الثانية فيكون في الصف (أي الفصل) ويتم البيت، ويشرع بالدرس.

---

(١) أيام العرب حروبها.

(٢) يقال: هو من بابة فلان، إذا كان من أشكاله ونظرائه.

والغريب أنه لم يكن يدرسنا العربية بل الفقه، يقرئنا (مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح).

هذا مثال من الكتب التي كنا نقرؤها في السنة التي تلي سنة الشهادة الابتدائية، وهو كتاب أحسب أنه لو قرّر اليوم لطلبة الجامعة لشكـوا من صعوبته.

ولم يكن الشيخ يقتصر في درسه على الفقه، بل كان فيه مع الفقه تفسير وحديث وقواعد أصولية يسوقها بعبارات موجزة بليغة، يلقيها ويردّدها ويكتبها بخط الثلث، على اللوح (السبورة) بعرض الحوارة[1]، وكان يتخذ لكل شيء ضابطاً، جملة موجزة تجمع الأحكام، وتسهل على اللسان، ولا تذهب من الأذهان.

ولطالما دلنا على كتب، قرأتها وانتفعت بها، وهي رأس مالي في العلم والأدب ولولاه ما سمعت بها.

ثم درسنا الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية، لقدري باشا، فكان يشرحه شرحاً عجيباً، تجعل لكل حكم من أحكام الزواج والطلاق (قصة..) يؤلفها كما يؤلف الأديب قصصه، ويجعل لها قواعد تحفظ فلا تنسى، مثالها (لا يخلو زواج من عُقر أو عَقر)، أي لا بدّ من مهر في النكاح، أو حد في السفاح.

ثم درسنا السيرة فجاء بشيء ما رأيت والله ولا سمعت بمثله، يصور الوقائع، ويصف أمكنتها، ويشرح ما قيل فيها، ويدل على مراجعها، فكأننا كنا فيها.

وكنت أستوعبها استيعاب التربة العطشى ماء المطر، وكان يدلنا على الكتاب فأسرع إلى قراءته إن كان في مكتبتنا، أو إلى شرائه إن لم يكن عندنا، ولقد سمّى لنا كتاب (الروض الأنف للسهيلي)، فشريته عند خروجي من

---

(١) لا نعرف في الشام إلا اسم الحوار، لما يدعى (الطباشير) وهي كلمة عربية لأن التحوير هو التبييض، وإن كان شيخنا المبارك يسميه (الحكك)، وهي لفظة ولدت ميتة!

المدرسة وما بت حتى تصفحته، وقرأت صفحات كثيرة منه. أما حفظه فقد صدقت منه ما يروى عن حماد الرواية، وابن الأنباري، والمعرِّي.

لقد كنا نقلد لهجته، ونحكي صوتـه، حتى صارت هي لهجتي في التدريس وأنا لا أدري.

لما كنت أدرس في بغداد، أقيمت حفلة سمر في آخر سنة **١٩٣٦**، فسأل الطلاب مدرسيهم، على عادة اعتادوها: هل يأذنون لهم أن يقلدوهم؟.

فكان منهم من أذن، ومنهم من أبى، وكنت فيمن أذن، فقام طالب يقلدني بزعمه، ولكنه قلد شيخنا المبارك.

فقلت: ويحك هذا شيخنا المبارك.

وإذا بالطلاب يصيحون من الأركان الأربعة: بل هذا أنت، هذا أنت.

وإذا أنا لطول ما حاكيت الشيخ قد صرت مثله... أعني مثله في لهجته ونغمته، لا في علمه ولغته، أين أنا من علم الشيخ؟.

واتصـل حبلي بحبله، إلى أن تـوفاه الله، أزوره في داره، ويتفضـل فيشرفني بزيارتي في داري.

والشيخ من أصحاب النوادر، وأستطيع أن أسوق من نوادره وغرائبه ما يملأ صحفاً كثيرة.

وكان عليّ يوم توفي سنة **١٩٤٥** أن أُلقي كلمة التأبين، في مقبرة الباب الصغير، التي دفن فيها معاوية وجلّة من الصحابة، فرأيت في المقبرة أستاذنا محمد كرد علي، متأثراً حزيناً، وما أعرفه إلّا مرحاً مزَّاحاً، ثم عرفت أنه كان سنين[١] المبارك، وأنه كان رفيقه في الدراسة عند أبيه الشيخ محمد المبارك، فأمرني أن أوصله إلى داره، فلم أخطب.

وكان الشيخ المبارك هذا، وهو جزائري الأصل، أحد أفذاذ الأدباء في عصره، له نثر، وله شعر، وله آثار مروية تدل على فضله وملكته.

(١) سنين الرجل: لدته، أي من كان في مثل سنه.

أما أخوه الشيخ محمد الطيب، فكان عالماً صوفياً، وقبره كان في أحلى مكان في دمشق، في طرف (المزة) من جهة الربوة.

ألا تعرفون ما الربوة؟ اقرأوا وصفها في كتابي (دمشق)، وقبر الشيخ محمد المبارك في مقبرة الصالحية، يشرف على دمشق والغوطتين.

والشيخ الطيب كان تلميذ جدنا الشيخ محمد الطنطاوي، الذي قدم دمشق من مصر، وتوفي فيها سنة ١٣٠٦هـ، وقد ذهب معه بأمر الأمير عبد القادر الجزائري إلى (قونية) في الأناضول، وأحضرا منها نسخة الفتوحات المكية، لمحيي الدين بن عربي.

والنسخة التي قوبلت على نسخة مؤلفها، وطبعت المطبوعة عنها، وضعتها في مكتبة مجمع اللغة العربية في دمشق، من عهد بعيد.

رحم الله شيخنا المبارك، ورحم أباه وعمه، ورحم ولده رفيقنا الأستاذ محمّد الذي توفاه الله من شهرين[1] ودفن في البقيع. لقد صحبت الشيخ نحواً من ربع قرن، أزوره في داره، وأذهب معه إلى مجالس أصحابه، وألازمه أكثر مما لازمه أولاده: محمد رحمه الله وقد كان معنا في المدرسة، ولكنه كان بعدنا، وعدنان، وهاني، وكانا تلميذيّ سنة ١٩٤٠، ومازن وقد كان صغيراً عندما كنت أزور الشيخ وهو اليوم خليفته في أستاذيته، أما عبد الهادي فقد كان يومئذ أصغر من أن يدخل علينا مجلس أبيه، أو لعله لم يكن ولد:

ذمَّ المنازل بعد منزلة اللوى   والعيش بعد أولئك الأيام

سقى الله تلك الأيام.....

---

(١) توفي رحمه الله سنة ١٤٠١ هـ.

- ١٦ -
أساتذتي في مكتب عنبر

خبروني هل تحفظون من أخبار أساتذتكم مثل الذي أحفظ من أخبار أساتذتي هؤلاء الذين أحدثكم حديثهم؟ هل يبقى من ذكرياتهم في نفوسكم بعد ثلاثين سنة من ابتعادكم عنهم، كالذي بقي في نفسي من ذكريات أساتذتي التي أكتب اليوم عنها بعد ستين سنة من تاريخها؟.

وإن هي بقيت في نفوسكم وحدثتم بها، فهل تحملون لهم من الحب كالذي أحمل لأساتذتي؟.

إني أحبهم، وإلّا فلماذا أثني عليهم وأمدحهم؟.

الشعراء كانوا يمدحون الملوك والأمراء وهم أحياء، أملاً بالمكافأة والعطاء، فهل أطمع بعطية من أناس مضوا إلى رحمة ربهم؟.

(وما أنا بالشاعر، وما صناعتي نسج التهاويل، ما أنا إلّا مصور يتأبط آلته يطوف بها، يصوّر مشاهد الحياة، ومشاعر النفس، مصوّر (فوتوغرافي) مسكين، ينقل صوره نقلاً، ولست المصوّر المبدع الفنان الذي يحمل لوحاته ما لم يكن ولا يكون. أنا إنسان يدب على أرض الواقع، على حين يضرب الشعراء أمواج الجو بأجنحة النسور) فأين أنا من جواء الشعراء[1] الذين يحسبون أنهم يتعالون عن واقع الحياة)[2].

---

(١) كلمة جو جمعها جواء لا أجواء ـ وما كان من الجمل بين قوسين فهو من مقالات لي قديمة.
(٢) أقصد ما يسمّى السريالية وأصلها (Sur) أي فوق Realité أي الواقع.

إني أفكر فيما صرت إليه، وما كنت في صغري فيه، فأرى الفضل لله أولاً وأخيراً، ولكن السبب فيه هؤلاء المدرسون وأمثالهم، وإن قل أمثالهم، الذين قعدت بين أيديهم، وأفدت منهم، في المدرسة مضطراً... وفي حلقات المساجد مختاراً، أو قابلتهم في مسالك الحياة مصادفة، فكان لهم، لقوة شخصياتهم، ونبل صفاتهم، وطهر قلوبهم، أعمق الأثر، في فكري وفي عاطفتي، وفي سلوكي وفي تكويني، لم أحس به في حينه، ولكن عرفته بعد حين.

وإذا كان كثير من المعلمين يعملون ليأخذوا الراتب، وكثير من الطلاب يقرؤون ليحملوا الشهادة، وكان في المدرسين المهمِل المسيَّب، وكان فيهم زائغ القلب، فاسد العقيدة، فقد كان أكثر معلمينا، يعلموننا ابتغاء ثواب الله، وحباً بنشر العلم، وكنا (أو كان أكثرنا) نتعلم حباً بتحصيل العلم، ورغبة في الأجر من الله.

وكانوا كالآباء لنا، يهتمون بدنيانا، وأخرانا.

فهل تستكثرون عليّ أن أنضح بالدمع قبور رجال هم ملؤوا قلبي بالعاطفة التي ينبع منها الدمع؟.

لقد بكيتهم يوم ماتوا بصوب قلبي، لا بماء عيني. فيا رب ارحمهم، وارحم كل الذين علموني، وارحم أبي لأنه كان أبي وكان معلمي واجزهم عني خير الجزاء.

* * *

كان أساتذتنا في مكتب عنبر أصنافاً...

أما مدرسو العربية فكانوا أئمتها في البلد، وكانوا المرجع فيها: الشيخ عبد الرحمن سلام الخطيب الشاعر، والشيخ المبارك اللغوي الراوية، والشيخ سليم الجندي أستاذ اللغة والنحو والصرف والعَرُوض، وقد سبق الكلام عن المبارك وسلام، وسأتكلم عن الجندي.

والشيخ الداوودي، ولم نقرأ عليه، ولكن عرفنا من تلاميذه أنه كان

يشرح الدرس على طريقة العلماء الأزهريين، في لطف ظاهر وخلق عظيم، وقلب رقيق، وكان شيخاً كبير السن، مريض الجسم، يستنفد الدرس قوته، فيخرج من غرفة التدريس، فيستلقي على الأريكة يستريح.

وكان يأتي المدرسة على أتان (حمارة)، وكانت يومئذ للعلماء كالسيارة اليوم للأغنياء، فإذا دخل الباب تسابق الطلاب يعينونه على النزول عنها، ويقبلون يده، ويمشون معه، وكان محبوباً ما رأيت له كارهاً.

ولما توفي سنة **١٩٢٦** نظم رفيقنا الشاعر (أنور العطار) قصيدة في رثائه ألقيتها أنا على قبره، في كلمة تأبين لي.

والأستاذ محمد البزم، الشاعر الفحل الذي كان يعد يومئذ أحد شعراء دمشق الأربعة وهم: خير الدين الزركلي، الذي صار بعدُ من أركان وزارة الخارجية السعودية مؤلف الكتاب العظيم (الأعلام) أحد الكتب العشرة التي يفاخر بها هذا القرن القرون السابقات، وكتاب شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، وكتب أخرى معروفة.

وخليل مردم بك رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق، العالم المؤلف والد الصديق الشاعر عدنان مردم بك.

وشفيق جبري أول عميد لكلية الآداب في جامعة دمشق، وركن وزارة المعارف قبل ذلك، مؤلف كتاب المتنبي والجاحظ.

والعجيب أن البزم لم يعرف في غير سورية، وقد كان أمثاله بل لقد كان تلاميذه معروفين، ولما نشر في (الرسالة) في أوائل الثلاثينيات وضع الزيات في رأس مقالته (للأديب محمد البزم) مع أنه كان يكتب لي، وأنا بمثابة تلميذ البزم، (للأستاذ فلان).

ولم نقرأ عليه. لقد قرأ عليه من جاء بعدنا من التلاميذ، وكان منهم أخي ناجي وأخي عبد الغني فخبرونا أنه كان مدرساً نادر المثيل. كان فصيح اللهجة، بيِّن الأسلوب، تعرف ذلك من سلامه ومن كلامه، لا يتكلم إلّا اللغة العربية البليغة..

ولقد اتصل حبل المودّة بأَخرَة بيني وبينه، وكنت قد جافيته أولاً. . . .
ذلك أنه كان يكتب في مجلة (الميزان)[1] كلمات يتناول فيها الأدباء بالتجريح
لا يكاد يسلم من لسانه أحد، فكتب عن أستاذنا الجندي «أنه يهدم للمعري
قصراً فخمًا ليقيم من أنقاضه كوخاً حقيراً». فأخذتني الحمية لأستاذي وكتبت
عن البزم «إنه يعرف في النحو ما يجهله الناس. . . ويجهل ما يعرفه الناس،
وإن شعره جدار من الحجارة الصلد، ولكنها مركومة ركمًا ليس بينها ملاط».

فغاظه ذلك مني، وكف عن الجندي مع أنه كان في خصام دائم مع
الأدباء. نظم أرجوزة، نحلها الشيخ المبارك، وجعلها على لسانه، وسارت في
الناس، وأضحكتهم على الشيخ.

ولقد سألت المبارك عنها، فأبدى ألمه منها، ولكنه صرح لي بأنه كان
يتمنى أن يقدر على نظم مثلها!.

وهجا مرة الأستاذ شفيق جبري بقصيدة قافيتها على الزاي المضمومة: لمز،
وَخْزُ، طنز عجز. فيها هذا البيت:

ولو شئت سيرت القوافي جحافلا وأوقرت أسماعاً وكان لي الفوز

ونشرت أيام الثورة، وكانت (البعثة) أي دار (مندوب المفوض السامي
الفرنسي) تراقب المطبوعات، وكان المراقب نصرانياً، ضعيفاً في العربية، فلم
يفهمها وحار في رفع تقريره عنها، فسأل زميلاً له، أعلم منه، فقال له: إن
الجحافل هي الجيوش، فكتب أن البزم يدعو لحشد الجيوش لحرب فرنسا!.

فقبضوا عليه وبيتوه في السجن، فما أنقذته إلّا شفاعة الجندي
وجبري!!.

* * *

(١) التي كان يصدرها الكاتب الأديب أحمد شاكر الكرمي - في أوائل العشرينيّات من هذا القرن، وهو
ابن الشيخ سعيد الكرمي، والأخ الأكبر لحسن، وعبد الغني، وعبد الكريم (وهو أبو سلمى
رفيقنا) وكلهم كاتب أديب أو شاعر مجيد.

ولعل سبب هجومه على الأدباء الأحياء، وعلى أئمة النحو الأموات، أنه نشأ بعيداً عن العلم والأدب، ثم اشتغل بهما بعد أن بلغ العشرين. فكان يحسّ في نفسه أنه دخيل عليهم، غريب فيهم، فيريد تثبيت منزلته بالحط منهم، والتعالي عليهم.

ولا تعجبوا فربما كان عنف الهجوم دليلاً على الشعور بالنقص في نفس المهاجم، وإسرائيل مثال ذلك، إسرائيل أعني الدولة الظالمة الغاصبة، لا إسرائيل النبي الذي هو يعقوب عليه السلام.

وما لحكام دولة إسرائيل ويعقوب؟ ما لبيغن هذا وما لقومه وأرض فلسطين، وما له ببني إسرائيل صلة قرابة ولا نسب، ولا له في تراب الأرض المقدسة ذرة من بقايا عظام أب واحد، إنما هو من (الخزر) الذين تهودوا طلباً للدنيا من طريق التهود.

أستغفر الله أن أقرن اسم محمد البزم الشاعر الفحل العربي المسلم، باسم بيغن، ولكن جرته القافية، ونسأل الله لنا وله العافية، ورحمة الله عليه. واللعنة على بيغن وكل معتد ظلوم كفار.

لقد أصابت البزم في آخر عمره مجموعة أمراض ذهبت ببصره، وأوهنت جسده القوي، وألقته على الفراش أمداً طويلاً، ولكن الله ألهم (الشيشكلي) جزاه الله خيراً وكان حاكم البلد، فأدخله المستشفى العسكري، وبقي فيه مخدوماً مرعياً، حتى توفاه الله فقيراً، ما ترك إلّا ديوانه الذي طبع بعد موته.

أما مدرسو العلوم (أي الطبيعة)، والرياضيات، والتاريخ، والجغرافيا، فكان أقلهم من الأطباء، وأكثرهم من الضباط العرب في الجيش العثماني.

الأطباء: الدكتور يحيى الشماع، وكان مدرس الكيمياء، والدكتور جودة الكيال، وكان يدرس الفيزياء وكنا نسميها الحكمة الطبيعية، وننطقها بالتاء المبسوطة فنقول الحكمت والكيمياء، أما كلمة فيزياء، فقد وضعها بعد ذلك الأستاذ عز الدين التنوخي وسيأتي الكلام عنه، وهو الذي وضع كلمة (الحيوانات البرمائية) منحوتة من البرية والمائية وغيرهما.

ولما كنا في الصف الثامن ذهب الشماع والكيال إلى (لوزان) لاستكمال دراسة الطب، وكان معهما الدكتور حسني سبح، الرجل العالم المحقّق، وهو اليوم رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق، وهو أقدم المجامع العربية.

فلما عادوا حياهما الشيخ الداوودي بقصيدة مطلعها:

دع ذكر ذات الحلي والخلخال والفاتنات أخا النهى بالخال

وجمع أسماءهم في هذا البيت العجيب:

يحيى بني الشماع حسني من بني سبح وجودة من بني الكيال

وكنا نسمع تلاميذ الداوودي من الشعبة التي يدرسها، ينشدون القصيدة على نغمة (البردة):

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وهي نغمة معروفة في الشام، نعلمها التلاميذ في درس العروض، ليضبطوا بها بحر البسيط.

وأقول بالمناسبة إن الصديق الأستاذ أحمد عبيد، نظم قصيدة أيضاً جاء فيها بيت كان أشعر وأسير من بيت الداووي، وهو:

الطب بحر طمى وفيه حسني سبح

أما الرياضيات فكان يدرسها اثنان: جودة الهاشمي وهو أشهر مدرسي هذه المدرسة، وقد سميت باسمه أكبر ثانوية في سورية، وكان عالماً بالرياضيات، (هضمها، ـ كما يقولون ـ هضمًا، وقتلها فهمًا، وأحسن فيها تعليمًا وتفهيمًا، وأعانه على ذلك سكوت التلاميذ في درسه، واستماعهم لقوله، فأفاد واستفاد).

وكنا نتوارث هيبته والخوف منه، يتواصى بذلك الطلاب، الخلف منهم عن السلف.

أما الثاني فهو مسلّم عناية، وهو عبقري من أفذاذ الرجال، كان من

كبار الضباط أركان الحرب، ومن أعلمهم بالفنون العسكرية، وكان أستاذاً في العلوم الطبيعية وفي الكيمياء خاصةً، يرجع إليه مدرّسوها في معضلات مسائلها، لا يكتمون ذلك عنا، ولا يتحرجون من ذكره أمامنا، وكان أستاذاً في (الطبوغرافيا)، وأستاذاً في علم الموسيقى، وكان يتقن التركية وكان أديباً فيها، والفرنسية وكان يدرسها في مدرسة الشرطة، والألمانية وكان يحسنها. ولكنه كان على هذه المزايا كلها، بعيداً عن التوفيق في التدريس، عاجزاً عن ضبط التلاميذ، له في الفوضى نوادر عجيبة.

لقد كان أكبر من أن يكون مدرساً في مدرسة ثانوية، فعجز عن الهبوط إلى (مستوى) عقول التلاميذ ليفهمهم، وعجزوا عن الصعود إليه ليفهموا منه، فبقي بينه وبينهم فراغ، ملأوه بالشغب والضجيج وإفساد الدرس.

رحمه الله، فلقد عشت حتى بلغت هذه السن، وتنقلت في البلاد، ولقيت العلماء والأدباء والأذكياء، فما صادفت أشد منه ذكاء.

وأنا أعرّف الذكاء بأنه سرعة المحاكمة، والعقل بأنه صحة المحاكمة، ومسلّم بك أذكى من عرفت، وإن كان ذكاؤه أكثر مما ينبغي، لا تعجبوا من هذا الكلام، فإن الذكي كالفارس... يقفز فيجيء على ظهر الفرس، والغبي يقصر فيقع دونها، فإن كان ذكاؤه أكثر مما ينبغي، كان كالذي يقفز قفزة أوسع فيقع وراء الفرس.

وكذلك كان مسلّم بك، كنا نقول له كلمة لا نقصد بها سوءاً، فيولد له ذكاؤه مقاصد لم تخطر لنا على بال، فيغضب منا، أو يعرض عنا.

ولولا الفوضى في درسه لاستفدنا منه الكثير.

وكان مثله في الفوضى مدرس الموسيقى، مع أنه مدرس موسيقى بارع وملحن ممتاز، وأستاذ العزف على القيثارة هو مصطفى الصواف، وكان يدرسنا الموسيقى كما تدرس في المعاهد الموسيقية، ولقد درسنا السلم الموسيقي، والإشارات كلها، وسلم (دو) الكبير، وسلم (فا)، وسلم (صول) إلخ... وسلم (الراست) في الموسيقى العربية، والموازنة بينه وبين سلم (دو ماجور)

والتأليف الغربي، والتأليف العربي، والمقامات، والضروب بأنواعها. .

كل ذلك كان يُدرَّس في الثانوية، ولكنا ما استفدنا منه كثيـراً لأن الأستاذ لم يكن يستطيع ضبط (الفصل)، ولأننا لم نكن ننظر إلى الموسيقى نظرة احترام وتقدير، ولأننا كنّـا أو كان أكثرنا يأبى التدرب على الآلات الموسيقية.

فاقتصر انتفاعي بها على العلم النظري فقط، وما ندمت على ما أضعت منها، لأني ما أضعت شيئاً يؤسف على فقده.

وللحديث بقايا. . .

- ١٧ -

من مصر إلى الشام

أما ترون الإذاعات تقطع برامجها أحياناً لتذيع خبراً طارئاً؟ إني أتبع اليوم سنة الإذاعات، فأقطع سلسلة ذكرياتي، لا لخبر طارىء، فما عندي أخبار أذيعها، ولكن أقطعها لأن هذه الأيام تعيد إلى ذاكرتي حادثاً أحب أن أقف عنده قليلاً.

ففي يوم الجمعة **٢٣** من جمادى الأولى حدث حادث كان له الأثر الأكبر في حياتي، ولكنه لا يدخل في ذكرياتي.

حادث، تسعة أعشار القرّاء لم يعرفوه، لأنهم لم يدركوه، والذين أدركوه لم يعرفوه لأنهم لم يسمعوا به، والذين سمعوا به لم يبالوا أن يعرفوه، لأنه حادث عادي يقع مثله كل يوم، وفي كل بلد، وقد وقع لقوم عاديين لم يكونوا من ذوي الشأن، ولا من أهل الغنى والسلطان، ووقع في طرف حي صغير من أحياء دمشق، في دار فقيرة، ولكنها ليست حقيرة، لأنها دار شاب عالم، يكرمه الناس، ويقصده طلبة العلم، فيعقد لهم حلقات دروس مجانية، في الصباح وفي المساء، في هذه الدار، وفي مسجد الحي، يعطيهم الكثير من علمه، ولا يأخذ لا كثيراً ولا قليلاً من أموالهم.

هذا الحادث هو أن زوجة هذا العالم وضعت غلاماً، ففرح به أبوه وجده، وعمته وجدته، وكانوا هم والأم، سكان هذه الدار.

ولدتها قابلة (داية) الحي، ولم يكن في دمشق يومئذ قابلات كثيرات يحملن شهادة، ولم يكن يولد النساء طبيب، ولا يجوز في دين الله، إلّا أن تكون

(ضرورة) أو (حاجة) تشبه الضرورة، ولا يكون ثمة طبيبة أنثى.

والعجيب حقاً أني لا أذكر عن هذا الحادث شيئاً.

بل أنا (لضعف ذاكرتي) لا أعرف كيف كان شعوري لما خرجت من عالمي الصغير، وهو بطن أمي، إلى هذه الدنيا الواسعة، ولا أعرف كيف سيكون شعوري عندما (أولد) مرة ثانية، فأخرج من (بطن) هذا العالم الأرضي إلى سعة عالم الآخرة.

تلك الولادة يسميها الناس موتاً، لأنهم لا يعرفون من الوجود إلّا هذه الدنيا، ولو كان في البطن توأمان، فسبق أحدهما بالخروج، وسئل الثاني عنه، لقال (أيضاً) إنه مات، ودفن في أعماق الأحشاء!.

فهل تتشابه الولادة والوفاة، أم هي خيالات أديب؟.

قلت لكم إني لا أذكر هذا الحادث، ولكن رأيت خبره على باطن جلدة المصباح المنير، وهذا نص الخبر:

رزقنا الله فجر يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة **١٣٢٧** غلاماً سميناه علياً.

* * *

كتب ذلك مصطفى بن أحمد سبط الطنطاوي.

فمن هذا (الطنطاوي) الذي ننسب إليه، ونحمل لقبه؟ إنه جد أبي لأمه، وهو عم جدي وهاكم قصته من أولها.

* * *

في سنة **١٢٥٥**هـ وصل إلى دمشق شاب مصري لم يسجل اسمه على الحدود، ولم يطلب منه جواز سفر، لأنها لم تكن بين مصر والشام حدود على الأرض، ولا فروق بين السكان، ولم تكن الأسفار تحتاج إلى (جواز)، بل كانت كلها بلداً واحداً، ترف عليه راية واحدة، هي الراية الحمراء ذات النجم والهلال، راية بني عثمان. وكان بنو عثمان حكاماً بشراً، لهم حسنات ولهم سيئات، وما حسناتهم (في جملتها) بأقل من حسنات من حكموا ديار الإسلام

على سعة رقعتها، وامتداد زمانها، ولا سيئاتهم بأكثر من سيئاتهم، ولكن اليهود (وأصل كل بلية في الدنيا إبليس واليهود) لما صدهم السلطان عبد الحميد، وضرب وجوههم بأموالهم التي جاؤوا يساومونه بها على دينه، افتروا عليه، وبهتوه، والافتراء والبهتان من خلائقهم.

لما كان ذلك ذهبوا يشوهون تاريخه وتاريخ قومه، وصدق ذلك ناس منا، بل من أفاضلنا.

هذا الشاب الذي وصل دمشق سنة ١٢٥٥هـ ولد في طنطا، التي كان اسمها طندتا. وأنا لم أدركه، وكيف؟! وقد مات سنة ١٣٠٦، أي قبل أن أولد بإحدى وعشرين سنة؟.

ما أدركته ولكن سمعت خبره من شيوخ أسرتي، من ولديه الشيخ عبد القادر، والشيخ عبد الوهاب، وهما خالا أبي، وممن أدركت من تلاميذه كالشيخ عبد المحسن الأسطواني، والشيخ محمّد شكري الأسطواني مفتي سورية.

ومن ترجمته في الكتاب القيم (روض البشر) للشيخ عبد الرزاق البيطار جد شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار، وكتاب الحدائق للشيخ عبد المجيد الخاني وهما تلميذاه، وكتاب الشيخ تقي الدين، ومما كتبه عنه الأستاذ محمد كرد علي.

ومن نظر في تراجم علماء الشام في القرن الماضي، في هذه الكتب وغيرها وجد الكثير منهم، قد قرأ عليه، وقعد بين يديه.

قالوا في ترجمته: (هو محمد بن مصطفى الطنطاوي مولداً، الدمشقي موطناً، الشافعي مذهباً).

لقب (الطندتائي) كما كان يكتب عن نفسه، أو (الطنطاوي) كما سار على ألسنة الناس، لقبوه به في الشام، فماذا كان لقب أسرته في بلده؟.

لا أدري، ولكن الذي سمعته في صغري، ولا أتبينه ولا أحقّق الآن مصدره، أن اسم أسرته كلمة فيها (شين ونون). لا تضحكوا، إني أقول الحق. لعلها الشناوي، أو المنشاوي، أو الشنواني ، لا يعرف ذلك أحد، وكيف وقد مضى على نزوحه منها قرن ونصف القرن، وما كان علمًا من الأعلام حتى يهتم

بِحلِّه وترحاله، ما هو إلّا رجل من أوساط الناس.

ولو بحثتم عن المصريين الذين سكنوا الشام وعُدُّوا من أهلها، والشاميين الذين سكنوا مصر، والمغاربة الذين هاجروا إلى المشرق، لوجدتم الكثير.

ذلك لما كانت بلاد المسلمين داراً واحداً، يسافر من شاء إلى حيث شاء.

أما الآن، فيا أسفي. لقد فرقت السياسة الأسرة الواحدة، فأنا سوري، وبنتي أردنية، وبناتي الأخريات سعوديات.

ولقد سافرت نصف ساعة في القطار من آخن (اكس لاشابيل)[1] في المانيا إلى ليبج في بلجيكا، فتغير عليّ كل شيء: اللغة، ومناظر البلد، ووضع الشوارع، وقواعد السير. لقد شعرت أني انتقلت من بلد إلى بلد.

وأسافر من الرياض إلى بغداد، أو إلى الكويت، أو إلى عمان، أو إلى دمشق، أو إلى مصر، فلا (أكاد) أشعر بتغير حقيقي، إلّا التغير الذي يشعر به من يسافر من مدينة إلى مدينة، في الدولة الواحدة.

قالوا: إنه ولد في طنطا (من أعمال مصر القاهرة)، ونشأ يتيمًا في حجر أخيه الأكبر، وكان اسمَه علي. فمن أبوه؟ وما عمله؟ وما خبره؟ الله أعلم.

أما علي هذا، علي بن مصطفى الذي سميت باسمه، وسمي أبي باسم أبيه، والذي هو أبو جدي، فلا أعرف عنه إلّا أطراف أخبار، لم أستقصها ولم أتحقّقها.

منها أنه كان (والله أعلم) في جيش إبراهيم باشا، وأنه لما سكن دمشق فتح دكاناً في خان الجمرك، وهو سوق مسقوف قريب من الأموي، على شكل زاوية قائمة، في وسطه مخزن واسع، لما أراد (أبو خليل القباني) أن يقيم مسرحه، وكان أول مسرح في الشام، جعله في هذا المخزن، فلما أبى أهل دمشق أن يفتح فيها هذا الباب للفساد، واضطروه إلى إغلاقه رحل إلى مصر، عام ١٨٨٤، وفيها راجت سوقه، وعلا نجمه، واشتهر اسمه. وكان يقتبس الرواية، أو

---

(١) عاصمة شارلمان وفيها آثاره.

يؤلفها، ويلحنها، ويمثلها فكان مؤلفاً وملحناً وممثلاً.

كان في خان الجمرك، سوق القماش، وكان يرتاده النساء، لذلك كان يدعونه أحياناً (سوق النسوان)، فكان جدنا هذا الذي لا أعرفه، إذا جاءته امرأة فكشفت وجهها لترى القماش، أو مدت يدها لتلمسه، زجرها وأمرها بالستر، فتركه النساء، فاضطر إلى ترك الدكان، وعاد إلى مصر.

ويظهر أنه كان فقيراً، لأن أخاه (الشيخ محمد الذي أتكلم عنه) كان يعيش في الجامع الأحمدي في طنطا على خبز الجراية ومرق المخلل، لا يجد غيرهما.

وقد (حفظ هنالك القرآن، وحصل بعض العلوم النقلية والعقلية، ثم سافر إلى حلب).

ويظهر أن حلب كانت مثابة للعلم والفن، فهذا الرجل قد قصدها لتلقي العلم عن علمائها، وبعض كبار أهل الفن أموها لأخذ الفن عن موسيقييها، ومن هؤلاء محمّد عبد الوهاب كما ذكر عن نفسه، ومصادر الغناء اليوم (فيما أعلم أنا) الموشحات الأندلسية، والأدوار والأغاني المصرية، والقدود الحلبية، والمقامات العراقية، والعتابا والمواويل السورية واللبنانية.

كيف ذهب إلى حلب؟ ولماذا؟ لا أعلم وقد (قرأ في حلب على الشيخ أحمد الترمانيني وغيره وأجازوه).

وهذه الإجازات كانت بمثابة الشهادات الجامعية اليوم، (وكان من طريقتهم أن الشيخ يمتحن الطالب فيما قرأ، ثم يجيزه به. والإجازات على درجات: منها الإجازة العامة، ومنها الإجازة الخاصة، وليس للإجازة العامة اعتبار الإجازة الخاصة بل كان العلماء يستنكفون عن العمل بها)[1].

ثم قدم دمشق سنة ١٢٥٥. (فأقام بها خمس سنين، وتلقى الطريقة النقشبندية عن الشيخ محمد الخاني الكبير، وبقي نزيله هذه المدة).

---

(١) من كتابي (الإمام النووي) في سلسلة (أعلام التاريخ) التي كنت أصدرها.

وكذلك كان يصنع العلماء الأغنياء ينزلون الطالب ويعلمونه وينفقون عليه كما كان يصنع الإمام محمد بن الحسن (صاحب أبي حنيفة) مع أسد بن الفرات وغيره. قرأ على محدث الشام في تلك الأيام الشيخ عبد الرحمن الكزبري، أستاذ الأساتذة، والشيخ سعيد الحلبي، والشيخ عبد الرحمن الطيبي، وهؤلاء كلهم أعلام يعرفهم أهل الشام.

ثم عاد إلى مصر ولزم الجامع الأزهر خمس سنين، قرأ فيها على الشيخ إبراهيم الباجوري، شيخ الجامع الأزهر، صاحب الحواشي المشهورة، والشيخ إبراهيم السقا خطيب الجامع الأزهر، والشيخ محمد الخضري الكبير، وهو فقيه عالم بالعربية والفلسفة والعلوم، وهو رجل عبقري، أصابه الصمم فاخترع طريقة للكلام بإشارات اليد، وعلمها من حوله، فكان يخاطبهم ويخاطبونه بها، وقد تلقى جدنا عنه العلوم الرياضية والفلك.

ثم رجع إلى دمشق، واتخذ له حجرة في مسجد (سيدي صهيب) في أول حي الميدان فكان يعلم فيها نهاره كله، واستمر في ذلك سنين حتى دعاه الأمير عبد القادر الجزائري، فدخل البلد، واستأجر له داراً واسعة (وهي الدار التي آلت فيما بعد للمحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني وتوفي فيها). و (عين له معاشاً) وأرسل إليه أولاده ليقرئهم، فاتخذ حجرة في المدرسة البادرائية، ولإنشاء هذه المدرسة قصة طريفة ليس هذا موضعها، فكان يعلم فيها أولاد الأمير وغيرهم من طلبة العلم.

قالوا: (وكان مشاركاً في كل علم وله فيه تدقيقات وتحقيقات) (ومن آثاره البسيط الموضوع في منارة العروس، وهي المنارة «الرئيسية» في الجامع الأموي).

وكان هذا البسيط من صنع ابن الشاطر، وهو فلكي رياضي كان رئيس المؤذنين في الجامع الأموي، وله مؤلفات في الفلك معروفة ومشهورة، وكان مولده في سنة ٧٠٤هـ في دمشق، وتوفي فيها سنة ٧٧٧هـ.

بقي هذا البسيط صالحاً إلى سنة **١٢٩٢** فطرأ عليه خلل، فكلفوا جدنا بإصلاحه فانكسر في يده، فشنّع عليه ناس من أهل الشام، وهجاه الشيخ عبد

السلام الشطي رحمه الله بقصيدة مطلعها:

كسر البسيط برأيه المعكوس ....

وكان الأمير عبد القادر، يتصرف كأنه حاكم، فأمر به فأقيم عليه حد القذف، أو ما يشبه هذا فما أروي إلّا ما سمعته، ولا أتهم في هذا بريئاً، ولا أدافع عن معتد، وقد ذهب الجميع إلى لقاء ربهم، والأمير معروف جهاده، ومعلومة مناقبه، والشيخ عبد السلام عالم من أسرة علم، فغفر الله لمن أساء، وعوض من أسيء إليه.

* * *

وقد صنع جدنا بسيطاً آخر، أجود من الأول، حسبه على الأفق الحقيقي، وزاد فيه قوس الباقي للفجر، ووضع في مكانه في يوم مشهود، وقد نظم الشيخ الخاني، قصيدة عارض فيها قصيدة الشطي مطلعها:

صنع البسيط بغاية التأسيس   شيخ الشأم رئيس كل رئيس

وأرخ لذلك على طريقة حساب الجمل، في آخر بيت فيها، فقال:

ما قال أهل الشام في تاريخه   تم البسيط بنفحة القدوس

أي سنة **١٢٩٣**، ثم صنع بسيطاً آخر لجامع الدقاق، الذي كان يؤم فيه ويخطب شيخنا الشيخ بهجة البيطار.

وكان يعيش على الراتب الذي يأخذه من الأمير، فلما مات الأمير جعلت له الحكومة راتباً، فلم يأخذه، ونهى ولديه عن أخذه، ولست أدري لماذا؟ ولا أعرف لرفضه وجهاً شرعياً، ولا من باب الورع، فالحديث صريح بجواز أخذه، بل بالحث عليه.

وجعل يبيع كتبه، وهي أعز شيء عليه، ويعيش منها، حتى توفاه الله آخر ربيع الثاني سنة **١٣٠٦**هـ (وصُلّيَ عليه في الجامع الأموي بمشهد عظيم، ودفن في مقبرة الباب الصغير) وترك كتباً صغيرة، أكثرها في الفلك والرياضيات منها: (حساب البسيط ورسمه)، (حساب الربع ورسمه)، (كشف

القناع عن معرفة الوقت من الارتفاع).

وله كما قالوا (تقريرات على كافة الكتب التي أقرأها مشتملة على حل مشكلات وإيضاح مبهمات) رحمه الله.

* * *

وأنا أكتب هنا للحق وللتاريخ، فلا أستطيع أن أختم الكلام عن جدنا من غير أن أعرض إلى أمر صنعه، ما أدري هل أحسن فيه أم أساء؟ هو أن الأمير عبد القادر العالم المجاهد كان (وليته لم يكن) ممن يقول بوحدة الوجود، وشيخ القائلين بها ابن عربي[١] وأكبر كتبه الفتوحات المكية وكان فيه نسخة كاملة في (قونية) بخط المؤلف، فبعث الأمير جدنا الشيخ محمداً وتلميذه الشيخ محمد الطيب (المدفون في المزة في أجمل بقعة منها) إلى قونية لنسخ صورة عنها، وطبعها.

هذا هو الذي صنعه. وللأمير عبد القادر كتاب اسمه (المواقف) مملوء بمذهب (وحدة الوجود)، ألزمت وأنا صغير بالمشاركة بتصحيح تجارب طبعه فلما رأيت ما فيه استعذت بالله، وتركته.

عودة إلى اقتراح قديم

ولقد كتبت في الرسالة من أكثر من أربعين سنة، أن كفر كفار قريش ليس أكثر مما في هذه الكتب، فقام عليَّ مشايخ من مشايخي، وكانت بيني وبينهم مناظرات، ثم اقترحت اقتراحاً، أعيد ذكره الآن:

إن ابن عربي واحد من الكتّاب الخمسة الذين هم أعظم كتاب العربية: الجاحظ، وأبو حيّان التوحيدي، والغزالي وابن خلدون.

وهو فيلسوف لا يبلغ سبينوزا إلّا أن يكون تلميذاً له. وكتابه الفتوحات كتاب عظيم، ولكن يفسده، ويذهب بخيره، ويمحو جماله، ما فيه من كلام لا يشك في أنه كفر، وأنه أخذ الأفلاطونية الجديدة لأفلوطين (Plotin) فجعلها من الدين.

---

(١) قالوا في المشرق ابن عربي، ليميز من ابن العربي الإمام الفقيه المحقق المعروف.

والاقتراح هو أن نأخذ الفتوحات، فنمحو منها هذا كله، وهذا كله لا يبلغ عشر الكتاب، ثم نطبعه طبعة جديدة، ونكتب على غلافها (مهذب الفتوحات) فنستفيد منه ونستمتع بالخير فيه، ونسلم مما فيه من الشر، فما رأيكم دام فضلكم؟.



- ١٨ -
جدي الشيخ أحمد الطنطاوي

تكاثرت الـظباء عـلى خراش　　فما يدري خـراش ما يصيـد

هذا هو مثالي اليوم. وأنتم تعلمون مما بقي في أذهانكم من دروس البلاغة (إن كان قد بقي فيها شيء منها) إن المشبه لا يكون كالمشبه به في جميع صفاته، بل فيما هو (وجه الشبه). فإن سمعت مغنياً يقول: (يا غزالاً صاد قلبي) لا تتصور أن لهذه الحبيبة التي صادت قلبه ذنباً كذنب الغزال، أو أنها تمشي على أربع!.

وإن شبهوها بالقمر ليلة أربعة عشر، لم نتصور وجهها دائرة كاملة كوجه القمر، ولا أنه مثله (كما زعموا) فيه الصخر والحجر!.

أنا مثل خراش في تردّده وحيرته. لا في خَلْقه وصورته، لأنه كما تعرفون (أو كما لا تعرفون) كلب، وأنا بحمد الله بشر. وإن كان في البشر من يحسن به أن يعود فيقرأ كتاب (تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب).

* * *

لقد وصلت في هذه الـذكريـات إلى مفرق الـطرق، ففتحت أمامي مسالك لا أستطيع أن أمشي فيها كلها معاً، وأحار فلا أدري أيها أختار:

هل أكمل الكلام عن (مكتب عنبر) وعن أساتذتي فيه؟ أم أتكلم عن (نهضة المشايخ)؟ أم (الثورة السورية)؟ أم أتم ما شرعت فيـه في الحلقة السابقة، ليتصل الحديث ويتسق؟.

أتمُّ ما شرعــت فيـه.

قلت لكم: إن الذي قدم الشام من طنطا في مصر، هو الشيخ محمد، وقد جاء معه أحمد ابن أخيه الكبير.

والشيخ أحمد هذا هو جدي الذي توفي سنة ١٩١٤، وفي ذاكرتي عنه بقايا صور قليلة ولكنها واضحة، وكذلك تكون الصور التي ترتسم في عهد الصغر.

ولقـد ساءلت نفسي لمـاذا أحدث القـرّاء عنه، ومـا انتفاعهم بهـذا الحديث؟ ثم رأيت أنه كان (نوعاً) من الشخصيات لا يخلو من طرافة أو غرابة، ثم إنه جدي والكلام عنه، حلقة لا بدّ منها في سلسلة الذكريات.

كان جدي (إمام طابور) متقاعداً في الجيش العثماني. وكان للوعاظ والأئمة في هذا الجيش رتب مثل رتب الضباط، وأعلاها رتبة (مفتي ألاي) وأحسبها تقابل وظيفة قاضي العسكر قديماً، ولا أعرف أنا ممن نالها إلّا الشيخ رضا الزعيم وهو رجل يستحق أن أقف عليه وقفة قصيرة، فقد كان صادقاً مع الله، صدّاعاً بالحق، جريئاً جرأة نادرة المثيل، وكذلك كان ولداه: الولد الصالح وهو الصديق الداعي إلى الله الشيخ صلاح الدين رحمه الله، والولد الـ. . . . . وهو (المشير. . . .) حسني الزعيم. الذي ابتدع في بلاد العرب بدعة الانقلابات العسكرية سنة ١٩٤٩، وإن كان قد سبقه الفـريق بكر صدقي في بغداد سنـة ١٩٣٦ بانقـلاب جزئي غـير كامل، وقد حضـرت الانقلابين، وربما تكلمت عنهما.

شارك الشيخ رضا في حرب (الترعة) لما أعد جمال باشا، ـ بأمر جماعته الاتحاديين وضغط حلفائهم الألمان ـ، حملة حشد لها ما استطاع من العَدد والعُدد لاجتياز (ترعة السويس) وتحرير مصر من الانكليز.

خطب الشيخ رضا الجند، وذكّرهم الله، ودعاهم ليصحّحوا نياتهم في الجهاد. وتلك سنّة المسلمين قبل كل معركة، ليخوضها الجندي على بصيرة، فإذا مات لم يخسر الدنيا بالموت حتى يكون قد ربح الجنة بالشهادة. وهذا ما

يجب أن يعرفه كل جندي مسلم، وكل فدائي، وكل من يتعرض للمنايا، ينال إن ظفر الثواب، ويحظى إذا قتل بالشهادة. وليس الشهيد الذي يقاتل لمجرد استرداد البلد السليب، ولا الذي يموت خدمة للعَلَم، ولا تضحية للوطن ولا دفاعاً عن مجد العروبة، بل الذي يقاتل لإعلاء كلمة الله، ويموت في سبيل الله.

ولو كان هذا قولي أنا لما ألزم أحد منكم باتباعه، ولكنه قول من يُلْزَمُ باتباعه كل واحد منكم: رسول الله ﷺ.

لم يخطب الشيخ رضا الجنـدَ ليحمسهم، ويدفعهم إلى الموت ثم يأوي إلى خيمته ليأكل وينام، بل خطبهم وصاح (الله أكبر) وأقدم، فطارت به قنبلة مدفع من مدافع الانكليز، فما وجدوا له جسداً يدفن، لم يقم له قبر، ولكن أقيم له في قلوب الناس حسن الذكر، وثبت له عند الله جزيل الأجر، وهذا دعاء لله، وليس تألّياً على الله.

* * *

أعود إلى حديث جدي... كان جدي نظامياً بطبعه، وزاده عمله في الجيش التزاماً بالنظام، وحرصاً على الترتيب، فكانت حياته كحياة تلميذ في مدرسة داخلية، كل حركة فيها بحساب، وكل عمل له وقت. فكأنها كانت - على طولها - يوماً واحداً يتكرر.. منامه في موعد محدّد، وقيامه في موعد محدّد، كانوا يومئذ يأكلون مرتين فقط، الفطور بعد صلاة الفجر، والعشاء بعد العصر. كان عشاءً مبكراً، أو فطوراً متأخراً، فليس المهم الاسم، بل إن كونه الساعة الثامنة الغروبية إذ لم يكن التوقيت الزوالي مألوفاً، لا يتقدم عنها ولا يتأخر، إلّا إذا خرجت الأرض عن مدارها، أو أسرعت في مسارها، أو غابت الشمس قبلَ حين غيابها.

وطالما كان يولم الولائم يدعو إليها كبار قادة الجيش، أو وجهاء البلد، فإذا بلغت الساعة الثامنة، باشر الأكل مع من حضر وإن لم يحضر أحد شرع يأكل وحده.

إنه مثل (كنت)[1] الذي كانت تضبط الساعة على موعد خروجه من داره، وإن كان ابن بلده (هاينه)[2] يقول: إنه ليس إنساناً يشعر، بل آلة تتحرك، وشاعرنا[3] يقول:

ولذيذ الحياة ما كان فوضى ... ليس فيه مسيطر أو نظام

والله أعلم بصحة ما قال.

* * *

سكن جدي أولاً مع عمه في داره الكبيرة، وتزوج ابنته، لذلك كان أبي يُعرِّف نفسه بأنه (سبط الطنطاوي) أي ابن بنته، وكان أهل الشام يحرصون على اجتماع الأسرة كلها في الدار الواحدة، الجد والجدة والأولاد وزوجاتهم، وأبناء هؤلاء الأولاد وبناتهم. لكل منهم جانب من هذه الدار الواسعة، وكلهم يأكل من قدر واحدة، تغرف كل أسرة صغيرة وتذهب بطعامها إلى غرفها. وكان عمل الدار مقسماً بين نسائها، لكل واحدة يوم في الأسبوع أو يومان أو ثلاثة، تبعاً لكثرتهن أو قلتهن. وإذا اجتمعوا عند الجد قعدوا متأدبين خاشعة أصواتهم، لا يخالفون له أمراً، ولا يجرؤون عليه بطلب، ولا يبدؤونه بحديث، بل إنني سمعت من أبي، كما سمعت عنه من أصحابه بعد وفاته أنه لا يعرف ما لون عيني أبيه لأنه لم يرفع بصره إليه أبداً!!.

ولست أحبذ هذا الذي أصفه، ولا أرى أنه هو الصواب، ولكن أذكر ما كان. أما الذي أحبذه، وأرجو أن نحافظ عليه، فهو ألا ننسى أن ابن العم أجنبي عن ابنة عمه، ولو جمعتهما الدار الواحدة، وأنه إن جاز (عند الحاجة) أن تشاركه مجلس الأسرة، فلا يجوز في دين الله أن تكشف أمامه عن أكثر من الوجه والكفين، ولا أن تنفرد به، وعليه أن يغض عنها بصره، وتغض هي بصرها.

... وكانت تقع الخصومات وتحدث المشكلات، بين أطفال هذه

---

(١) Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤).

(٢) Heine (١٧٩٩ - ١٨٥٦).

(٣) أظن أنه حافظ إبراهيم.

المجموعة فتنقل إلى الأمهات، وقد يشارك فيها الآباء، وهذا شيء ما منه بد حتى لو انفرد الرجل بزوجته وولده. ولو خلت دار من مثل هذه المشكلات، لخلت منها أشرف دار قامت على ظهر هذه الأرض، دار رسول الله عليه صلاة الله، فقد كانت فيها أشياء منها.

ولكنها كانت كاصطدام الغصن بالغصن في الدوحة الباسقة، والموجة بالموجة في البحيرة الصافية، وأصل الشجرة واحد، وماء البحيرة واحد، ولكنها ريح الصبا هبت في الأصيل، فأزاحت الملل، وجاءت بالأمل، وهل الحياة إلّا الحركة، وهل في الحركة غالباً إلّا البركة؟ خلاف ولكنه على السطح، وما في الأعماق، إلّا الإلفة والاتفاق.

وكان جدي يحب أن يكون له المكان الأول، وهو في هذه الدار الكبيرة لا يكون إلّا الثاني، لذلك استأذن عمه، وانفرد بنفسه وأهله، وأخذ داراً صغيرة (دويرة) من أملاك وقف جامع التوبة.

وفي دمشق مسجد جامع يعد من مساجد الإسلام الكبار، بل هو أكبرها وأقدمها بعد الحرمين: وهو الجامع الأموي. ومساجد تليه، في كل حي من أحياء دمشق، جامع التوبة لحي العقيبة وما والاها، ومسجد القصب للعمارة وباب السلام (وكان اسمه باب السلامة)، وجامع السنانية[1] لباب الجابية وما اتصل به، وجامع باب المصلّى، حيث كان مصلّى العيد في أول ميدان الحصى، وجامع منجك، وجامع الدقاق للميدان، وجامع الشيخ محيي الدين، وجامع الحنابلة، وجامع الشيخ عبد الغني النابلسي، وجامع ركن الدين وهي لأحياء سفح قاسيون، وجامع تنكز، وجامع يلبغا، في المرجة أو بجوارها.

وحي العقيبة حي صغير، فقير في طرف دمشق، وفي طرفه ثلاث حارات، أو لعل كلاً منها مجموعة حارات، أولها (الديمجية)، أي صناع الديما، ولو نظرتم في كتاب (قاموس الصناعات الشامية) للقاسمي، لرأيتم أنه كان في الشام صناعات جليلة أصيلة، نسيناها بل لقد نسينا اليوم أسماءها،

(١) الذي بناه سنان باشا أعظم مهندس في العهد العثماني.

ورحم الله القاسمي، الذي ألهمه الله تأليف هذا الكتاب، في وقت لم يكن يهتم فيه أحد بمثل هذه الموضوعات، وشكراً لأخينا الأستاذ ظافر[1] أن طبعه ونشره.

كان في الشام أقمشة تنسج على المنوال، وتباع قطعاً كل قطعة لثوب واحد وتسمى (الصاية) منها الرخيص المصنوع من القطن ونحوه وهو (الديما)، والغالي من الحرير وشبهه وهو (الألاجة) وهو القماش المخطط اللماع الذي تصنع منه (قفاطين) المشايخ في مصر، وكنا نلبسه في الشام في الأعياد تتعدّد فيه ألوان القماش، والخطوط المرسومة على القماش، وأشكال هذه الخطوط فيكون منه عشرات وعشرات من الأنواع، وهو متين يكاد يعيش مع لابسه شطر عمره ولا يبلى. فالديمجي، هو صانع الديما، ولما درسونا التركية أيام الحرب الأولى، علمونا أن النسبة إلى الصناعات تلحقها غالباً جيم قبل ياء النسبة، فنقول: بندقجي كندرجي (وفي مصر جزمجي)، وإلى البلدان بزيادة لام. فنقول: ازميرلي، نسبة إلى أزمير، وأورفلي، نسبة إلى أورفا (وأورفا هي الرها قديماً)، وأنا أكتب هذه الذكريات كلها من ذهني ما عندي شيء مكتوب أرجع إليه، وأعتمد عليه، فإن أخطأت، أو بدّل الترك ما تعلمناه يومئذ من قواعد لسانهم، فسامحوني.

وإلى جنب (الديمجية) حارة تسمّى (حارة تحت المئذنة) كان فيها من مشايخنا ومن أصدقائنا، الشيخ أبو الخير الميداني، والشيخ محمود ياسين الحمامي، وحارة اسمها (السمانة) وهي أكبر من حارة، إنها حي صغير، وبينهما طريق ضيق متعرج يضل فيه الخرِّيت[2]، لذلك كان اسمه الذي يعرف به بين الناس هو (محل ما ضيع القرد ابنه)!

وفي حارة السمانة كان منزل آل الزعيم، ومنزل رفيقيْ العمر: الشاعر أنور العطار، والأستاذ أحمد مظهر العظمة رحمهما الله، وكان في دمشق (كما كان في أكثر البلاد) أحياء وحارات يتجمع فيها أرباب الصناعة الواحدة، فتعرف

---

(١) رحمه الله.

(٢) الخريت: الخبير بالطرق، وخالد بن عبد القسري أمير العراق المشهور كان يلقب في شبابه بخالد الخريت، كما قال أبو الفرج في الأغاني.

بهم، وتنسب إليهم. ففي الشام سوق القطن، وسوق الحبوب، وسوق الحرير، وسوق الصاغة، والحدادين، والمناخلية، وسوق النحاسين، وقد وجدت في فتوح البلدان للبلاذري أن (قصر البريص) إذ كانوا:

يسقون من ورد البريص عليهم   بردى يصفّق بالرحيق السلسل

كان - كما يقول - في موضع سوق النحاسين، مقابل باب الفرج، وباب الفرج هو باب المناخلية، وهما بابان: باب في السور الداخلي وآخر في السور الخارجي، وهما باقيان إلى الآن. فالسوق إذن في موضعه الذي كان عليه قبل الإسلام. وسوق القباقبية - حيث تصنع القباقيب - وقد كان في موضعه الدار الخضراء دار معاوية وأكثر الخلفاء من بني أمية جنوبي الجامع ووراء جدار القبلة، ولا يزال الباب الذي كان يدخل منه الخلفاء إلى المقصورة ظاهراً ولكنه مسدود. أما عمر بن عبد العزيز فقد كانت داره في موضع المدرسة السميساطية شمالي الجامع، وهشام كانت داره في موضع مدفن نور الدين زنكي في سوق الخياطين.

* * *

كل ما في الدنيا يولد ويموت، يقوى ويضعف، يعزّ ويذل، فالدار الخضراء التي كانت يوماً عاصمة الدنيا، وسرّة الأرض، ومنزل الخلفاء من بني أمية الذين كانوا يحكمون ما بين قلب فرنسا وقلب تركستان وأطراف باكستان وكانت محط الآمال، ومطمح أنظار الرجال، صارت سوقاً للقباقيب!.

ولم يبق من اسم الخضراء، إلّا مصبغة صغيرة، تحت الأرض، هي المصبغة الخضراء..



- ١٩ -
عود للحديث عن مكتب عنبر

أعود إلى الحديث عن (مكتب عنبر) ولعلي لا أخطىء إن قلت إن الحديث عنه وعن أساتذتي فيه، أشهى إلى النفس من الحديث عن داري وأهلي فيها... ولقد فكرت أن لماذا أحن إلى الماضي؟.

لماذا أجد كلما سمعت في الإذاعة، أو قرأت في الصحف حديثاً مع شيخ مثلي عالي السن، لماذا أجده يفضل أيامه الخوالي على الحواضر من أيام الناس؟.

هل كان الأمس دائماً خيراً من اليوم؟ هل كانت الأخلاق كلها أفضل؟ والناس جميعاً أكمل؟ والحياة بكل ما فيها أجمل؟.

هل كان الطلاب كلهم أكثر جداً واجتهاداً؟ وكانت المناهج أغنى بالعلوم وأحفل؟.

هل كان المدرسون جميعاً أعلم بما يدرسون من مواد، وكانوا أشد إخلاصاً وأكثر عناية بالطلاب وحرصاً على نفعهم؟.

وهذا يجرني إلى سؤال، لا أجيب عنه الآن بل أدع جوابه لحلقات آتيات، من هذه الذكريات، هو:

هل كان علماء القرن الذي ودعناه من قريب، خيراً من علماء اليوم؟.

* * *

أما الحنين إلى الماضي فهو شيء طبيعي[1]، لأن الإنسان لا يعرف قيمة النعمة إلّا عند فقدها: الطعام الآن أمامك والشراب البارد تحت يدك، فهل تقدرهما كما تقدرهما وأنت صائم في نهار الصيف الطويل؟ هل تعرف قدر نعمة الأمن إلّا عند الخوف، والصحة إلّا عند المرض، والإقامة إلّا عند السفر... كذلك الشيخ لا يعرف قيمة الشباب إلّا عند فقده.

الشباب في الشام والعراق لهم نشيد مشهور هو (نحن الشباب لنا الغد). فما لنا نحن الشيوخ غير الأمس؟.

لذلك نأسى عليه، ونحنُّ إليه، ومن هنا سمَّى العرب الشيخ الكبير (الكنتي) لأنه يكثر أن يقول: كنت وكنت..

أما المناهج، فلقد درسنا في الثانوية من المواد ما يدرسه الطلاب اليوم، ودرسنا ما لا يدرسه الطلاب اليوم، كعلم آداب البحث والمناظرة، و (الطبوغرافيا)[2] أي علم التخطيط ووضع الخرائط، والحساب التجاري وكنا نسميه علم (مَسْك الدفاتر) أي المحاسبة، ودرسنا في الكيمياء والفيزياء والفلك آخر ما وصل العلم إليه في أيامنا ولكن العلم تقدم واتسع، ولقد شاهدت من سنين درس كيمياء في الرائي، فرأيت شيئاً جديداً، ولقد سألت صاحبه أن يعلمنيه، أو أن يدلني على كتاب مفهوم أتعلم منه فحسب أني أمزح، وأخذها على أنها نكتة..!

وما كنت مازحاً بل كنت جاداً كل الجد، فأنا أحب أن أتعلم كل شيء.

أما إقبالنا على العلم، فقد كان أكبر من إقبال الطلاب الآن من غير شك. وسبب ذلك أمران:

الأول: إننا كنا في بداية يقظة فكرية جاءت بعد نوم طويل. والثاني: أنه لم تكن عندنا هذه الصوارف التي تصرف الطلاب عن العلم، والمعلمين عن حسن الاستعداد للتعليم.

ما كانت إذاعات ولا كان هذا الرائي ولا كان شريط التسجيل، ولا

(١) القياس أن نقول، طبعي، ولكن علماءنا قالوا من القديم طبيعي وبديهي.

(٢) من اليونانية Tapos أي مكان Grapheiss تخطيط ووصف.

كانت هذه المجلات، ولا كانت الأسفار بالطيارات ولا الجولات في السيارات. نعم كان عندنا داران للسينما الصامتة لا يدخلهما إلّا من سفه نفسه، وكانت دمشق عدا المرجة وما حولها، وباب توما والقصاع وهما مسكن النصارى، كانت تنام من بعد صلاة العشاء. حتى المقاهي الشعبية لم يكن يسهر روادها إلى أكثر من الساعة الثالثة أو الرابعة (بعد غروب الشمس) يستمعون إلى الحكواتي أو يشاهدون (كراكوز)[1] وهو خيال الظل، ثم يمضون إلى بيوتهم، وما وراء ذلك من اللهو لم أكن أعرفه.

أما المدرسون فكان منهم أئمة في المواد التي يدرسونها، كالمبارك الذي سقت طرفاً من حديثه، والجندي الذي جئت أتحدث عنه، ومنهم أساتذة ما بلغوا هذه المنزلة، ومنهم من هو أقرب إلى العامية، ومنهم السيء وحسبكم مثالاً على ذلك: مدرس رسم جاءنا به الفرنسيون، وهو ولد خليع ماجن أبوه صاحب خمارة، ولكن الطلاب أَصْلَوْهُ من هزئهم به، واحتقارهم إياه، ناراً دفعه لهيبها إلى باب المدرسة فولى هارباً....

أما مدرس الرسم الذي لا ينسى فهو الأستاذ عبد الوهاب أبو السعود، وما كنا نبالي الرسم، ولا نقيم له وزناً، ولا كان القائمون على التعليم يعدلونه بالعلوم الأخرى، ولكن عبد الوهاب يضطر جليسه أن يباليه وأن يلتفت إليه فكيف بمن هو تلميذه، لقد كان أحد رواد التمثيل الأوائل، وكانت له فرقة للمسرح والموسيقى، أخوه يتولى الجانب الموسيقي منها، وكانت تنازعه فرقة العطري، وما كان أطرف ما يأتي منه حين يذكر له هذا المنافس، فقد كان يمثل كأنه على المسرح، ويأتي بمبالغات وعجائب، ولقد رأيناه في روايات كثيرة مترجمة عن الأدب الفرنسي ممثلاً مجوداً على طريقة يوسف وهبي.

أما في الرسم فأشهد أنه فنان بارع، وهو أول من رسم (من خياله) صورة المعري، وأبي نواس، وغيرهما، وطبعت وتداولها الناس، وله لوحة بارعة لسوق عكاظ كما تخيلها. وكانت في دمشق مجلة هزلية لصحفي (حقيقي) اسمه حبيب

---

(١) ومعنى الكلمة بالتركية العين السوداء أي صاحب العين السوداء. ولخيال الظل في كتب الأدب والتاريخ حديث طويل وقد عرض لذكره الإمام الغزالي وأشهر من كان يؤلف رواياته وينظم أناشيدها ويلحنها ابن دانيال طبيب العيون.

كحالة، هي مجلة (المضحك المبكي) ينشر في كل عدد منها صورة كاريكاتورية، في الموضوع الذي يشغل الناس، تبقى الأسبوع كله حديث البلد، وبطلها تاجر وجيه اسمه أبو درويش سويد، عبقري في ابتكار النكتة، ما رأيت له مماثلاً، ولا في مصر، بلد النكتة كما يقولون.

أما اللغة الفرنسية فقد درسناها كما يدرسها الطلبة الفرنسيون في فرنسا، المناهج هي المناهج، والكتب هي الكتب.

وكان يعلمنا الفرنسية أول عهدنا بمكتب عنبر، رجل فرنسي عجوز له لحية بيضاء طويلة، وهو أحمق لا يضبط صفّاً (أي فصلاً)، ولا يصغي إلى درسه أحد، وكان يسكن الدار المواجهة للمدرسة، يؤذيه الطلاب فيتحمل الأذى صابراً، اسمه المسيو ميشيل.

ثم جاءنا مدرس لبناني نصراني، قصير القامة، غريب الشكل، له شاربان دقيقان مفتولان، يأتيان من تحت منخريه، ويمتدان إلى الأمام، كأنهما رجلا عنكبوت، يخرج صوته من أنفه ويمر على شاربيه، بالكلمة الفرنسية يلحق بها ترجمتها العربية، بصوت ثاقب، كأنه صوت دجاجة جاءت تبيض فعلقت البيضة بـ . . . . أعني بمخرجها منها، ولم يطل بحمد الله، مقامه بيننا، وصرف الله غلاظته عنا.

ثم جاءنا الرجل الديِّن المهذب الأنيق، الذي يضرب بأناقته المثل، الذي يحسن الفرنسية كأحسن أهلها، والذي كان ضابطاً في الجيش العثماني ثم في جيش الشريف الحسين بن علي وبقي معنا حتى خرجنا من المدرسة، وقد توفي من سنتين، هو شكري الشربجي.

وجاءنا بعده فرنسي استعماري جاهل بلسان قومه يبدو أنه من أجلاف الريفيين في فرنسا هو تريس Tresse، وكان يدرس في الفصول الأخرى أستاذ جزائري ندعوه المسيو علي، درست عليه أيام حكم الشريف فيصل قبل ميسلون، وهو رجل رقيق الحاشية، حيي الطبع، مهذب اللفظ، توفي من عشرين سنة، وأستاذ تونسي ندعوه المسيو صالح (بفتح اللام)، بدين نبيل عظيم الشاربين جهير الصوت، ناري الطبع، يؤلف الجملة الواحدة من كلمات

عربية، وكلمات فرنسية يقول (شاكان يقعد في بلاسه واللي يحكي نعمل له البونيسيون) شاكان Chacun أي كل واحد، بلاسه أي محله، البونيسيون Punition أي العقوبة وكانت لهجته تونسية، أخرج طالباً مرة إلى اللوح ليترجم فقال له: (ملك عطش ملقاما) أي ملك عطش ما لقي ماء، سكن حروفها كلها، ودمج كلماتها دمجاً، ووصل أوائل تواليها، بأواخر أواليها[1].

فما فهم الطالب. فغضب وقال: نكلموك بالعربي ما تفهم؟ وقد درسنا قواعد الفرنسية (الكرامير) ولا أزال أحفظ أكثر ما درست، وفقه اللغة Philologie، والتجويد Phonetique، ودرسنا أدبها دراسة عميقة: الأدب الاتباعي (الكلاسيكي) وحفظنا طائفة صالحة من كورناي، وراسين، وموليير ولافونتين، وبوالو، وخطب بوسويه، وأقوال لاروشفوكلد، ولابروير.

ثم درسنا مونتسكيو، وفولتير، وديدرو، وبوفون، ثم درسنا روسو، وشاتوبريان، ولامارتين، وموسه، وصاحبته جورج صاند،[2] وهوغو، ولا أزال أحفظ قصيدته (نابليون الثاني) وكلماته الرائعة لنابليون عن المستقبل. ودرسنا دوماس، وبلزاك وفلوبير وموباسان، ودرسنا مذاهب سانت بوف، وتين، وبرونتيير، في النقد لكن لا تسألوني اليوم عنها، ولا تمتحنوني فيها، فقد مرَّ عليَّ مذ ودعت الدراسة الثانوية، وطويت كتب الفرنسية ثلاث وخمسون سنة[3].

وأنا من الأصل لم أحسن النطق بها، لأني كنت أضن بكرامتي أن أخطىء فيسخر السامعون مني، لذلك أقمت في مصر سنوات (متفرقات)، وفي العراق سنوات، وفي لبنان سنة، ولي في السعودية الآن نحو عشرين سنة متصلة، وما تعلمت في ذلك كله شيئاً من لهجات هذه البلاد، ولا بدلت من لهجتي شيئاً، أما السبب فهو الذي ذكرت.

أما أجل ما استفدته من (مكتب عنبر) فهو التمكن من العربية وعلومها، والعفو منكم فما أقول هذا ادعاءً ولا فخراً، ولكن تحدثاً بنعمة الله عليّ.

---

(١) الأوالي: الأوائل.

(٢) هي أديبة معروفة تسمّت باسم رجل وهو جورج صاند، وكانت صاحبة موسه كتب عنها وكتبت عنه!!

(٣) من سنة ١٩٢٨ إلى الآن.

وأكبر الفضل في ذلك بعد الله للمبارك والجندي.

أُقيمت حفلة تأبين للجندي في جامعة دمشق سنة ١٩٥٥، ألقيت فيها كلمة طويلة، كان مما قلت فيها:

(لقد مضى الرجل الذي لم يبق تحت أديم السماء، فيمن أعرفه أو أسمع به من الناس، من هو أعلم منه بلسان العرب، لغة واشتقاقاً ونحواً وبلاغة وعروضاً ورواية وضبطاً ولا من هو أوفى لها، وأغير عليها. وأنه لم يعد في ديار الشام من أذهب إليه أنا والأفغاني والعطار[1] كلما دهمتنا المشكلات في العربية نحملها إليه ليحل لنا عقدها، وأن علينا بعد اليوم أن نعتمد على أنفسنا، كما يعتمد الضابط على نفسه حين يفتقد القائد العبقري، وسط المعمعة الحمراء، وهيهات أن يسد أحد مكان قائد المعركة بين العربية والعجمة، حجة العرب سليم الجندي).

الثلاثة الذين منَّ الله بهم عليَّ في مكتب عنبر، فقبست منهم وأخذت عنهم: سلام، والمبارك، والجندي،

أما الشيخ عبد الرحمن سلام، فهو الذي (جرأني على امتطاء صهوات المنابر، ومقارعة الفرسان في ميادين البيان) (والذي كان عجباً من العجب، إذا احتاج أن يتكلم في موضوع لم يكن عليه إلّا أن يفتح فمه، ويحرك لسانه، فإذا المعاني في ذهنه، والألفاظ على شفتيه، والسحر من حوله، والأنظار متعلقة به، والأسماع ملقاة إليه، والقلوب مربوطة بحركات يديه. وكان يرتجل الشعر كما يرتجل الخطب، شعراً دون أشعار المطبوعين المجودين وفوق شعر الفقهاء. وكان يرمي الكتاب (كتاب النحو) لا يحفل به. ويتكلم من أول الساعة إلى آخرها في اللغة وفي الأدب وفي كل شيء، كأنه كان يريد أن يربينا على السليقة العربية بالمحاكاة والمران، وينفخ فينا من سحره ليجعلنا أدباء قبل الأوان.

وأما المبارك فما رأيت وما أظن أني سأرى مدرّساً له مثل أسلوبه في الشرح والبيان، وفي امتلاك انتباه الطلاب، وفي نقش الحقائق في صفحات نفوسهم بهذه الضوابط المحكمة العجيبة التي تلخص في جملة واحدة فصلاً من فصول العلم.

---

(١) رحمه الله.

وفي يوم من أيام سنة ١٩٢٣ دخل علينا الشيخ سلام ولكن لا كما كان يدخل كل يوم، وألقى خطبته ولكن لا كما يلقي، دخل حزيناً وألقى خطبة الوداع، ثم ذهب وذهبت معه قلوبنا.

وجاءنا مدرس جديد فقعد على الكرسي، وما كان الشيخ سلام ولا الشيخ المبارك يقعـدان أبداً، وفتح كتابه وجعل يقرر الدرس، بصوت خافت، لا يكاد يسمع، وكان هو الأستاذ سليم الجندي..

... وكانت صدمة، وكانت خيبة للآمال، وكانت فجيعة... ووصل إليَّ (الدور)، فأقامني على اللوح، وأملى عليّ بيتين للمعري، وقال: إقرأ، وفسر، وأعرب.

وانطلقت أخطب في موضوع البيتين خطبة حماسية مجلجلة كما علمنا الشيخ سلام، وإذا بالأستاذ الجديد يبتسم ابتسامة أحسست كأنها كوب ماء على نار حماستي، بل كأنها سكين غرست في قلبي، وقال بهدوئه الساخر، ولهجته التي لها نعومة السكين وحدها، وقال: بعد، بعد، فسر أولاً معاني الكلمات الغريبة. فوقفت، ثم سألني عن دقائق الإعراب فوقفت وقفة أخرى، فقال لي: أرأيت؟ أتبنى الدار قبل نحت الحجارة؟.

ورأيتني حقّاً، أبني الدار قبل نحت الحجارة. أي أبني دوراً في الهواء وصغرت عليَّ نفسي، بمقدار ما كبر الأستاذ في نظري.

وعدت أبدأ قراءة النحو والصرف من جديد، وكان الكتاب الذي نقرؤه هو قواعد اللغة العربية، وهو الجزء الرابع من الدروس النحوية لحفني ناصف وإخوانه، وقد قرأت الأجزاء الثلاثة من قبل.

وهذا الكتاب يغني الطالب بل المدرس بل الأديب، عن النظر في غيره، وهو أعجوبة في جمعه وترتيبه، وإيجاز عبارته، واختياره الصحيح من القواعد، وهو أصح وأوسع من شذور الذهب، ومن ابن عقيل.

وعكفنا عليه وملأنا حواشيه البيض بتعليقات الأستاذ وفوائده، ثم ضاقت عنها، فألحقنا بين كل صفحتين من الكتاب، صفحتين أو أكثر نملؤها بما

نستفيده منه، وعرفنا يوماً بعد يوم مقدار النعمة، التي أنعم الله بها علينا حين جعلنا تلاميذ سليم الجندي.

وكنا نفاخر إخواننا الذين يقرئهم الشيخ الداوودي، ونأتي بالصعاب والمعضلات نتصيدها من كتب الأدب وأفواه العلماء، فنطرحها عليهم فنحظى نحن من الجندي بأجمع الجواب، بلا مراجعة ولا كتاب، ويرجعون هم بلا جواب.

وما انتقص الداوودي رحمه الله فلقد كان معلمًا فاضلاً، وكانت له أخلاق أعطر من زنبق الحقل، وأطهر من ثلج الجبل، وله قلب أثمن من الذهب، ولكنه ليس من بابة الجندي، والذهب ذهب، ولكنك إن قابلته بالجوهرة المفردة، وَارىٰ بريقه حياء.

وأحببت الأستاذ الجندي حب الولد أباه، وعرفت قدره، فكنت لا أكف عن سؤاله، أسأله في الصف، وألحقه في الفرصة، وأدخل معه غرفة المدرسين، أشرب من معين علمه ولا أرتوي، أتزود من هذا المنهل العذب، لسفري الطويل في بيداء الحياة.

أسأله عن الغريب فلا تغيب عنه كلمة منه، كأنه وعى المعاجم وغيّبها في صدره، وأسأله عن التصريف والاشتقاق فيجيب على البديهة بما يعيي العلماء جوابه بعد البحث والتنقيب، وأسأله عن النحو فإذا هو إمامه وحجته، وألقي إليه بالبيت اليتيم أجده في كتاب، فإذا هو ينشد القصيدة التي ينتمي إليها، أو أكثرها ويعرّف بالشاعر الذي قالها.

لقد كان مدرّساً للعربية ولكنه كان أكثر من مدرس، وكان عالماً من علماء البلد بل كان أكثر من عالم، ورب مدرس لا يكون عالماً، ورب عالم لا يكون عالماً إلّا في بلده وبين أقرانه، ورب عالم لا يكون عالماً إلّا بالنسبة إلى عصره وزمانه.

أما الجندي فكان من أعلم علماء العربية في هذا العصر، وكان واحداً من علماء العربية الأولين، ولكنه ضل طريقه في بيداء الزمان فجاء في القرن الرابع عشر، لا في القرن الرابع.

أقرر هذا بعدما مشيت في البلاد، وجالست العلماء، فما ثم عالم مشهور في

العربية، في الشام ومصر والعراق والحجاز والهند وماليزيا وأندونيسيا إلّا عرفته، لقاء به أو قراءة له أو سماعاً به. عرفت في مصر علماء الجامع الأزهر والجامعة والأدباء والكتاب أعني الكثير منهم، وأنا أؤكد القول صادقاً إن شاء الله أني لم أجد فيهم من يفوق في حفظه وضبطه وأمانته وملكته وإحاطته الأستاذ سليم الجندي.

وكشفت فيه يوماً بحر علم لم أكن أعرفه من قبل.

سألته عن مسألة أصولية فإذا هو أصولي، وإذا هو عارف بالفقه راوٍ للحديث عارف بالتفسير.

ومن هنا جاء علمه بالعربية، إن العربية لا تنفصل عن الإسلام.

* * *

أذكر أنه لما قدم علينا حفظنا قصيدة المتنبي: وا حرّ قلباه ممن قلبه شبم. فلما كان الدرس التالي قال لنا: المتنبي شاعر مولد لا يحتج بعربيته، فأعرضوا عن هذه القصيدة، وحفظنا (ولا زلت أحفظ الكثير منه) المنتقى المختار، من شعر الشعراء الجاهليين والإسلاميين، ممن يحتج به في اللغة، وكان ينهانا عن قراءة الصحف والمجلات خشية أن تفسد ملكاتنا، وتدخل اللحن علينا.

جزى الله عني الشيخين المبارك والجندي خيراً، وجزى الخير كل من علمني قبلهما أو بعدهما، فمنهما أخذت جل بضاعتي في العربية.



- ٢٠ -

شغلي الدائم المطالعة

يقرع التلاميذ اليوم أبواب المدارس المتوسطة، وما معهم من العلم إلّا ما كان في كتب المدرسة الابتدائية. وكثير منهم لم يقرأها كلها، أو قرأها ولكن لم يفهمها كلها، أو فهمها ولكن لم يحفظها كلها.

وما ذاك لأنهم أقل منا ذكاءً أو أضعف إدراكاً، بل لأننا كنا أشد منهم رغبة في العلم وتقديراً له، وحرصاً عليه. كنا نفرح إن ازددنا علم مسألة لم نكن نعلمها، وهم يفرحون إن حُطَّت عنهم مسألة كانوا سيكلفون علمها.

ثم إننا لم نكن نجد ملهاة تصرفنا حقاً عن التحصيل، وهم لا يجدون لكثرة الملهيات ووفرة التسليات، وقتاً للتحصيل.

* * *

أنا لما وردت (مكتب عنبر) كنت أحمل مع الشهادة الابتدائية في يدي، ذخيرة من المعلومات في رأسي، لا يقوى على حمل أكثر منها، فتى في سني. وما ألزمتني المدرسة بها، ولا حصلتها فيها، بل جمعتها أو جمعت أكثرها وحدي من خارجها.

لقد قرأت قبل (مكتب عنبر) وفي سنواتي الأولى فيه كتباً لا أكون مبالغاً، ولا مدعياً مغروراً، إن قلت إن في الأساتذة اليوم من لم يقرأها. ذلك أني كنت أمضي وقتي كله، إلّا ساعات المدرسة، في الدار. لم أتخذ لي يوماً رفيقاً من لداتي، ولا صديقاً من أقراني، ولم أكن (بحكم تربيتي ووضع أسرتي) أعرف الطريق إلى شيء من اللهو الذي كان يلهو بمثله أمثالي، فلم يكن أمامي عمل

أنفق فيه فضل وقتي، وأشغل به نفسي، إلّا المطالعة.

وكانت في دارنا مكتبة كبيرة، وهي دانية مني، كتبها كلها تحت يدي، ولم أكن (لشغل أبي عني) أجد من يرشدني ويدلني، لذلك كنت (كما قلت من قبل) أسحب الكتاب لا أدري ما هو، فأفتحه فأنظر ما فيه، فإن لم أفهمه، أو فهمته ولكن ما أسغته، أعدته، وقد علق في ذهني اسمه، وإن فهمته وأسغته قرأته.

وكان أول ما قرأت كتاب (حياة الحيوان للدميري)، وهو كتاب عجيب فيه فقه، بل هو أقرب مرجع لمعرفة الحكم الشرعي في الحيوان الذي يؤكل لحمه والذي لا يؤكل، وفيه تاريخ، وفيه فوائد، وفيه خرافات. ثم قرأت (المستطرف) و (الكشكول) وهما من أدب عصور الانحطاط والتأخر. ثم وقعت يدي على (الأغاني) لأبي الفرج، فعلقت به، وقرأت أكثر أجزائه، لا أزعم أني فهمت كل ما فيه، ولا أني أحطت به، بل أقول: إن الذي فهمته منه نقش على صفحة ذهني. وكنت بحمد الله أحفظ كل ما قرأت، وأكثر ما سمعت، لأن ذاكرتي بصرية M. Visuelle لا سمعية، فأنا يوم الامتحان أذكر مكان المسألة من صفحة الكتاب. وكنت أعرض عن الأسانيد وأتتبع الأخبار، فحفظت من أسماء الشعراء والمغنين والعلماء والرواة الكثير، وحفظت كثيراً من الشعر أخذت بعضاً منه بلا ضبط ولا تحقيق. وقد سمعت أستاذنا الجندي مرة، يروي بيتاً فيه لحن، فأبديت عجبي فضحك وقال: سببه أني حفظته كذلك منذ الصغر!.

ونظرت على مدى سنين، في أكثر كتب اللغة والأدب التي كانت مطبوعة في تلك الأيام. لأن جدي كان مولعاً بالكتب، فلا يسمع بكتاب ظهر إلّا اشتراه وأودعه مكتبته، وتبعه أبي في (بعض) ذلك. وكانت أكثر الكتب عندنا (ميرية) من طبعة بولاق. والكتاب المطبوع في المطبعة الأميرية في بولاق، يباع بأضعاف ثمن المطبوع في غيرها (أي البراني)، ذلك لأن المصحّحين فيها كانوا من أعلام العلماء، وحسبكم أن يكون منهم الشيخ نصر الهوريني، صاحب (المطالع النصرية) أوثق وأوسع كتاب أعرفه في قواعد الكتابة، وكل من كتب فيها بعده، أخذ منه، ونقل عنه، وأجمع كتاب بعد المطالع، هو كتاب (أدب المُمْلي). والشيخ الهوريني المتوفى سنة ١٢٩١هـ. هو شارح مقدمة القاموس المحيط وكان

يحسن الفرنسية، تعلمها لما أُرسل إلى فرنسا إماماً لإحدى البعثات. وتلك سنة حسنة تركناها، هي أن يصحب كل جماعة من المبتعثين إمام يشرف عليهم ويفتيهم.

أما الأدب الحديث فما عرفت منه إلّا ما وجدته في مكتبتنا، وهو ما كتب المنفلوطي رحمه الله وما ترجم له، فصاغه بقلمه صياغة جيدة، ولكنها فصلته عن أصله، وأبعدته عن مراد كاتبه، وشيئاً آخر: مجلداً نادراً ما أحسب أنه بقي منه إلّا نسخ قليلة، هو مجلد السنة الأولى من مجلة (الرابطة الأدبية) التي تألفت في دمشق سنة ١٩٢١. وقد وضعت لها قانوناً صادقت عليه الحكومة في ١٩٢١/٣/١٢ ولا بدّ لمن شاء أن يؤرخ للنهضة الأدبية في سورية من دراسة هذه المجلة.

وكان من أعضاء الرابطة الأساتذة: سليم الجندي، وشفيق جبري، وخليل مردم بك، وعز الدين التنوخي، وأحمد شاكر الكرمي، وزكي الخطيب، وعبدالله النجار، وحبيب كحالة، ومحمد الشريقي، وماري عجمي، وحليم دموس، ونسيب شهاب.

وقد وجدت في المكتبة كتاباً صغيراً، كشف لي طرف الستار عن عالم خفي مثير، هو ما يدعى اليوم (مسائل الجنس)، ولكني ما فهمت عنه من الكتاب إلّا القليل، فأعدت قراءته حتى كدت أحفظ عباراته، ولكني ما جاوزت في فهمه هذا القليل، هو كتاب (البيان في أصل تكوين الإنسان)، مؤلفه العالم الفقيه، والمحامي الوجيه أحمد بك الحسيني وتمنيت أن أجد من يشرحه لي، ولكن أنّى؟!.

جئت (مكتب عنبر) ومعي هذه الذخيرة، ومعي أيضاً ما ألزمت حفظه من المتون: ألفية ابن مالك، والجوهر المكنون، وكفاية الغلام، والجوهرة، وغيرها. وأقول آسفاً إني نسيتها كلها.....

ومعي حصيلة ما كنت أسمعه من أبي ومن أصدقائه وتلاميذه في مجلسه ومجالس إخوانه التي يأخذني معه إليها من الفوائد والفرائد، والطرائف واللطائف، ومجموعة كبيرة من أخبار علماء الشام في القرن الماضي.

وكنت واثقاً من ذاكرتي، فلم أستودع الورق ما قد تضيعه الذاكرة. وكان ولا يزال من عيوبي التأجيل، فكنت أزمع كتابتها ثم أؤجل الشروع فيها، حتى وقع المحذور، فجئت أدونها في هذه الذكريات فإذا أنا قد نسيت ما كنت أحفظه، وأملأ المجالس بروايته. ولم أجد ورقة مكتوبة أرجع إليها... ومع ذلك فإني أشكر الله الذي ألهم الأستاذ زهيراً الأيوبي، إلزامي كتابتها، فلأن أكتب منها أقلها، خير من أن أفقدها كلها.

* * *

مشيت في دراستي من أول يوم في الطريقين معاً... طريقة المشايخ وهي على الأسلوب الأزهري القديم، وطريقة المدارس النظامية التي سلكتها من أدنى الابتدائية إلى أعلى الجامعة، وأخذت من الاثنين خير ما وجدته فيهما، ولكن الذي كان أجدى عليّ، وأنفع لي منهما، أو هو في النفع مثلهما، هو المطالعة.

فإنا اليوم، وأنا بالأمس، كما كنت في الصغر، أمضي يومي أكثره في الدار أقرأ، وربما مر عليّ يوم أقرأ فيه ثلاثمئة صفحة. ومعدل قراءتي مئة صفحة، من سنة ١٣٤٠ إلى هذه السنة ١٤٠٢هـ.

اثنتان وستون سنة. احسبوا كم يوماً فيها، واضربوها بمئة، تعرفوا كم صفحة قرأت. أقرأ في كل موضوع، حتى في الموضوعات العلمية، بل والفنية والموسيقية. هذا غير النظر في الجرائد والمجلات.

وقد قابلتنا المشاق أول عهدنا (بمكتب عنبر)، لأننا كنا في مطلع العهد العربي ولم تكن لدينا كتب عربية مطبوعة، فكنا نصنع شيئاً لا يعرفه، بل لا يتصوره الطلاب اليوم، هو أننا كنا نأخذ أمالي المدرسين ممن سبقنا من الطلاب، فننسخها بأيدينا. ولقد كتبت آلافاً (آلافاً حقيقة لا مبالغة) من الصفحات، في التاريخ القديم والأوسط والحديث والجغرافيا: الطبيعية والسياسية والاقتصادية، والكيمياء المعدنية والعضوية، والفيزياء، وعلم الحيوان والنبات والجبر والمثلثات والهندسة المسطحة والفراغية والنسبية، وسائر العلوم. فضلاً عن الفرنسية التي كنا ندرسها كما يدرسها الفرنسيون في بلادهم: المناهج هي المناهج، والكتب هي الكتب...

سهرنا الليالي الطوال نكتب، ما يجده الطلاب اليوم مطبوعاً أجمل طبع، موضحاً بالصور والخرائط، في كتب توزع عليهم (هنا في المملكة) بلا ثمن.

ولقد شهدت في السنة الأولى من (مكتب عنبر) شيئاً لم أر مثله من قبل...

رفض الطلاب يوماً الدخول إلى غرف الدراسة، وعمَّ الهرج والمرج والصياح، وأنا مثل الأطرش (أي الأطروش)[1] في الزفة، يرى ولكن لا يسمع ما يقال. وأنا أرى وأسمع ولكن لا أفهم ما القصة!

رأيت حركة: ناساً يدخلون وناساً يخرجون، ورجال يأتون إلى المدرسة يحاولون تهدئة الطلاب ثم يرجعون.

وكنت صغيراً مبتدئاً فلم أدر ما الذي يجري، ولم أسأل لأني من تلك الأيام متوحد منفرد، لا أعرف أحداً من الطلاب الكبار لأسأله، ورفاقي الصغار مثلي، لا يعرفون، ثم فهمنا أن الثورة قد نجحت وأن المدير قد ذهب، وتولى الإدارة المفتش العام للمعارف في سورية، المربي الكبير، أستاذنا في السلطانية الثانية على عهد الشريف الأستاذ مصطفى تمر.

وكذلك نرى في كلِّ يوم دليلاً جديداً على أن هذه الأمة، أمة محمّد، والشعب العربي منها على التخصيص، لا تؤخذ بالعنف، ولا تصبر على الضيم، وإن هي اضطرت إلى الصبر حيناً فستثور عليه حتماً. فإن هي ثارت فلمن ظلمها الويل، لأنها لا تبالي حينئذ بشيء، ولا يقف أمام ثورتها شيء، لأن الحق معها، ومن كان الحق معه فإن الله معه، ومن كان الله معه لم يغلب أبداً.

الحق لا يهزم، والإسلام لا يذل، وأهله هم أصحاب العزّة. ولكن الله يمتحنهم، لتقويهم المحن، أو يؤدبهم في الدنيا ليُضْعِف لهم الأجر في الآخرة، أما الخاسر فهو الظالم وإن له في الدنيا الويل، والذي ينتظره بعد الموت يجعله يتمنى هذا (الويل)!.

* * *

---

(١) الزفة عربية فصيحة، والطرش والأطروش عربية مولدة.

مصطفى تمر، كان من أجل رجال التربية الذين عرفتهم ديار الشام. وكان الركن الركين في المعارف، العالم المتمكن، المفضل على أكثر المعلمين في ذلك العهد. لما مات لم يمش في جنازته عشرة رجال!!.

رحمه الله، فإن دعوة بالرحمة لمؤمن مات، من مؤمن ينتظر الموت، أجدى عليه من حفلات التأبين، وقصائد الرثاء، وكل ما يتوهم الناس أنه الطريق إلى تخليد ذكرى العظماء. كل ذلك زائل، ولا خلود إلّا للمؤمنين في الجنة، وللكفار في النار.

اللهمّ بفضلك ورحمتك ـ لا بعملي ـ أجرني من النار وأدخلني الجنة، أنا ومن قال: آمين.

* * *

كانت (وزارة) المعارف كلها، في أربع غرف كبيرة، من قصر الحكومة (أي السراي): غرفة الوزير، وغرفة فيها الأستاذ شفيق جبري، شاعر الشام وكان في منزلة الأمين العام للمعارف، (أي وكيلها) والأستاذ مصطفى تمر المفتش العام، وغرفة (كبيرة تقسمها إلى غرف صغار، حواجز من الخشب) فيها الديوان، ورئيسه الأستاذ عبد النبي القلعي، والمحاسبة، ورئيسها الأستاذ مصطفى القباني، وغرفة مثلها للمستشار، وكان معاونوه كلهم من النصارى، وما كان ذلك اتفاقاً بل كان شيئاً مقصوداً، وكان مستمراً في كل حين، ومع كل حاكم أجنبي أو ماش على مذهب الأجنبي، رئيس ديوانه اسبرزمباكوس، وترجمانه ميشيل السبع.

وكان مجموع العاملين في المعارف أحد عشر فقط، ومعهم المستشار الفرنسي الذي كان هو الوزير الحقيقي وهو الآمر الناهي، وأعوانه النصارى.

* * *

أقام معنا الأستاذ مصطفى تمر قليلاً، حتى إذا هدأت الحال، كلف بإدارة المدرسة أستاذنا جودة الهاشمي، وهو جزائري الأصل، ثم عين لإدارتها جزائري آخر أستاذ رياضيات قديم أسن من جودة بك ولعله كان (كما سمعنا) أستاذه، فأدارها حتى خرجت أنا منها.

وكان للمدرسة (مدير ثان) يأتمر بأمر (المدير الأول) ويتولى الأعمال الإدارية، وكان المدير الثاني عند دخولي المدرسة الدكتور كامل نصري، ثم الأستاذ عبد الفتاح ملحس، وهو فلسطيني، وهو أخو الأستاذ رشدي ملحس، ثم الأستاذ عبد الرحمن السفرجلاني، ابن الشيخ عيد السفرجلاني. وكان الأستاذ عبد الرحمن شيخ المعلمين بعد الأستاذ سعيد مراد، الذي كان مديرنا في السلطانية الثانية سنة ١٩١٨.

عاش الأستاذ عبد الرحمن حتى رأى من تلاميذه من جاوز السبعين، ومن وصل إلى أعلى المناصب. ولقد كنت مرة في زيارة شيخ قضاة سورية، الأستاذ مصطفى برمدا، رئيس محكمة النقض، وكان عنده الأستاذ عبدالرحمن، والأستاذ جميل الدهان المدير العام للأوقاف في سورية، وكان الحديث عن أيام المدرسة، واشترك فيه الثلاثة، فقلت: هل كنتم في مدرسة واحدة؟ قال الأستاذ عبد الرحمن: نعم. قال مصطفى بك: نعم، ولكنا كنا تلاميذ وكان هو أستاذنا.

ودخل فجاء بصورة قديمة فيها الأستاذ عبد الرحمن قاعداً مع المدرسين وله شاربان كبيران، وهما مع التلاميذ.

ومن تلاميذه: شكري بك القوتلي الزعيم الوطني ورئيس الجمهورية.

رحم الله الجميع، وقواني على إكمال هذا الحديث، وأعان القرّاء على احتماله.

- ٢١ -
ثورة في المدرسة

مرّ على دخول الفرنسيين دمشق أربع سنين، وجاءت الخامسة، وكانت دمشق كالحطب الجاف ينتظر أن تلامسه النار ليشتعل. ومن شأن الحطب الجزل أن يبطىء دخول النار فيه ويبطىء خروجها منه، فلا بدّ لاشتعاله من أعواد صغار، أو حزمة من القش، وكان الطلاب بمثابة هذه العيدان وطلاب (مكتب عنبر) على التخصيص. ففي سنتنا الأولى فيه كانت الفورة (ولا أقول الثورة) على المدير الأميرالاي أي الكولونيل سابقاً في الجيش العثماني شريف بك رَمُو، وكانت محدودة بجدران المدرسة لم تجاوزها.

وفي الثانية (وكنت في الصف الثامن) كانت فورة أكبر، خرجت من المدرسة، فامتدت واتسعت حتى شملت البلد كله، وشارك فيها أهله جميعاً وكانت الحلقة الأولى في سلسلة النضال للاستقلال التي بدأت بهذه المظاهرة[١]، ثم تعاقبت فيها المظاهرات، ثم كانت الثورة الكبرى، ثم عدنا إلى حرب الشوارع، وسلاح الاضرابات، والاضطرابات، حتى كان الجلاء التام.

أقصد جلاء الأجنبي بجيوشه عنا، حتى لم يبق له جندي واحد يخطر على أرضنا، ولا قلعة مدافعها موجهة إلينا، ولا راية ترفرف فوق رؤوسنا. تم هذا الجلاء، ولكن لم تجل أفكاره عن رؤوس أولادنا، ولا مبادئه عن أحزابنا، ولا مناهجه عن مدارسنا، ولا قوانينه عن محاكمنا.

---

(١) بل كانت قبلها حلقة يوم وصلت دمشق بعثة كراي الأميركي لتقصّي الحقائق ولم أشهدها ولكن سمعت خبرها.

وهذا هو الاستعمار الذي يهون معه استعمار الديار. إن البذور التي بذرها المستعمر قبل رحيله أنبتت نباتاً لم نذق مثل مرارته أيام الاستعمار، كأنّ ما أبقاه فينا بعد نزوحه عنا أشد علينا مما حمله معه لما جاءنا.

فكيف أخرجت أرضنا السم الذي يودي بنا؟ كيف رأينا ممن خرج من أصلابنا من هو أنكى علينا من عدونا؟.

دعوني أقل كلمة ليست من الذكريات، لقد رأيت في هذا العمر الذي عشته من تبدل الدول، وتحول الأحوال، ما هو عبرة من العبر، لمن شاء أن يعتبر، إنه ما مر بنا عهد على كثرة ما مر من عهود، إلّا بكينا فيه منه، وبكينا بعده عليه!.

أفقدر علينا أن نستكبر الشر فنأباه، ثم نرى ما هو شر منه فنطلبه فيأبانا؟.

استكبرنا التقسيم في فلسطين، ثم رأينا ما هو أكبر منه فطلبنا التقسيم، وأبينا ما كان قبل سنة ١٩٦٧، ثم عدنا نطالب بإزالة آثار العدوان، والعودة إلى ما قبل ١٩٦٧، وأمثله كثيرة على هذا الأصل.

هذا واقع السياسة، وموقف أهلها، أما نحن، نحن المسلمين، فلا نهن وإن مسّنا الضر، ولا نحزن وإن حاق بنا الأذى، ولا نساوم في دين الله ولا نوالي عدو الله، ونؤمن بأن الله الذي نزَّل الذكر هو الذي يحفظه، وأن العاقبة للتقوى، لا نرتاب بديننا، ولا نشك بوعد ربنا.

* * *

نحن في سنة ١٩٢٥ والبلاد تتمخض بالثورة، وكأنها (برميل) بنزين: نار كامنة لا تحتاج لتظهر إلّا إلى شرارة، نفوس متوثبة مستعدة للهجوم لكنها ترقب الإشارة.

وجاءت الإشارة، لا الإشارة للثورة فلم يئن أوانها، بل لإحدى مقدماتها. . . .

هل تعرفون قصة المحتال الذي وجد غنياً مغفلاً، فأحب أن يسلبه ماله فباعه الأهرام؟.

لقد اشتهرت القصة حتى جعلوا منها مسرحية!.

إنه مجرم، باع شيئاً لا يملكه، وأخذ به ثمناً لا يستحقه. والذي اشترى أحمق لأنه ظن أنه ملك الشيء الذي اشتراه ممن لا يملكه... ربما كانت القصة مكذوبة متخيلة، فما تهمني صحتها، ولا جئت أحقق خبرها، بل جئت أروي قصة مثلها، من نوعها وجنسها، ولكنها أكبر منها، وأشد ضرراً وأعمق في الشر أثراً، وهي بعد صحيحة لا يجادل أحد في صحتها.

قصة رجل، وهب أرضاً لا يملكها هو، ولا أبوه، ولا قومه، لمجموعة من اللصوص الأشرار، ما لهم فيها ذرة من الحق... ولا كهرب واحد (ألكترون) من كهارب الذرة الواحدة.

وهب فلسطين لليهود الملاعين!.

وإن قلت ملاعين، فما أشتمهم، بل أصفهم بما خبر ربنا أنه فيهم ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل، على لسان داود وعيسى بن مريم﴾.

لعن الذين كفروا نبيان من أنبيائهم، وكل ما بقي من بني إسرائيل اليوم، هم من الذين كفروا، لأن القاضي الذي يحكم بقانون أبطل أو عُدِّلَ، ويرفض التعديل الذي أمر به من وضع القانون، هذا القاضي ينزلونه من قوس المحكمة، إلى قفص المتهمين.

وكذلك، كل من اتبع شريعة رسول، بعث الله رسولاً بعده يعدلها أو يبطلها.

وصول هذا الرجل واسمه (بلفور) إلى دمشق، كان الشرارة التي فجرت برميل البنزين.

ما كان جمهور الناس يعرف بلفور الوزير البريطاني، ولا وعده الذي تحمل دولته وزره. وما كانت قضية فلسطين قد ظهرت وعرفت وصارت القضية الكبرى. الذي عرف قصة هذا الوعد الآثم هم طلاب (مكتب عنبر). لقد

تساءلوا، من الذي أعطى هذا الرجل حق التصرف بفلسطين؟ كيف سوغ له هذا شرفه إن كان له شرف؟ كيف برّره له عقله، وله ولا شك عقل؟.

وغضب الطلاب، وزاد غضبهم أن هذا الرجل سيزور الجامع الأموي . . .

كلا، هذا لن يكون، وخرجوا بالمظاهرة، وانشطرت المظاهرة شطرين، أما أحدهما فذهب إلى الأموي فأغلق أبوابه كلها، وأما الآخر فتوجه إلى الرجل في فندق فيكتوريا، الذي كان مقابل المصرف، على الضفة الأخرى من بردى، فذهب الفندق ومشى فوق رفاته شارع، وركب ظهر الشارع جسر يمر عليه الناس والسيارات. ودفن تحته أشهر فندق عَرَفته دمشق (أوتيل فيكتوريا) على اسم ملكة الإنكليز العجوز.

* * *

لا تسألوني أين كنت في ذلك اليوم؟ وأين أنا من أحداثه؟.

إن جوابي ليس في مصلحتي، إنني لم أكن في العير ولا في النفير، لا في (القافلة) ولا مع المقاتلة.

لماذا؟ لأنني (صدقوني) لم أكن أدري بشيء من كل ما حدث!.

ومن أين أدري وأنا أعيش بين بيتي ومدرستي، ما لي صديق أسأله، ولا عندي صحيفة أقرؤها، ولا كان في الدنيا إذاعة أسمعها.

لذلك ذهبت إلى المدرسة كما كنت أذهب كل يوم، فلم أجد فيها أحداً فعجبت. وقرع جرس الدخول إلى الصف فدخلت وكنت وحدي، وجاء المدرس لأنه لم يكن يستطيع ألّا يجيء، ونظر إليّ ووجهه ينطق بالازدراء لي.

أنا وعدت في مقدمة هذه الذكريات أن أقول الحق، أقوله بلا تزيد إن كان لي، وأقوله بلا تردّد إن كان عليّ.

لقد كان الحق مع المدرس أن ازدراني.

كيف لا يُزدرى طالب يخالف إخوانه كلهم، ويتجاهل موقف أهل بلده جميعاً؟.

من يصدق أنني لم أدر بشيء؟ من يصدق؟.

وخرجت أجر رِجليّ، فوجدت باب المدرسة مفتوحاً، فخرجت، وكانت سوق الحميدية مغلقة ما فيها أحد، ووصلت إلى شارع النصر - شارع جمال باشا - الذي لم يكن في دمشق شارع غيره، فصرت في وسط اللُّج....

بحر من الناس تلتطم أمواجه، يهجمون، يرجمون الجنود بالحجارة، ولقد رأيت رجلاً أمسك بحجر ربما زاد وزنه على كيل، فقذف به من فوق الشجرات الكبار التي كانت في الشارع....

... فإذا كر عليهم الجند فروا، فإذا ولوا رجعوا، فدخلت بين الناس عليّ أعتذر أمام نفسي، بأني شاركت الناس فيما هم فيه.

* * *

كان ذلك سنة ١٩٢٥، فاسمحوا لي أن أقفز إلى الأمام أربعة أعوام، لأني لا أحب أن أدعكم اليوم وهذه الصورة هي صورتي في نفوسكم، إلى سنة ١٩٢٩ وأنا يومئذ في شعبة الفلسفة، وقد نجحت في امتحان البكالوريا.

بقيت على عزلتي إلى تلك السنة، فجئت يوماً فخبرت أن جماعة من الطلاب منهم أخونا الشاعر أنور العطار، رحمه الله، قد طردوا من المدرسة ثلاثة أيام، لأنهم خالفوا أمر المراقب وسهروا محتفلين بليلة النصف من شعبان، فلم أبال بالأمر، ولم يباله إخواني، لأن العقاب طفيف، والسبب هين، والاحتفال بليلة النصف من شعبان لم يأمر به الدين، ولم تجرِ به السنّة.

ونمت في موعدي لا أفكر في ذلك، حتى إذا كان السحر، فإذا أنا بفكرة تسيطر عليَّ بلغ من قوتها أن أيقظتني من منامي. هي أن أذهب إلى المدرسة صباحاً فأنتظر قرع الجرس للدرس، فإذا قرع وقفت على واحد من هذه المقاعد المحيطة بالساحة، فخطبت أدعو إلى الإضراب أو يعاد من طُرِدَ من الطلاب.

وصليت الفجر ولبثت قاعداً أرقب طلوع النهار، فما كاد يطلع حتى وليت وجهي شطر المدرسة، ولم يكن لي أب استأذنه، فقد توفي أبي قبل تلك السنة، ولم يكن لي أخ كبير أستشيره. وكنت أصدر عن رأي نفسي وحدها. ووجدت

باب المدرسة مغلقاً لمّا يفتح، فمررت برفيقي محمد الجيرودي (المحامي) وكان يسكن بجوار المدرسة، فأمضيت عنده ساعة، وخضت معه في كل حديث، ولكنني لم أعرج على ما في نفسي، ولا أشرت إليه، وذهبنا إلى المدرسة معاً، فلما قرع الجرس، وهمّوا بالدخول وقفت فخطبت، وهيجت وحمست، ودعوت إلى الإضراب.

فاستجابوا جميعاً، لا لما ألقيت عليهم، بل لما كان من الاستعداد في نفوسهم، فقد كانوا يلبون أن دعوا بهمسة يهمس بها صاحبها ويختبىء، فكيف وقد دعوا (لأول مرة) بخطبة معلنة يلقيها صاحبها ويقف؟.

ذلك لأنها كانت أيام نضال، وكانت الأمة كلها كالجنود في الثكنة، ينامون على استعداد، ويقومون على استعداد، لا يسمعون صوت الداعي، حتى يفزعوا إلى أسلحتهم ويهبوا سراعاً إلى صفوفهم، فلا ترى البلدة هادئة مفتحة أسواقها حتى تسمع من كل دكان صوت الغلق ينحدر، وترى المظاهرات قد قامت، ودبابات الفرنسيين قد نزلت، والمعارك قد ابتدأت.

لم يكن مكتب عنبر في الحقيقة مدرسة، بل كان يومئذ مجمع الشباب المثقف، ومصدر كل حركة وطنية، وكان لب البلد.

وكانت الاضرابات تعد في الخفاء لئلا يعرف من دعا إليها فيعاقب، فلما رآني الطلاب أجهر وأعلن، لا أختفي ولا أتوارى، عجبوا مني، وأعجبوا بي. وصرت في لحظة زعيم المدرسة[1].

وجربت الإدارة الترغيب والترهيب، ولجأت إلى الوعيد والتهديد، ونزل المراقب، ثم المدير الثاني، ثم المدير الأول والأساتذة، فكنت أرد على كل محاولة بخطبة جديدة، فوجدوا الأمر أصعب مما كانوا يقدرون ويعرفون، فخبَّروا الوزارة.

فجاء مدير المعارف الأستاذ شفيق جبري، فألقى كلمة أدبية بليغة،

---

(١) من مقدمتي لكتاب (مكتب عنبر) تأليف الأستاذ ظافر القاسمي. وقد توفي سنة ١٤٠٢ وهو أصغر مني سناً، وكان في المدرسة بعدي بسنوات.

ورددت بكلمة أذهبت أثرها، ثم جاء الوزير نفسه، وكان أستاذنا الكبير محمد كرد علي، فصحت به من مكاني: يا معالي الوزير. فمضى قدماً ولم يلتفت إليّ.

فأعدت النداء فما وقف. فأسمعته كلاماً استوقفه، ثم حول وجهه إليَّ فسمع مني، وأجابني.

وكنت يومئذ في قمة القدرة على الخطابة والارتجال، لا أحتاج إلّا إلى ابتداء الكلام حتى تنثال عليّ المعاني، وتزدحم الخواطر، وينطلق اللسان يعبر عنها ببليغ الكلام.

وكنت يومئذ، فتيّ الذاكرة، كثير المحفوظ، لم تضعف ذاكرتي الأيام، فكانت كل خطبة كأنها قطعة أدبية من الأسلوب الفحل، تفيض بالآيات والشواهد والأمثال، فضعف مع الأيام جناني، وكَلَّ لساني، على أن فيّ بحمد الله بقية (لا تزال) تسر الصديق، وتكبت العدو[1].

... وفتح باب المدرسة، فخرجت وخرجوا ورائي، وكان حولي فئة من الشباب الأقوياء، والحارس الخاص عبد الستار العلمي (الدكتور الذي كان هنا، رحمه الله) وكان معي من يحمل سلمًا قصيراً، فحيثما تجمع الناس صعدت عليه فخطبت.

نفذنا إلى سوق الحميدية، فالسنجقدار، فالمرجة، فإلى قصر الحكومة، وحيثما مررنا، أغلقت المخازن ومشى الناس وراءنا، حتى أحاطت جموع لا يحصيها العاد بالقصر، والبلدية القديمة، وإدارة الشرطة.

وصعدت على العمود التذكاري، أمام قصر الحكومة، أخطب وأنادي رئيس الحكومة، ففتح باب الشرفة الكبيرة، وأطل منها علينا، وكان الرئيس الشيخ تاج الدين ابن الشيخ بدر الدين الحسني، وكانت خطبة كلماتها من نار الحميم، وأسلوبها من هبّة العواصف.

سقى الله تلك الأيام...

---

(١) من مقدمة (مكتب عنبر) وبقية الكلام هناك.

لقد أسكرني هذا الفوز، فكدت أتدحرج فأنحدر في هذا الطريق، لولا أن تداركني الله فأراني عـاقبته، لقـد اغتررت بـالحلاوة في أعـلى الكأس، فأذاقني الله طعم المرارة في أواسطها وفي قعرها.

وعد الشيخ تاج، وهدّأ، وشجّع، بل وشكر. فلما تفرق الجمع وصرت وحدي أمسكوا بي فلم أنتبه إلّا وأنا في حاشرة (زنزانة) طول أرضها متر، وعرضها متر، وحيد فريد، ليس حولي من أخطب له، ولا من يصفق لي، لا أستطيع أن أضطجع، ولا أن أمد رجلي، وليس من حولي إلّا جدران مغلقة، ليس لها نافذة، ولا معي فيها أحد.

فقعدت أفكر.

كنت في أول النهار طالباً مغموراً يمشي في جماعة الناس، لا يعرفه أحد، فيضره أو ينفعه، فما جاء الظهر حتى صرت علم البلد، وأضحيت ملء الأبصار والأسماع. فما صار العصر حتى كنت سجيناً ذليلاً مسلوب الحرية، معرضاً للأذى.

هذه هي حياة السياسيين المغامرين: يوم في الذروة ويوم في الحضيض، يأكلون يوم السبت (البقلاوة)، ولا يجدون الأحد ولا الخبز اليابس. إنهم كالذي يحتل مقعداً في الصف الأول من المسرح، إنه أكبر، والمنظر فيه أجمل ولكن ليس له رقم، ووراءه من ينتظر غفلته، ليرميه عنه، ويحتله دونه.

أفليس خيراً منه، مقعد في الصف الثاني، ولكنه مرقم، محفوظ، إن قمت عنه، رجعت إليه، فوجدته.

وقررت من ذلك اليوم أن أقعد في الصف الثاني.

- ٢٢ -
صفحة جديدة في سِفْر حياتي

دخل علينا شعبان ١٣٤٣، ونحن في الدار الثالثة التي استأجرها والدي في الصالحية، وكانت من الدور الواسعة، فيها غرف كثيرة، ولها (إيوان) وطبقة عالية لقضاء الشتاء، وكانت أعلى من نهر (يزيد) فلا يصل ماؤه إليها. ومياه (الفيجة) في السبل العامة فقط ـ لم تكن قد جُرَّت إلى البيوت ـ فكانت البيوت تستقي من آبار يصل إليها الماء من نهر (يزيد) والناس يسحبون المياه من الآبار بالمضخات، وكان في ضخِّها تقوية لعضلات اليد، ورياضة ونشاط للبدن. ولكن أبي كان يريد الراحة لأسرته، فما كاد يسمع بوصول المحركات الكهربائية إلى دمشق، حتى كان أول محرك (موتور) مركباً في دارنا، اشتراه من السيد جمال القاري. وكان من يزورنا من الرجال والنساء، يتعجبون منه، لأنهم لم يكونوا قد رأوا مثله.

وكنا نستعد لرمضان، لأن الضيوف يزدادون في رمضان، ونحن لا نكاد نخلو منهم سائر أيام السنة، وقلما كان والدي يأكل وحده، أو يأكل مع أهله، لا في الفطور ولا في العشاء، وما كان يمر يوم لا يزورنا فيه عماي (أعني خالَي أبي وكنت أناديهم بالعمين)، وأبناء أحدهما وبعض تلاميذ أبي أو بعض أصحابه، فلا ترى إلّا (صواني) الطعام داخلة إلى المجلس، في وقت الطعام وفي غير وقت الطعام... وكانوا يمدّون السماط ويأكلون على الأرض، أما الشاي فلا ينقطع فينصب (السماور) ويقوم أحد الضيوف بإعداده.

وكان عمي الشيخ عبد القادر رحمه الله (يلقم) الشاي الأخضر، وما كنا

نشرب غيره، ثم يذوقه، فيعدله ثم يذوقه، حتى إذا ذهب نصف (البراد) زاده ماء، وقدمه للحاضرين. . . .

وكانت الدار مفروشة فرشاً دون فرش الأغنياء، ولكنه فوق فرش الأوساط من أمثالنا. والخير كثير، والمؤونة والفاكهة و(النقل) لا تأتي إلاّ بالأكياس أو الصناديق.

وما مضت من شعبان إلاّ أيام حتى مرض أبي، وكان ضعيف الجسد، أما صحتنا (أنا وإخوتي) فبفضل من الله أولاً وأخيراً، ثم بالإرث من جدي[1] وقد كان قوياً بالغ القوة، متين البنيان، ومن أمي وكانت بحمد الله صحيحة الجسم، ما رأيتها مرضت يوماً.

وما كان في دارنا تلك على سعتها غرفة تملؤها أشعة الشمس، وهو محتاج في مرضه إليها، فجاء أحد تلاميذه وهو السيد كامل بكر، فأخذه إلى داره وهي قريبة منا يمرضه فيها.

وكان تلاميذه: الشيخ هاشم الخطيب، وأخوه الشيخ عبدالرحمن، والشيخ محمود العقاد، والشيخ محمود الحفار، وأخوه الشيخ عبدالرزاق، والشيخ عبد الوهاب دبس وزيت، وبعض من إخوانه: كالشيخ موسى الطويل، وبعض تلاميذه في التجارية من الأطباء: ابن خاله الدكتور طاهر الطنطاوي، والدكتور سهيل الخياط، والدكتور محمد سالم، وبعض من كان معه في ديوان المحكمة، كالأساتذة: صبحي القوتلي، ومحمد علي الطيبي، وعارف حمزة، وإبراهيم السيوفي.

كل هؤلاء، ومن نسيت أكثر ممن ذكرت، لم يكونوا يتركونه، بل كانوا يوالون عيادته، وكانوا يسارعون عن حب ووفاء إلى إجابة طلباته، ويتسابقون إلى تحقيق رغباته، وكذلك كان طلبة العلم مع مشايخهم، فجزاهم الله (وقد مضوا جميعاً إلى رحمته) أفضل الجزاء.

* * *

(١) إن صح قانون (ماندل) في الوراثة.

وجاء يوم العشرين من شعبان.. جاء اليوم الذي بدل مسار حياتي.. كنت أمشي في طريق ممهَّد إلى غاية واضحة، فتفجرت قنبلة، فطمست معالم الطريق، فإذا أنا في قفرة لا أدري من أين أمشي فيها، ولا إلى أين...

كنا في خيمة تسترنا عن العيون، وتظللنا من الشمس، وتدفع عنا لفح الحر، ولذع البرد، وعصف الرياح، فكسر عمود الخيمة فانحطت فوق رؤوسنا، فلما خلصنا منها، إذا نحن مكشوفون، معرضون للأخطار، تأكلنا الأنظار، فلا تحمينا درع، ولا يسترنا ستار.

في يوم عشرين من شعبان سنة **١٣٤٣** مات أبي.

كلكم يعرف معنى كلمة (مات)، لأن كل حي إلى ممات، وما من أحد إلّا شهد موت عزيز، أو فقد حبيب، أما جملة (مات أبي)، فلا تعرفون ماذا كان معناها عندي.

كان معناها أن هذه الدار الفسيحة لم تعد دارنا. أن هذا الفرش كله، وكل ما في الدار لم يعد من حقنا، ذلك لأن تركة أبي (رحمه الله) كانت رقمًا كبيراً كان يعد في ذلك اليوم ثروة، ولكنه رقم علينا لا لنا، إنه رقم الديون التي كانت عليه، لا المال الذي كان له.

كان (رحمه الله مرة ثانية، ورحمه ألف مرة) يستدين ليوسع على عياله، ويوفي كل ديونه. ما كان يظن، ولا نحن نظن، أنه سيموت شاباً، لم يجاوز عمره ستاً وأربعين سنة، وكان قادراً على وفاء الدين من مرتبه الكبير، لو مد الله في أجله، ولكن حكمة الله أعلى، وحكمه أمضى.

* * *

يقال إن المصيبة تبدأ كبيرة ثم تصغر.

وهذا الكلام صحيح من وجه واحد، وغير صحيح من تسعة وجوه. إنها تصغر بالنسيان، والنسيان من أعظم نعم الله على الإنسان، ولكنها تكبر كلما ظهر أثر من آثارها، والآثار لا تظهر دفعة واحدة، بل تظهر تباعاً، وكلما بدا أثر جديد جدد وقع المصيبة.

لم أدرك أول يوم مقدار ما ألمَّ بنا، ولم أفكر فيه لأني لم أجد وقتاً للتفكير. كنت كالضائع في الزحمة، لا أحس بنفسي، ولا يكاد يحس بي من كان حولي.

من أين اجتمع هؤلاء الناس كلهم؟ لقد ضاقت بهم الدار، وضاقت دور الجيران التي فتحوها لهم، وكذلك كنا في الأفراح وفي الأتراح، كانت أخوة، وكانت اشتراكية صادقة، لا اشتراكية المذهب أو الحزب، بل اشتراكية الفطرة السليمة، التي يوجهها الإسلام.

وكنت يومئذ كالذي تصيبه ضربة على رأسه فيفقد شعوره، كنت أنظر ولكن لا أرى، وأتحرك ولكن لا أفكر.

لم أعلم كيف غسلوه، ولا كيف كفنوه، ما دعاني أحد لأرى، ولا حاولت أن أرى من غير أن أُدعى. كنت أمشي من هنا إلى هناك. ثم أعود إلى حيث كنت، لا أهدأ، ولكني لا أعمل شيئاً، حتى سمعت النداء بـ (لا إله إلّا الله)، وكانت تلك علامة سير الجنازة.

مشيت مع الناس، كان الناس يملؤون الطريق كله، فلا أعرف أول الموكب من آخره. مشى الناس على أقدامهم من الصالحية إلى مقبرة الدحداح، في حينا القديم، في طرف العقيبة، وكانت آخر البلد ما بعدها إلّا البساتين، فصارت اليوم في وسطه.

من الصالحية إلى المقبرة أربعة أكيال، امتلأت كلها بالناس، وكلما تقدمت قليلاً، انضم إليها ناس جدد. يسألون: من الميت؟.

فإذا قيل: الشيخ مصطفى الطنطاوي، قالوا: رحمه الله، ومشوا فيها.

ما كان من رجال السياسة، ولا من أهل الرياسة، ولا من ذوي الجاه والسلطان، ولا من الأكابر والأعيان، ولا من الأدباء ولا من الخطباء، ما كان إلّا عالماً ومعلمًا، ولكنها محبة وضعها الله له في قلوب الناس.

وما كنت أعلم أن له في قلوبهم هذه المحبة حتى مات.

* * *

رجعنا من المقبرة وأنا لا أزال في دهشة المفاجأة، ثم بدأ توافد الناس

علينا، الباب مفتوح، والغرف كلها معدة، وصحن الدار الواسع صفت فيه الكراسي، لا أدري من أين جاءت.

وكل ذلك ممتلىء بالناس، يخرج قوم فيدخل مثلهم، أعرف منهم واحداً وأجهل التسعة....

... حتى انتهت أيام التعزية، وختم موسم الكلام، والكلام ولو كان حلواً ولو كان بليغاً، لا يكلف مالاً. وذهب كل من المعزين إلى داره، وبقينا وحدنا نواجه أول آثار الحادث.

كنت في أول السنة السابعة عشرة من عمري، ولكن لا مال لي ورثته ولا مورد لي أنفق منه، وأنا أكبر إخوتي، أما عماي (أعني خالَي أبي) فما كانا، رحمهما الله، ممن يمد يده إلى كيسه يخرج منه ما يقدمه إلينا، وإن كان في الكيس ما يخرجان منه لو شاءا. أما عمي الأكبر فما زاد على حلو الكلام، دفعه إلينا.... ومضى، وأما الأصغر فقد أعاننا (جزاه الله خيراً) بجهده لا بماله. استخرج لأبي معاشاً تقاعدياً، كان ضئيلاً، لأن مدة خدمته الحكومية (أميناً للفتوى، ومفتياً في السويداء، ثم رئيس ديوان محكمة التمييز) لم تكن طويلة، وتولى بيع كل ما كان في الدار من فرش وأثاث وبيع المحرك (الموتور)، ولم يبق إلّا المكتبة فقد وقفت دونها واستأجر لنا داراً صغيرة في الحارة التي ولدت فيها، مقابل الدار القديمة.

هل قلت: دار؟ لا، بل هي دويرة، وما أظن هذه التسمية صحيحة، لأنها كانت أقرب إلى (الاصطبل)، بل إنها لا تصلح أن تكون إصطبلاً، ولا يوجد طبيب بيطري يوافق على ربط الدواب فيها، لأن الشمس لا تدخلها أبداً، والدار التي لا تدخلها الشمس في الشام لا يخرج منها الطبيب.

أما ماؤها فمن نهر (تورا) ثاني أبناء بردى، ولكنه يأتي في ساقية مكشوفة تمشي ستة أكيال، قبل أن تصل إليها، يلقي فيها من شاء ما شاء. لا أقول إن ماءها ملوث، لأن كلمة ملوث أنظف من مائها، فماذا أقول عنه؟.

تدخل من الباب إلى ساحة صغيرة، أرضها من (العدسة) لا من البلاط

ولا الحجارة. فيها غرفتان، إذا دخلتهما في ساعة الظهيرة من تموز (يـوليو) أحسست الرطوبة وشممت ريح العفن، جدرانها من الطين، مملوءة بالبق، وقد باد البق الآن ولم يبق له أثر، وهو حيوان صغير، حشرة حمراء، كأنها كيس صغير، له رأس وأرجل يمشي عليها، إذا كانت جائعة رأيتها قشرة رقيقة، بسمك ورق الكتابة، فإذا مست جسد الإنسان مصت دمه، فتمتلىء بالدم الأحمر.

هذه هي الدار التي استأجرها لنا عمي.

لم نحمل إليها من الفرش إلّا شيئاً، لا يستغني أحد عن مثله، مما لم يشتره أحد من فرش دارنا التي بيعت لوفاء الديون. فكنا نفرش حصيراً على الأرض، وفوقه بساط وفراش رقيق، وكان إخوتي ينامون على هذا الفراش، وأمي تسهر عليهم تذود البق عنهم، تمسكه ثم تلقيه في كوب فيه الماء، أو تدني منه مصباح الكاز، إذ لم يكن في الدار كهرباء، فترميه في بلورة المصباح، وكانت اللحف لا تكفي، فكانت تغطيهم بالبساط.

تسهر الليل كله، تذكر ما كانت فيه، وما صارت إليه، تقطع الليل بآهاتها، وتذيب آلامها في دموعها، لا يرى بكاءها ولا يسمع شكواها إلّا ربها، وكانت مؤمنة راضية عن الله، صابرة على ما قضاه.

افترقت أسرتنا، أما عمتي، فقد سكنت عند ابنة خال لها، هي أم حلمي حباب (الخطاط) ومعها جدتي.

وأما نحن أنا وأمي وإخوتي فهنا، وكان عمر أخي سعيد ثلاثة أشهر فقط، فنشأ لا يعرف أباه، بل إن أخي عبد الغنـي لا يعرفه تماماً، وكذلك أخته الصغرى.

وكان بيني وبين أخي ناجي أقل من ست سنوات، ولكنها في تلك السن تبدو كبيرة، فأنا شاب وهو ولد، لذلك شعرت من أول يوم أن العبء أُلقي عليَّ.

ولم يكن لنا مورد إلّا معاش التقاعد الذي عُيِّن لأبي، وهو قليل، ومعاش الإمـامة التي كانت لأبي في جامع رستم، وهو مسجد صغير إلى جنب هذه

الدار، فوُلّيت إمامته مكان أبي، وكان راتب الإمامة مئة وخمسين قرشاً في الشهر، وكانت له تلاوة جزء من القرآن في جامع سنان باشا في باب الجابية، فوليتها بعده وراتبها خمسون قرشاً في الشهر.

ولم نجد من يمد إلينا يداً بمساعدة، إلاّ خالي الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب (الفتح)، و(الزهراء)، والمطبعة السلفية في مصر، فجعل لشقيقته (أمي) جنيهين مصريين في الشهر.

وكان الجنيه المصري يصرف بخمسة مجيديات عثمانية وبضعة قروش، على حين تصرف الليرة الذهبية الرشادية بخمسة مجيديات فقط.

وقد رددنا إليه بعد أربع سنوات كل ما دفعه إلينا، بل أكثر منه من حصة في أرض في (صحنايا) في الغوطة الجنوبية، ورثتها أمي عن أخوالها من آل الجلاد، دفعتها أنا إليه لما كنت في مصر.

لكن يبقى له الفضل، فله منا الشكر، ومن الله حسن الأجر، رحمه الله.

والذي أعاننا، وكان يحمل الأثقال عنا ويمد يده في كل ضيق إلينا، بجهده لا بماله، هو ابن خالتي الشيخ طه الخطيب، وقد فرقت الأيام ما بيننا، فمن قرأ هذا الذي أكتبه عنه، فليبلغه إياه ليعلمه أن المعروف لا ينسى.

وانقطعنا عن الناس، أعني أن الناس انقطعوا عنا، الذين كانوا كل يوم في زيارتنا، والذين كانوا يمضون شطر نهارهم في دارنا، حتى أن عمّيّ، رحمهما الله وسامحهما، جاءا في يوم عيد فزارا جاراً لنا غنياً، داره لصق دارنا، وهي التي تسد مطلع الشمس علينا، وما طرقا بابنا.

لا أقول هذا تشهيراً ولا تشفياً، بل شكراً لله على أن أغنانا عنهما وعن غيرهما. وكتب علينا أياماً عجافاً لتكون تدريباً لنا، وتمريناً، ونزداد بها علماً بالأيام، وطاقة على خوض غمرات الحياة.

* * *

لقد فتحت الآن صفحة جديدة، في سِفْر حياتي: كنت لا أعرف حمل التبعات، فحملتها قبل أن يقوى عاتقي على حملها، وكنت أحس أني فرع من

أصل، فصرت أصلاً (أو كالأصل) لفروع.

كنت أخطر على الشاطىء، أتفرج بالنظر إلى موج البحر، فرميت في مائه وأنا لا أحسن السباحة.

فماذا صنعت؟ وماذا وجدت؟ الجواب في الحلقة القادمة. إن شاء الله.

- ٢٣ -
لما صرت تاجراً!

قلت لكم في أول فصل من هذه الذكريات، إن الذي يكتبها ليس واحداً، بل كثير في واحد، لست أعني أنني أصبت بـ (انفصام الشخصية) وأن عليَّ أن أراجع الدكتور محمد فضل الخاني، بل أعني أن النفس البشرية، في تبدل مستمر مع أنها واحدة، مثلها مثل مجلس فيه مئة عضو، تنتهي في كل شهر عضوية عشرة منهم، ويأتي عشرة جدد، أو كمثل نهر جار، لا تقف قطرة منه، ولا ترجع بعد ما مرت. وقد يصفو ماؤه أو يتعكر، وقد يفيض النهر أو يغيض، ولكن يبقى النيل مثلاً هو النيل، صفا أو تكدر، وعند الفيضان وفي أيام النقصان.

والإنسان يرضى ويغضب، ويحب ويكره، ويطمع ويقنع، ويصح ويمرض، ويفرح ويحزن، وهو في كل حالة من هذه الحالات، وأمثالها، يصير كأنه إنسان جديد، يتبدل نظره إلى الأشياء وحكمه عليها.

ومن هنا قلت: إن كاتب هذه الذكريات ليس واحداً.

ولقد قرأت اليوم ما كتبته في الفصل السابق، فما رضيته! لقد جعلت قارئه يشعر أن المصاب بأبي، قد هز أركاني، وزلزل إيماني، وأن قد حطم آمالي، إعراض عَمَيّ عني، وأن اعتمادي كان عليهما، فلما منع أحدهما غضبت عليه، وتكلمت عنه، ولما منح الثاني شكرت له وأثنيت عليه، حتى أن ذكرياتي عنهما كانت كالنهر الجياش الذي يحمل معه حطباً له شوك، شاك بعضاً من أقربائي، ممن أفضى إلى ربه. فاللّهم إن كنت ظلمته فاغفر لي، ورضِّه بكرمك

عني، وإن كان الحق لي عليه فقد سامحته.

احفظ من الصغر أن (لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع)، ولا أقول إنه حديث، ولكن أشهد الآن، (وقد صار واقعاً بالنسبة لي، ما كان ذلك اليوم غيباً)، أن الخير فيما اختاره الله لي.

إني لأنظر إلى تلك المصيبة من وراء تسع وخمسين سنة مرت عليها، فأرى أن ما قدره الله علينا كان فيه النفع لنا. لقد تمرست بالحياة مبكراً، وذقت منها ألواناً، وخبرت الناس أصنافاً وأجناساً، وكانت الفائدة من ذلك القـدر أكثر من الضرر.

لقد أدركت يومئذ، وتحققت اليوم، أن الحياة مثل الناعورة، هل ترونها في الصورة؟ دولاب كبير علقت به دلاء وسطول[1]، يكون السطل منها ملآن وهو فوق، كما كنا على عهد أبي، فينزل فارغاً إلى الحضيض، كما نزلنا بعده.

فمن كان قصير النظر ظن أنها النهاية، ومن دقّق وحقّق، رأى الدولاب يدور، فما نزل يصعد، وما فرغ يمتلىء.

وإن هذي هي الدنيا: ارتفاع وانخفاض، امتلاء وفراغ، فقر بعده غنى، وغنى قد يأتي بعده الفقر، لا العالي يبقى فوق، ولا الواطي تحت، ولا يدوم في الدنيا حال، والدولاب دوار. . . .

الأحمق يظنها حظوظاً ومصادفات، والعاقل يدرك أنه عمل متقن، فلا البناء الذي يحمل الناعورة أقامه الحظ، ولا حركتها بنت المصادفات، لكنها هندسة محكمة، وحساب دقيق.

ما يعطى أحد في هذه الدنيا ولا يحرم، ولا يعلو ولا يهبط، إلاّ لحكمة بالغة، وأمر مقدَّر، سطَّره مُقَدِّره في كتاب. فمن اهتدى إلى هذه الحقيقة، واطمأن إلى أنه عادل لا يظلم، حكيم لا يعبث، سكن واستراح.

ومن أنزل غضبه بخشب الناعورة أو بحديدها، يحسب أنها هي أفرغت

---

(١) الناعورة والسطل من العامي الفصيح. والصورة ستجيء في جزء الصور من هذا الكتاب.

إناءه، وأراقت ماءه، عذب نفسه بها، ولم ينل منها منالاً.

قعدت الآن أكتب عما مرّ بي، بعد موت أبي، وقد عرفتم أني لا اعتمد في هذه الذكريات على شيء مكتوب، ما اعتمد إلّا على ذاكرة خرقها كر الليالي، فصيرها مصفاة.

رجعت إلى ذاكرتي، فهل تصدقون أن هذه المرحلة الوعرة من طريق حياتي، المرحلة التي مشيت فيها على الأشواك فلطف الله بي، فلم تدم منها قدمي، وعلى الرمضاء فلم تُكْوَ بها رجلي، هذه المرحلة كادت تمحى صورها من نفسي.

إي والله، وذلك من نعم الله عليّ، حتى لا أذكرها فتؤلمني ذكراها. كنت فيها كماشٍ على الجادة المعبدة، فعاقته العوائق عن الاستمرار فيها، واضطرته إلى تنكبها، وإلى السير في الوعور، والقفز من فوق الصخور، والتخبط في المفازات، ثم يسَّر الله له العودة إلى الجادة، فمن فرحه بالخلاص مما كان فيه، لم يعد يريد أن يعود إليه ولا بالذكرى، لذلك نسيت أكثر أحداثها.

كانت كصفحات دفتر أصابها الماء فطمس سطورها، إلّا كلمات متفرقات بقيت واضحات... هذه الكلمات هي التي أسجلها في هذا الفصل.

نهضة المشايخ

كانت نهضة المشايخ قد بدأت قبل وفاة أبي، ولقد شهدت جلساتهم معه يتداولون في أمر افتتاح المدرسة التجارية التي كان والدي مديرها أثناء الحرب الأولى، لأن من أكبر مقاصد حركة المشايخ أو (نهضة المشايخ) كما دُعيت، هو إخراج الأولاد من مدارس الحكومة، ولا يتحقق هذا إلّا بفتح مدارس تغني عنها. فلذلك أنشئت (الجمعية الغرّاء)، وقد كانت أول الأمر بإشراف الشيخين اللذين قاما بهذه النهضة وهما: الشيخ علي الدقر، والشيخ هاشم الخطيب، ثم أدركها داؤنا المزمن، الذي يصيب كل حركة إسلامية، وهو الاختلاف والانقسام، فاستقل الشيخ علي بالغرّاء، وأنشأ الشيخ هاشم (جمعية التهذيب والتعليم).

لقد كان يؤمل من هذه الحركـة أن يكون لها آثار أعمق وأبقى، ولكنها (ونحن هنا للتاريخ لا للمدح والذم، ولبيان الحق لا لصوغ المجاملات) كانت قاصرة على كثير من المظهر، ووراءه قليل من الجوهر، وكانت معنية بأمور من فروع الفروع، لا بتدعيم الأسس، وتثبيت الأصول، كما أمر الشرع وصنع الرسول، ﷺ.

لقد أثمرت خيراً كثيراً، وخرجت علماء ودعاة، وأحيا بها الله أرض حوران والبلقاء (الأردن)، ولكن كان أكثر همِّ متبعيها ومن مشى تحت لوائها، إعفاء اللحى، وتكوير العمائم، وأن تتخذ النساء الأزر البيض بدل الملاءات السود. استفاد من ذلك تجار (الشاش)، وباعة القماش، وخسر الحلاقون لما نأت عنهم الذقون.... كأن هذا هو الدين، وهذه أركانه:

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم   يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

جعلوا مدرستهم أولاً في الريحانية، وهي مدرسة قديمة، كان واضع اليد عليها الشيخ عبد الجليل الدرا، وسأتحدث عنه إن الله وفقني إلى سرد ما أعرف، أو بعض ما أعرف من أخبار مشـايخ الشـام. فلما انتهت السنة المدرسية، وجاءت العطلة، أغروني بأن أدع الـدراسة، وأشتغـل معلمًا في مدرستهم.

وقبلت وكلفوني بتدريس النحـو في الصف الرابع الابتدائي، ثم طلب الدرس الشيخ أحمد الدقر، فآثروه به وأعطوني درساً آخر. فأبيت، وقلت: لماذا؟ ألأنه ابن الشيخ علي الدقر، ولأن أبي مات؟.

هلم امتحنوني وامتحنوه، في النحو والصرف وعلوم العربية كلها، فإن ساويته أو لم أفقه إلّا بالشيء القليل، فأنا أدع الدرس، ولم أشترط أن يسبقني لأني كنت أعلم أن هذا بعيد. فأبى الامتحان وأَبَوْهُ هم، فغضبت وتركت التعليم وعدت إلى التعلم، وكان بيني وبين شهادة الكفاءة[1] سنة واحدة.

---

(١) ولقد اقترحت من قديم أن تدعى شهادة الكفاية، لأنها تشهد لحاملها بأنه رجل كَفَيّ، ثم إنه قد يكتفي بها، وكلمة الكفاءة لا معنى لها هنا.

وكذلك ترون أن الذي يختاره الله لعبده، خير له مما يختاره العبد لنفسه، فلو لم يبعث الله الشيخ أحمد (رحمه الله) ينازعني الدرس، فيجعلني أعود إلى الدراسة، لبقيت معلم مدرسة ابتدائية، بلا شهادة في يده، ولا أمل بالترقي أمامه.

ولما نلت شهادة الكفاية، رأى عمي الشيخ عبد الوهاب أن أتعلم المحاسبة. وكنا نسميها حساب الدوبيا، (أي الطريقة المزدوجة) لأننا نقيد كل رقم مرتين، مرة في دفتر الصندوق، ومرة في دفتر البضائع، أو دفتر الذمم الذي تقيّد فيه حسابات العملاء، وكانت هناك الطريقة المفـردة، وتسمّى الأميركية، أما الأولى فتدعى الإيطالية.

وتعلمت الدوبيا، أو المحاسبة على أقدر محاسب يومئذ في دمشق، وهو السيد كامل بكر تلميذ أبي الوفي، الرضي الخلق، الذي توفي أبي في داره، وحضر معي هذه الدروس بعض الإخوان منهم السيد نظمي المجتهد، ولم أره من تلك الأيام أي من سنة ١٩٢٥. وكنا نتخذ دفاتر كدفاتر التجار، ونعمل الموازنات السنوية (البلانشو) ـ وهي البالانس بالفرنسية ـ ولا تزال هذه الدفاتر عندي في دمشق، ولا أزال عارفاً بقواعد المحاسبة وأصولها، وإن كنت يومئذ (وكنت قبله ولا أزال إلى الآن) أجهل الناس بالحساب، وأشدهم ضيقاً به، وكرهاً له.

وحين أتصور أني كنت محاسباً أذكر قصة بكري مصطفى، وهو رجل تركي ماجن (حشاش)، احتال مرة حتى جعلوه إماماً في مسجد، فجاؤوا بجنازة ليصلوا عليها، فانحنى على الميت، واقترب من أذنه كأنه يوشوشه، فسئل: ماذا قلت له؟

قال: قلت له، إذا سألوك عن أحـوال الدنيا، فلا تطل الكلام. يكفي أن تقول: بكري مصطفى إمام.

* * *

واختار لي السيد كامل بكر رحمه الله، بعد أن أكملت التعليم تاجراً

أضبط له حساباته، وكان تاجر أدوات كهربائية، قبيل باب الجابية، وأمام جامع السباهية. وكان في الجامع مدرسة أولية، معلمها الأستاذ أحمد الكزبري من شيوخ المعلمين في الشام، وكان عملي ساعة في الصباح، أذ يأتي العمال، فيأخذون أسلاك الكهرباء والقطع والأدوات التي يحتاجون إليها في يومهم، ثم تخلو الدكان إلاّ من طالب مصباح أو زر أو شيء مما في الدكان، فأبيعه ما يطلب وأضع الثمن في الدرج، وأبقى منفرداً بلا عمل. ومن سكنت جوارحه تحرك ذهنه، فما ظنكم بشاب نشأ في طلب العلم، واستعد ليكون من أهل العلم، تنأى به الحياة عن غرف المدرسين في المدرسة، وحلقات المشايخ في المسجد، ورفوف الكتب في المكتبة، وتحبسه في دكان بيّاع أدوات كهربائية.....

كنت حين أسمع الأولاد يقرؤون جماعة، أحسّ بقلبي قد تقطّع بين ماضٍ صار مجرد ذكرى، ومستقبل لم يبق إليه سبيل، أهذه هي النهاية؟ بيّاع كاتب في دكان كهربائي؟ ألهذا سهرت الليالي، وقرأت الكتب، وحصلت العلم؟:

أأشقى بــه غـرســاً وأجنيـه ذلــة   إذن فاتباع الجهل قد كـان أحزمـا

لست أذكر كم لبثت في هذا السجن المزري، ولكني أذكر أني ضقت به يوماً ذرعاً، فخرجت منه، وصرت محاسباً أو كاتباً أو ما لست أدري، عند شريكين ـ مسلم ونصراني ـ في (الخريزاتية)، وهي شعبة من سوق (البزورية). اشتغلت معهما مدة ثم اطلعت على أن عملهما غش السمن، وخلطه بما ليس منه، وبيعه على أنه سمن عربي خالص، وصنع الصابون مغشوشاً. وكان الصابون يعمل بزيت الزيتون، لم تكن قد جاءت هذه الأنواع من الصابون الإفرنجي، المعطر الملفوف بطبقات من الورق الصقيل، المربوط أحياناً بشريط، فهو متعة للبصر وللشم، أما الدهن الذي صنع به، فليس من زيت الزيتون كما كنا نصنع في نابلس وفي حلب والشام، فهذا عمل أبناء العالم الثالث، أما المتحضرون من أهل العالم الأول، فيأخذون الدهن من جيف الحيوانات الميتة، ويستخرجونه من مياه المراحيض، يجردونه مما علق به،

ويمزجونه بعطور لا تستخرج من الورد ولا الزهر، بل تستخرجها الكيمياء من القطران[1]، لها ريح الورد والفل والياسمين، وما ثَمَّ ياسمين ولا فل ولا ورد.

فتركت الشريكين الغشاشين، واشتغلت عند تاجر خيطان، أعرفه في خان في سوق الخياطين، فسمعت جاراً له كان عنده لما جئته، يقول له: هؤلاء الأفندية من تلاميذ المدارس متعبون، فكله قبل أن يأكلك، ولا تدعه يقعد وراء المكتب بل شغله ينزل بضاعة، ويرفع بضاعة، ويأتي بها ويذهب.

فأقمت عنده مدة، ثم ذهبت فلم آت.

* * *

وضقت بالتجار، وبوظيفة الكاتب أو المحاسب، وقلت: أكون أنا التاجر، وما خلقت والله للتجارة، ولا أصلح لها ولا تصلح لي، وما عندي لها المال، ولا الخبرة... وكانت عند أمي قطع حُليّ، فباعتها وأخذت ثمنها، وشاركت تاجراً كان طالب علم، هو الشيخ رياض كيوان، واستأجرنا مخزناً في خان العمود، مقابل الخان العظيم، والبناء الأثري الرائع، خان أسعد باشا العظم. واتخذت لي مكتباً إلى جنب مكاتب كبار التجار، وكانت تجارتي بالسكر والأرز نربح بالكيس كله قروشاً معدودة لا تكفي للغداء، فمن أين أطعم أسرة أنا كبيرها، والمطلوب مني أن أكون عائلها؟.

أمن هذه القروش التي لا تبلغ ثمن غدائي، أحضر فطور أمي وإخوتي الثلاثة.. وأختي؟.

ورأيت أن الرجوع إلى الحق أفضل من التمادي بالباطل، فتركت مكاني بين كبار التجار، وخرجت من الخان كما دخلت، والحمد لله أن استطعت الخروج.

وكانت محكمة التمييز (محكمة النقض) التي كان والدي رئيس ديوانها، تنتقل من السراي، إلى بناية العابد في المرجة، إلى طريق الصالحية، إلى

(١) هذه حقيقة علمية.

البحصة... فمررت أمامها فخطر لي أن أزورها، فرأيت الأستاذ محمد علي الطيبي قد حلَّ محل أبي، فرحب بي، وساءلني... فلما عرف أني تركت المدرسة عجب، وقال: ومن الذي أشار عليك بهذا؟.

قلت: عمي الشيخ عبد الوهاب. فقال: الله يفرج عنا وعنه!.

لقد نبهتني هذه الكلمة، كما يتنبه المنحرف عن الطريق إذا سمع من يسأله عن مسيره، وعلمت أني قد غلطت، فهل يمكن أن أصحح الغلط؟!.

وكان قد مضى ثلثا السنة المدرسية، ودخل الطلاب الامتحان الفصلي الأول، وهو على أبواب الثاني، ما بقي له إلّا عشرة أيام.

وذهبت إلى عمي الأكبر، العالم الفلكي الشيخ عبد القادر وكان عاقلاً، هادىء الطبع، بعيد النظر، فقلت له: إني أريد العودة إلى المدرسة.

فضحك وقال:

- لقد أبطأت. كنت أنتظر منك هذه الأوبة، ولكني ما قدّرت أن تتأخر إلى اليوم، وأنا مع ذلك قد أعددت لك الأمر من ثلاثة أشهر. قم معي.

وأخذني إلى الأستاذ محمد علي الجزائري، مدير مكتب عنبر (أي مدرسة التجهيز ودار المعلمين)، وقال له: هذا هو الذي حدثتك عنه.

فقال لي: لماذا تأخرت إلى اليوم، ألا تعلم أن الامتحان الثاني قد اقترب، فهل تستطيع أن تدخله مع رفاقك؟ وهل تقدر أن تعيد الامتحان الأول بعده بعشرة أيام؟.

قلت: أرجو الله.

قال: إذن فتوكل عليه، وادخل صفك، فأنا لم ألغ قيدك. إنك لا تزال من الطلاب.

ودخلت الامتحان، وعندي الوثيقة الرسمية بأني كنت بحمد الله الأول بين الطلاب.

- ٢٤ -

مشايخي خارج المدرسة

وقفت بكم طويلاً على ذكريات أساتذتي في المدرسة، وما تكلمت إلّا عن بعضهم، ولا سردت إلّا بعض أخبار من تكلمت عنهم، ولو أفضت لأطلت وأمللت، فآذنوا لي اليوم أن أقف معكم على بعض مشايخي خارج المدرسة.

تنتظرون أن أبدأ بأبي، رحمه الله، وإنّ فضله عليّ لكبير، ولكني وعدت في مطلع هذه الفصول أن أقول الحق، لا أضيع شيئاً مما هو لي تواضعاً، ولا آخذ شيئاً ليس لي تزيّداً، والحق أن من قرأ على أبي أو لازمه، يؤكد أنه كان معلّماً عبقرياً، يفهم الغبي من التلاميذ حتى يظن نفسه أذكى من الأذكياء، ويبسّط المعقد من المسائل حتى تحسب من الهينات الواضحات، وذلك بالأمثال المحسوسة، والأدلة الظاهرة.

والمعلم الذي فهم المسألة، وهضمها، حتى صارت ملكاً له يستطيع أن يفهمها من شاء، يقلب العبارات، ويبدل الأساليب، حتى يصل إلى العبارة المبينة، والأسلوب المناسب. فإن وجدت معلّماً يشرح الدرس فلا يفهم عنه، ويعيد الشرح فلا يصل إلى الإفهام، فاعلم أنه ما فهم هو ما يدرسه، وإنما حفظه، فهو يكرره كما حفظه لا يستطيع أن يخرج عنه.

ويظهر أن أبي كان من الصنف الأول، هذا ما سمعته من تلاميذه سماعاً، لأنه رحمه الله، ما خصني يوماً بدرس، ولا أقرأني كتاباً.

يقولون: أزهد الناس في العالم أهله وجيرانه، لأنهم يرونه في جده وهزله

وغضبه ورضاه، والبعيدون عنه لا يرونه إلّا في أحسن حالاته، ولا يبصرون منه إلّا أجمل جوانبه.

وأنا أزيد: أن العالم أزهد ما يكون في تعليم أهله وجيرانه، وربما حرص على تعليم التلاميذ وشرح الجواب للسائلين، ما لا يحرص مثله على تعليم ولده، وإجابته على أسئلته.

لذلك كان حظي من علم أبي دون حظوظ الآخرين، وما كنت أراه إلّا طرفي النهار، وإن كان في الدار، لم يخل من أصدقاء أو زوّار، ولو أن الله ألهمه أن يتفرغ لي، أو أن يوليني مثل الذي كان يوليه المقربين من تلاميذه، لرجوت أن انتفع به أكثر مما انتفعوا، وأن يبدو أثر ذلك فيّ أكثر مما بدا فيهم.

وكنت من يوم وعيت وأدركت ما حولي، أصبح فأرى أبي في مجلسه وعنده تلاميذ ما كانوا كتلاميذ المدرسة، بل كانوا رجالاً بعمائم ولحى، فكنت أدخل عليه بالشاي أو بالفاكهة يحملها لي أول الأمر نساء أهلي إلى باب المجلس، ويقرعن الباب، ويحملنني منها ما أطيق حمله، فيثب بعضهم فيأخذه مني ويحمله عني.

ثم صرت أقعد معهم قليلاً، فألتقط الكلمة بعد الكلمة، ثم صرت أناولهم الكتاب بعد الكتاب، فعرفت الحاشية، والقاموس المحيط، وتنقيح الحامدية، والجزء كذا من تفسير الخازن، أو من فتح الباري، أو الفتاوى الهندية.. أقول إني عرفت شكلها واسمها لا أني قرأتها.

وكانت الحجب مسدلة بين الآباء والأبناء، لم ترفع كما رفعت اليوم. وما كنت أتبسط معه في حديث، فضلاً عن أن أدخل في مناقشة، وكنت أناديه (كما كان يفعل أمثالي ممن أعرف) بسيدي، ما قلت له يوماً: يا أبي، أما (بابا) فما كنت أتصور كبيراً يقولها، إنما يقولها الأطفال، في بداية عهدهم بالكلام.

وكان أبي معدوداً من مقدمي فقهاء المذهب الحنفي في الشام. وكان أمين الفتوى عند المفتي الشيخ أبي الخير عابدين، وكان يستفتى في حياة مشايخه، ولما صار رئيس ديوان محكمة التمييز (محكمة النقض) على عهد الشريف فيصل،

كانوا يدعونه للمشاركة في دراسة القضايا الشرعية، سمعت ذلك من رئيس المحكمة الأستاذ مصباح محرم، ومن بعض الأعضاء فيها كالشيخ سليمان الجوخدار الفقيه القانوني، الذي كان مفتي الشام قبل الشيخ أبي الخير، والذي صار رئيس محكمة التمييز ووزير العدل، ومن القاضي الوزير النصراني يوسف بك الحكيم، ومن القاضي صلاح الدين الخطيب الذي صار بعدُ حمي[1] (والد زوجتي)، ومن زميله في عضوية المحكمة الشيخ مسعود الكواكبي (عضو المجمع العلمي)، ومن عضو المحكمة الشيخ علي عياد والد الدكتور كامل عياد.

ولما مات وعدنا إلى حارتنا القديمة، كان يسكن قريباً منا الشيخ أبو الخير الميداني، وهو صديق أبي، وزميله في القراءة على الشيخ سليم المسوتي، الذي كان من كبار المشايخ المعلمين الصالحين، وهو ألباني الأصل، لم أدركه ولكني أحببته لكثرة ما سمعت من أخباره من أبي ومن شيخنا الميداني، وعن كرمه العجيب الذي يجاوز حد التوسط بين غل اليد بخلاً وبسطها كل البسط سفهاً، لا تعمداً منه مخالفة أمر الله، أعوذ بالله أن يتعمد هذا مسلم، ولكنها طبيعة طبعه الله عليها.

وكان يوماً في رمضان، وكان مجلسه قريباً من باب الدار، وكانت مائدة الإفطار قد أعدت، ودنا المغرب، فقرع الباب فقير يسأل ويقسم أن أهله في البيت صِيام، وليس عندهم شيء يؤكل، فتلفت فلم يجد حوله أحداً من أهله، فتناول طبقاً وبعض الخبز، فوضعها جانباً، وقال له: احمل هذا كله. فحمله فذهب به، ودخل النساء فلم يجدن الطعام، فسخطن وصحن عليه، وتكلمن كلاماً شديداً، وهو صامت.

وضرب المدفع، وأذن المؤذن من جامع التوبة، فإذا الباب يقرع، وإذا بألوان الطعام من الحار والبارد، والحلو والحامض، تدخل عليه. وإذا القصة أن سعيد باشا شمدين، أحد كبار الوجهاء، كان قد دعا ضيوفاً فلم يحضروا، فأمر بحمل الطعام كله، إلى دار الشيخ، فقال: أرأيتن مكافأة الصدقة؟.

(١) حموك، من الأسماء الخمسة فأنت تقول حمي كما تقول أبي.

أعود إلى حديث الشيخ أبي الخير. الذين يؤثرون فيك ببلاغتهم، وطلاقة ألسنتهم إن سمعتهم، كثيرون. وكثيرون هم الذين يأسرونك بروعة أسلوبهم، وسحر أقلامهم إن قرأت لهم، والذين يعجبونك بصحة محاكماتهم، وإصابة آرائهم، إن أنت استشرتهم.

كل هذا مشاهد في كل بلد، معروف في كل زمان، ولكن أعجب من هؤلاء كلهم ناس لا يتكلمون وإن تكلموا لم يكن لهم من سحر البلاغة ما يبذ القائلين، ولا يكتبون وإن كتبوا لم تجد عندهم من سمو البيان ما يعجز الكاتبين، وهم مع ذلك يبلغون من التأثير عليك ما لا يكون مثله لكاتب ولا لخطيب.

إنهم يؤثرون بحالهم لا بمقالهم، ومن هؤلاء شيخنا الشيخ أبو الخير الميداني، ومنهم شيخه، وشيخ الشام الشيخ بدر الدين الحسني، وممن عرفت في مصر شيخ مشايخنا السيد الخضر حسين الذي صار شيخ الجامع الأزهر، ومنهم العالم اللغوي المحقق أحمد تيمور باشا.

وعندي في هذا الباب أخبار كثيرة، أروي الآن واحداً منها، حدثني به في مصر الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة، عن شيخ سمّاه ونسيت أنا اسمه، قال: كان هذا الشيخ مدرساً، لا يعرف من الدنيا إلّا الجامع الأزهر الذي يدرس فيه، قبل أن تدخل عليه تاء التأنيث فيصير جامعة، والبيت القريب منه الذي يسكنه، والطريق بينهما... فلما طالت عليه المدة، وعلت به السن، واعتلت منه الصحة، احتاج إلى الراحة، فألزمه الطبيب بها، وأشار عليه أن يبتعد عن جو العمل وعن مكانه، وأن ينشد الهدوء في البساتين والرياض وعلى شط[1] النيل.

فخرج فاستوقف عربة، ولم تكن يومئذ السيارات، وقال له: خذني يا ولدي إلى مكان جميل أتفرج فيه وأستريح.

وكان صاحب العربة (العربجي) خبيثاً فأخذه إلى طرف الأزبكية، حيث

(١) الشط: الشاطىء.

كانت بيوت المومسات، وقال: هنا. قال: يا ولدي لقد قرب المغرب فأين أصلي؟ خذني أولاً إلى المسجد. قال: هذا هو المسجد.

وكان الباب مفتوحاً، وصاحبة الدار قاعدة على الحال التي يكون عليها مثلها. فلما رآها غض بصره عنها، ورأى كرسياً فقعد عليه ينتظر الأذان وهي تنظر إليه، لا تدري ما أدخله عليها، وليس من رواد منزلها ولا تجرؤ أن تسأله، منعتها بقية حياء، قد يوجد أمام أهل الصلاح حتى عند المومسات، وهو يُسبّح وينظر في ساعته، حتى سمع آذان المغرب من بعيد، فقال لها:

- أين المؤذن؟ لماذا لا يؤذن وقد دخل الوقت؟ هل أنت بنته؟ فسكتت. فانتظر قليلاً، ثم قال:

- يا بنتي المغرب غريب، لا يجوز تأخيره، وما أرى هنا أحداً، فإن كنت متوضئة فصلي ورائي، تكن جماعة.

وأذن، وأراد أن يقيم، وهو لا يلتفت إليها، فلما لم يحس منها حركة، قال: مالك؟ ألست على وضوء؟.

فاستيقظ إيمانها دفعة واحدة، ونسيت ما هي فيه، وعادت إلى أيامها الخوالي، أيام كانت فتاة عفيفة طاهرة، بعيدة عن الإثم، وراحت تبكي وتنشج، ثم ألقت بنفسها على قدميه...

فدهش، ولم يدر كيف يواسيها وهو لا يريد أن ينظر إليها، أو أن يمسها.. وقصّت عليه قصتها، ورأى من ندمها وصحة توبتها، ما أيقن معه صدقها فيها، فقال اسمعي يا بنتي ما يقوله رب العالمين:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾.

جميعاً يا ابنتي جميعاً، إن باب التوبة مفتوح لكل عاصٍ، وهو واسع يدخلون منه فيتسع لهم، مهما ثقل حملهم من الآثام، حتى الكفر فمن كفر بعد إيمانه، ثم تاب قبل أن تأتيه ساعة الاحتضار، وكان صادقاً في توبته، وجدّد إسلامه فإن الله يقبله. الله يا بنتي أكرم الأكرمين، فهل سمعت بكريم يغلق بابه

في وجه من يقصده، ويلجأ إليه، معتمداً عليه؟.

قومي اغتسلي، والبسي الثوب الساتر، اغسلي جلدك بالماء وقلبك بالتوبة والندم، وأقبلي على الله، وأنا منتظرك هنا، لا تبطئي لئلا تفوتنا صلاة المغرب.

ففعلت ما قال، وخرجت إليه بثوب جديد، وقلب جديد، ووقفت خلفه، وصلت صلاة ذاقت حلاوتها، ونقَّت الصلاة قلبها.

فلما انقضت الصلاة، قال لها: هلمِّي اذهبي معي، وحاولي أن تقطعي كل رابطة تربطك بهذا المكان ومن فيه، وأن تمحي من ذاكرتك كل أثر لهذه المدة التي قضيتها فيه، وداومي على استغفار الله، والإكثار من الصالحات فليس الزنا بأكبر من الكفر، و (هند) التي كانت كافرة، وكانت عدواً لرسول الله، وحاولت أن تأكل كبد عمه حمزة، لما صدقت التوبة صارت من صالحات المؤمنات، وصرنا نقول: رضي الله عنها.

وأخذها إلى دار فيها نسوة ديِّنات، ثم زوجها ببعض من رضي الزواج بها من صالحي المسلمين، وأوصاه بها خيراً.

لقد خرجت عن الخط، ولكن لا كما يخرج القطار عن القضبان، فينهار ويسبب الهلاك والدمار، ولكن كما يميل المسافر إلى الواحة فيها الظل والماء، فيجد فيها الراحة والري.

فعفوكم إن جرَّتني المناسبة إلى سرد قصة ليست من صلب الموضوع ولكن أرجو أن يكون من سردها متعة أو منفعة.

أعود إلى موضوعي.

كان شيخنا الشيخ أبو الخير الميداني من هذا الطراز. كان الشيخ بدر الدين الحسني يبلغ بصمته أحياناً ما لا تبلغ ألسنة الأبْيناء من الخطباء، والبلغاء من الكتّاب، وأنا أقول من قديم إني أسمع واعظاً أو محاضراً، يتكلم ساعة أو أكثر، في موضوع يجمع أطرافه، ويكشف أسراره، ويظهر خفاياه، بأجود عبارة، وأحسن إلقاء، يحشد ما لا مزيد عليه من الأدلة والشواهد، فلا يحرك شعرة مني، ولا يثير فيّ ذرة من خشوع. وأسمع من راكب في الحافلة، أو ماش

في الطريق جملتين، ما فيهما فكر ولا بيان، فتصلان مني إلى أعماق القلب، وتثيران فيه مكامن الخشوع، وربما أسالتا عينيّ بالدمع.

فما السبب؟ السبب: أن محاضرة الأول خرجت من عقله ولسانه، وكلمة الثاني صدرت عن قلبه، والذي يخرج من القلب يدخل القلب، والذي خرج من اللسان لم يجاوز الآذان.

وشيخنا الشيخ أبو الخير الميداني، كان من أرباب القلوب، لا أعني قلوب العشاق، بل قلوب المؤمنين، المتصلة أبداً بالله، الحاضرة مع الله.

وكان فوق ذلك محبوباً، لا يستطيع أحد أن يكرهه لأنه لا يؤذي أحداً. كان لين العريكة، حلو الشخصية، رضياً لا يَغْضَب من أحد، ولا يُغْضِب أحداً. كانت له نفس شفافة، إذا أنت قعدت وراء الجدار، حجب عنك ما بعده فلا تراه، ولكن إن كان الجدار من بلور، حماك من البرد والمطر ولم يحجب منك النظر، وهذا مثال نفس الشيخ. كان نقشبندياً، والنقشبندية أقرب الطرق إلى الاعتدال، وأبعدها عن المخالفات، ولما نقلت إلى كركوك في العراق مدرساً، قبيل الحرب العالمية الثانية، لقيت كثيراً من مشايخها من الأكراد، منهم الشيخ علاء الدين، ومنهم الملا أفندي، وكدت أتلقى الطريقة يوماً من أحد مشايخها الكبار، وهو الشيخ أبو النصر خَلَف. ثم تركتها، كما تركت غيرها، وقلت: أمشي على الجادة العريضة ما لي لبنيّات الطريق؟ والجادة هي الكتاب والسنّة، والفقه المستمد منها.

سقى الله أيامي مع الشيخ أبي الخير، لقد كانت من أمتع أيام حياتي، وداره الفسيحة التي لم يكن لها رونق دور الأغنياء المترفين، ولكن لها سعتها وهدؤها وزهرها وشجرها.

كنت أرقب النهار كله ساعة الدرس في المساء، وكان يحضره أربعون أو خمسون، وكان درس النحو. ولقد قرأت عليه (الأزهرية)، و(القطر)، و(الشذور) و(ابن عقيل)، وكان يشرح باللهجة العامية، ولكن طريقته تثبت النحو حتى لا يمكن أن ينسى.

كان يقول مثلاً (جاء قاضيٌ). قاضيٌ؟ أترونها سائغة، الياء لتحت والضمة لفوق؟ فوق وتحت معاً؟ لا. لا، فلنحذف هذه الضمة. (جاء قاضين)، ساكنان؟ تصوروا التقاء ساكنين ساكتين، هذا مجلس لا يطاق فلينصرف أحدهما. لقد انصرف، فصارت (جاء قاضٍ).

وكان أكثر الحاضرين أكبر مني سنّاً، ولكني كنت أكثرهم علمًا، فأقامني معيداً للدرس. وكان له درسان في الأسبوع للحديث، قرأنا فيهما الصحيحين وبعض سنن أبي داود، وكان له مجلس للختم، مجلس نقشبندي، حضرته مرة، فلم يرتح له قلبي، فاستعفيته منه فأعفاني. وأنا والحمد لله لم أدخل في (طريقة) من الطرق الصوفية، ولا حزب من الأحزاب السياسية.

من أوراق أبي

وجدت بخطه رحمه الله مسوّدات عمل عظيم ـ لم أعلم متى كتبها ـ ولا كيف قدر عليها، هي أنه أحصى زيادات القاموس المحيط على (لسان العرب) فبلغت نحو ألف مادة، ويبدو أنه أكمل العمل وبيّض هذه المسوّدات، ولكني لم أجد إلّا مقدمتها، مكتوبة على طريقة العلماء لا بأسلوب الأدباء، وهاكم صورة الصفحة الأولى منها مكتوبة بخطه[١].

ومن شاء أن يتصور ما بذل رحمة الله عليه، من جهد، فليقرأ القاموس المحيط كله. ولسان العرب كله، ثم لينظر ما زاد في أحدهما على الآخر. كم ترون هذه القراءة وهذه المقابلة تقتضيه من وقت مع استنفاد أكثر وقته في التدريس وفي العمل، وفي لقاء الأصدقاء؟

---

(١) انظر نهاية الكتاب.

- ٢٥ -

أسرة الخطيب
وبعض أسر دمشق العلمية

تلقيت رسالة من أطرف الرسائل تقول مرسلتها (الجوهرة): إنها فتاة متعلمة، تحبني وتعتب عليّ، تحبني كما كانت تحب جدها، الذي فجعت بوفاته. وأنها لما رأتني في الرائي شبهتني به، فهفا قلبها إليّ، وفكرت أني ربما لحقت به، فبكت...

* * *

بكتني وأنا حي، ورثتني قبل أن أموت... ألا ترون أن هذا هو الصواب؟ وما أدري لماذا ينتظر الناس حتى يموت الرجل، ليندبوه ويرثوه ويثنوا عليه، وينحلوه مزايا ليست له، وفضائل ما كان له حظ امتلاكها، وإن كان كاتباً أو شاعراً، فسّروا أدبه تفسيراً لم يكن يخطر على باله، ونسبوا إليه أفكاراً ما خرجت قط من رأسه، بل ما دخلت إليه...

فهلّا كان ذلك وهو حي يسمع ويرى، حتى يسرّ بالثناء، ويصحّح الخطأ؟!

أما وجه عتبها عليّ فلأني ذكرت أبي ولم أذكر أمي إلّا عرضاً في أسطر معدودة. ولم أُسَمِّها ولم أبين كيف تزوج أبي بها.

وتسألني هل أنا على عادة الشيوخ من أهل بلدي، أحسب أن من المروءة ألا أصرح بأسماء النساء، لذلك يقول الواحد منهم (الأهل) و(العائلة) و(أم الأولاد)، يرى عيباً أن يقول (زوجتي)، فضلاً عن أن يقول (فلانة باسمها....

. . . إلى آخر ما جاء في كتابها.

* * *

وجوابي: أن لا. لست في هذا على عادة شيوخ بلدي. ومن ظن أن التصريح باسم زوجته عيب، أو حسب أنه مُخِلٌّ بالمروءة، فإني أخشى عليه الكفر، لأنه يكون قد نسب العيب، والإخلال بالمروءة إلى أكمل البشر وأفضلهم محمد ﷺ، فقد ورد في الصحيح أنه صرح باسم عائشة وفاطمة وأمها خديجة، ولم ير في ذلك عيباً.

واسم أمي رئيفة بنت الشيخ أبي الفتح الخطيب شقيقة الأستاذ محب الدين الخطيب. أما كيف تزوج بها فأنا أمتنع عن ذكره.. لماذا؟! لأنني لا أدريه. لا تعجبوا إذا قلت لكم: أن الغرباء دعوا إلى حضور العقد، وأنا ولدها لم أدع إليه. إي والله، لم أدع إليه... ولم أعلم به إلّا بعد إتمامه بزمن طويل.

الزوج له الحق في أن يختار زوجته، مع أنه يستطيع إذا لم يَرضَها أن يفارقها ويتزوج غيرها. وأمي لا سبيل لي إن لم تعجبني أن أتبرأ منها وأتخذ لي أمّاً غيرها، فكيف إذن لم يؤخذ رأيي فيها؟.

أليس لي أن أبدي موافقتي على المرأة التي ستكون أمي؟.

* * *

لكن لا تحسبوا أني لم أرضها، أو أني أنكرت اختيار أبي إياها، ولو أنني كنت معه لما فكر في خطبتها، أو خطبها أبوه له، فما كان الرجل يخطب المرأة بنفسه، لو كنت معه وسألني عنها، لما رضيت غيرها، رحمه الله ورحمها فلقد عهدتها (لما عرفتها) امرأة صالحة. كانت مثلاً عالياً للمرأة المسلمة الراضية عن الله، الصابرة على ما قضاه، جمعت بين الخلق، وبين النسب، أما الجمال فبعينه وحده، لا بعيني أنا، يكون الحكم عليه. الزوج يميز جمال امرأته من قبحها، أما الولد فلا يرى أمه إلّا جميلة، ولو كانت أمةً سوداء، ولو كانت عجوزاً وجهها أخاديد وحفر، وهذا يؤكد مذهب (طاغور) في الجمال، وأنه ليس ببهاء الطلعة، ولا بتناسق الأعضاء، ولا بسحر العيون، ونضارة الوجه، كل هذا من شروط الجمال، لا أنازع فيه، ولكن أسأل: لماذا ترى الممثلة في

المسلسلة أو الفِلـم جميلة بارعة الجمال؟ وترى ممثلة أخرى دونها جمالاً، فتقوم الأولى بدور الكذب والمكر، والثانية تمثل الصدق والطهر، فلا ينقضي الفِلـم حتى تصير الأولى قبيحة في نظرك، تتمنى لو أطبقت بأصابعك على عنقها فخنقتها، وتصير الثانية ملكة الجمال؟.

أليس معنى هذا أن سر الجمال كما يقول (طاغور) هو الإخلاص.

أما أسرة أمي فهي إحدى الأسر العلمية في الشام، حدثني خالي محب الدين الخطيب، ثم نشر ما حدثني به، أن أصلها من بغداد، ثم نزلت حماة، ونزح فرع منها إلى قرية عذراء (عدرا) التي ذكرها ياقوت في معجم البلدان فقال: إذا انحدرت من ثنية العقاب وأشرفت على الغوطة رأيتها أول قرية تلي الجبل.

وثنية العقاب هي التي تدعى اليوم الثنايا (التنايا) تمر بها حين تعلو في الجبل (جبل لبنان الشرقي) متوجهاً إلى حمص، وإلى جنب عذراء تقع (الضمير) التي ذكرها المتنبي في قصيدته التي ودع بها سيف الدولة.

والذي انتقل منهم إلى دمشق الشيخ عبد الرحيم بن محمد الخطيب المدفون في مقبرة الدحداح سنة ١١٩٩ وقد بلغت ذريته اليوم، أي بعد مئتي سنة من انتقاله إليها الآلاف، وغدت من أكبر الأسر الدمشقية، وقد سخر الله عبقرياً من أبناء هذه الأسرة، وكان رساماً فناناً، فأحصى أفرادها، وجعل لهم سجلاً مثل سجلات النفوس الرسمية، في دائرة الأحوال المدنية، لكل منهم صفحة فيها اسمه واسم أبويه وولادته وزواجه وطلاقه وأسماء أولاده، وجعل للسجل فهرساً، ثم صنع للأسرة شجرة رسمها بالزيت على القماش المشمع وجعل لها فروعاً، وجعل للولد ورقة وللبنت ثمرة، وجعلها بطناً بعد بطن حتى زادت في حياته رحمه الله على تسعة بطون. وطول لوحة الشجرة أكثر من ستة أمتار وعرضها نحو الأربعة، وقد اشترتها منه الحكومة السورية. وهي معروضة في متحف الفنون الشعبية، في قصر العظم في البزورية.

وهذا الرجل هو ابن خالتي الشيخ سهيل الخطيب، وربما عدت إليه، فتكلمت عنه.

كان الشيخ عبد القادر الخطيب حفيد الشيخ عبد الرحيم من علماء دمشق، أخذ عن أبيه وعن الشيخ عبد الرحمن الكزبري، وعن الشيخ سعيد الحلبي. وكان له أربعة من الولد كلهم علماء: الشيخ أبو الفرج والد الشيخ عبد القادر خطيب جامع بني أمية، والمدير العام للأوقاف، يوم لم تكن لها وزارة فكان هو المرجع الأعلى فيها، والأستاذ صلاح الدين الخطيب عضو محكمة التمييز (أي محكمة النقض) وهو والد زوجتي، والشيخ أبو الخير والد الزعيم الوطني الوزير زكي الخطيب، والشيخ أبو النصر خطيب الجامع الأموي القاضي العادل الجريء صاحب النوادر، والشيخ أبو الفتح (أبو أمي).

قال في الأعلام: أنه (ولي أمانة دار الكتب الظاهرية، والتدريس والوعظ في الجامع الأموي، وكان يميل إلى التقشف، ويكره معاشرة الحكام، له مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، مخطوط في خمسة مجلدات، وهو في الخزانة التيمورية في مصر، بخطه، مولده بدمشق ١٢٥٠ ووفاته فيها ١٣١٥، وهو والد السيد محب الدين الخطيب صاحب مجلتي الفتح والزهراء).

قال: (وله ترجمة في منتخبات التواريخ ٧٠٦، وفي الأعلام الشرقية ٢ : ٦٧).

* * *

والأسر العلمية في دمشق كثيرة، أذكر ما يخطر منها على بالي، وربما ذكرت أسرة جليلة ونسيت أجل منها، وربما قدَّمت بالذكر من يتقدمه بالمنزلة، من أخرت فلا تؤاخذني. .

هذا يوم كانت الشام كما كانت أكثر بلدان الإسلام، يتعارف أهلها، يعرف بعضهم بعضاً، يقدمون أهل الفضل، لا ينكرون عليهم فضلهم، لم يكن قد اختلط الحابل بالنابل، والأصيل بالدخيل.

بعض أُسر دمشق

فمن الأسر العلمية آل العمادي، وقد استمر فيهم منصب الفتوى أمداً طويلاً. ومن أشهرهم الشيخ حامد العمادي، وله الفتاوى الحامدية، التي نقحها الشيخ ابن عابدين صاحب الحاشية.

وقد انتزع منصب الإفتاء منهم الشيخ إسماعيل الحايك، في قصة طريفة سمعتها من أستاذنا محمد كرد علي، ، وذكرتها في مقالة عنوانها (التشجيع) نشرت في الرسالة في أواسط الثلاثينيات[1]، وهي في كتابي (فكر ومباحث) ومنهم آل الحمزاوي، وهم أقدم الأسر الشامية، ومن أشهرهم مفتي الشام محمود أفندي الحمزاوي.

وآل الكزبري نسبة إلى جدهم الشيخ علي كزبر، وأجلهم الشيخ عبد الرحمن الكزبري. وآل الغزي وكان إفتاء الشافعية (غالباً) فيهم، وآل العطار وأصلهم من حمص من أشهرهم الشيخ حامد العطار، وأبوه الشيخ أحمد الذي ندب الناس لدفع نابليون لما حاصر عكا، وكان عصري الشيخ عبد الرحمن الكزبري ونظيره في العلم، وثالثهما الشيخ عبد الرحمن الطيبي، وكان لحامد خمسة من الولد كلهم عالم معروف، منهم الشيخ بكري العطار وهو أشهرهم وياسين وهو والد الشيخ سليم المشهور، والشيخ ابراهيم وهو والد الشيخ رضا القاضي في المحكمة الشرعية وهو أبو الأستاذ عصام زوج بنتي رحمها الله، وآل الشطي وهم فقهاء حنابلة فرضيون، أصلهم من بغداد من أجلّهم: الشيخ حسن الكبير المتوفى سنة ١٢٧٤ أخذ عن المشايخ: مصطفى السيوطي، وغنام النجدي، وعبد الرحمن الكزبري، وعبد الرحمن الطيبي. وولده الشيخ أحمد الشطي مفتي الحنابلة في دمشق. المتوفى سنة ١٣٠٧، وهو والد صديقنا بل أستاذنا الشيخ حسن الشطي، قاضي النبك، وقاضي دوما، وقاضي دمشق، وقد خلفته في المحاكم الثلاث.

والشيخ عمر، وهو أخو الشيخ أحمد والد صديقنا الشيخ جميل الشطي مفتي الحنابلة في دمشق، ومؤلف كتاب (أعيان دمشق).

وآل السيوطي ومنهم الشيخ مصطفى مؤلف كتاب (مطالب أُولي النهى) وأصلهم من قرية الرحيبة بجوار القطيفة، على جانب الطريق من دمشق إلى حمص. وهو شرح كتاب (غاية المنتهى) للشيخ مرعي الكرمي، نسبة إلى بلدة

---

(١) الثلاثينيات أي عشر الثلاثين (١٩٣١ - ١٩٣٩).

طوركرم[1] (طولكرم) المتوفى ١٢٤٣. وآل الخاني وأشهرهم الشيخ محمد الخاني الكبير، وأصلهم من (خان شيخون) بين حلب وحماه.

وآل البيطار وأشهرهم شيخنا العالم النظار السلفي الشيخ محمد بهجة، مدير المعهد العلمي في مكة، ثم كان المؤسس والمدير للمعهد السعودي. ومن العجائب أن أباه كان صوفياً من غلاة الصوفية.

وآل القاسمي وعلمهم الشيخ جمال الدين، صاحب المصنفات الكثيرة، وكان عالم الشام.

وآل الأيوبي وممن صحبت منهم العالم المربي الشيخ توفيق الأيوبي، مدير أول مدرسة شرعية فتحتها الأوقاف في الشام، وكانت في المدرسة السميساطية على الباب الشمالي للجامع الأموي، وكانت فيها قديماً دار عمر بن عبد العزيز، وأكثر رجالها من أرباب الوجاهة والمناصب، أظهرهم عطا بك الأيوبي الذي ولي رئاسة الوزارة مراراً. وآل المحاسني ومن أقدمهم موسى وكان خطيب الأموي، وقام بالخطابة بعده ابنه أسعد ١٢١٨، ومنهم أستاذنا في معهد (أي كلية) الحقوق المحامي العالم الأستاذ سعيد، وبعده رفيقنا الوزير المحامي الأستاذ أسعد، وصديقنا الشاعر الذي كان معنا في مكتب عنبر، ثم كان معنا مدرساً في مكة زكي المحاسني. وكان التدريس تحت القبة للشيخ عبد الرحمن الكزبري، ثم لولده الشيخ مسلم، ثم انتهى إلى الشيخ بدر الدين الحسني وهو جد زوجتي لأمها.

وكانت نقابة الأشراف للشيخ أحمد العجلاني، ثم للشيخ مسلم الكزبري ثم للشيخ أحمد منجك العجلاني، ثم للشيخ صالح تقي الدين، ثم لولده الشيخ أديب مؤلف كتاب (منتخبات التواريخ)، ثم عطِّلت زمناً. ثم وليها السيد محمد سعيد الحمزاوي فجدّد لها بعض مجدها ثم ألغيت الوظيفة.

وآل الأسطواني، وكلمة الأسطواني تقابل كلمة العمودي هنا، أو في حضرموت، وأجلُّ من عرفت منهم الشيخ عبد المحسن الأسطواني رئيس

---

(١) تسعة أعشار فقهاء الحنابلة من عندنا: من الشام.

محكمة التمييز الشرعية، المعمَّر الذي عـاش مئة وثماني عشرة سنة، وما فقد شيئاً من علمه ولا من ذاكرته، وسأعود إلى الحديث عنه، والفقيه الشيخ محمد شكري مفتي دمشق، والقاضي الأستاذ وجيه الأسطواني رئيس المحكمة العليا، وخطيب الجامع الأموي الشيخ حسن، وحفيده زميلي في القضاء الذي توفي شاباً، الشيخ عبد الرؤوف، وسلفي في القضاء الشيخ عبد الفتاح.

وآل الباني، نسبة إلى قضيب البان اشتهر منهم: الشيخ عبدالرحمن، ثم ولده (أستاذنا) الشيخ سعيد الباني ـ وهو عالم محقّق ـ له كتابان: عمدة التحقيق المطبوع سنة **١٣٤١**، وكتاب في الذهب والحرير، وهو مفكر يحقق النص ويعمل فيه عقله، ويجعل منه شيئاً جديداً، وإن لم يخالف القديم. ومن آل البـاني الأستاذ عبـد الرحمن (الحفيـد)، وهو عـالم ديّن كان مفتش العلوم الإسلامية في وزارة المعـارف السوريـة، فأدى في الـوظيفة حق الله، ووفى الأمانة، وأفاد ناشئة المسلمين.

ومنهم آل الحسيبي وكانت فيهم نقابة الأشراف آخر القرن الثالث عشر وأول تاليه. وآل المنيني وأصلهم من طـرابلس الشام، وكـان فيهم الإفتاء وتدريس القبة أوائل القرن الرابع عشر.

وآل المنيّر من شيوخهم: الشيخ أسعد المتوفى **١٢٤٢**، ومنهم اليوم أمين الفتوى الشيخ عبد الحكيم.

وآل المرادي، وأصلهم من بخارى، وآل السفرجلاني، وآل الجندي وأصلهم من المعرة، ومنهم مفتي دمشق الشيخ أمين الجندي، وسميّه الشاعر العَلَم، وأستاذنا سليم الجندي.

وآل المالكي، وآل الحلبي وكان منهم الشيخ سعيد شيخ علماء الشام وولده الشيخ عبدالله، وآل السويدي وأصلهم من العراق، أعرف منهم الشيخ أمين سويد (السويدي) الذي كان مدرساً في مدارس الفلاح. جاء به مؤسسها الرجل الذي يستحق أن تؤلف في سيرته كتب لا كتاب: محمد علي زينل، عرفته في جدة من نصف قرن، وفي بومباي من ربع قرن.

وآل قَزِّيها كان منهم الشيخ مصطفى أمين الفتوى توفي ١٢٥٧. ومن القرّاء الشيخ أحمد دهمان، والشيخ محمد الحلواني، وقد جوّدت قراءتي عليه، والشيخ عبد الرحيم دبس وزيت، وولده الشيخ عبد الوهاب وقد قرأت عليهما، والشيخ عبد الله المنجد، وهو أول من جمع في دمشق، بين طريقتي الشاطبية والطيبة، وكان أستاذه في الطيبة حافظ باشا المشير العثماني، ـ فماذا يقول الذين يدعون الحكم العثماني استعماراً، ويقرنونه باستعمار الكفار ـ وهو والد الصديق الدكتور صلاح الدين المنجد، وآخر ما صدر له (معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ) وهو كتاب جليل.

وعندنا في الشام مجموعة أسر نجدية، كان أهلها غالباً أدلّاء في طريق الحج، يدعوهم الناس (العقيل) منهم: آل الرواف، وآل البسام، وآل الشبل.
ومن كرام الأسر الشامية: آل القوتلي، آل العظم، آل العظمة، آل البكري، آل الشمعة، آل المهايني، آل حتاحت، آل الطباع، آل الجلاد، آل العاني، آل العابد، آل شورى، القدسي، الركابي، السقطي، الحنبلي، الدّرا، القنواتي، القطب، النحلاوي، سكر.

وقد نسيت أن أعد في الأسر العلمية آل عابدين، ومنهم أعظم فقيه حنفي ظهر في القرنين الأخيرين وهو صاحب الحاشية التي هي عمدة المفتي على المذهب الحنفي، ومنهم المفتي الشيخ أبو الخير الذي كان أبي أمين الفتوى عنده، وولده المفتي الطبيب آخر العلماء شيخنا الشيخ أبو اليسر.

ومن الأسر الشامية: آل البرهان، وآل القضماني، وآل البارودي، وآل شمدين، والألشي، والدردري، والموقع، وبدير، وشيخ الأرض، والخجة، والقنواتي، وأبو الشامات.

رحم الله من مات، وثبت من بقي ما يرضيه، وغفر لنا ما نسينا أو أخطأنا.

- ٢٦ -
الثورة على الفرنسيين

لقد كنت كتبت عن الثورة السورية كتابات كثيرة، لا أستطيع ولا أريد أن أجمعها هنا، ولا أقدر الآن على كتابة مثلها، من سنة ١٣٤٧هـ حين كنت في مصر، وكتبت في (الزهراء)[1] قصة (شهيد الغار) الأمير عز الدين الجزائري، ووضعتها في كتابي (الهيثميات) المطبوع سنة ١٩٣٠، وفي تلك السنة بدأت أكتب في مجلة (الناقد)[2] قصة طويلة عن (حسن الخراط)، فوقفها الفرنسيون بعد نشر الفصول الأولى منها، وفي كتابي (دمشق) قصة عنوانها (في خرائب الدرويشية)، وفي كتابي (هتاف المجد) الكثير عن الثورة والنضال وعن قضية فلسطين والجزائر.

وقد يسأل قارىء: ومن حسن الخراط؟ وحق له أن يسأل، فما في الألف من القرّاء واحد يعرف من هو، أو سمع باسمه، وما فيهم واحد في الألف لم يسمع باسم جيفارا أو كارلوس الإرهابي أفليس هذا عجيباً؟!.

نجهل أسماء أبطالنا المجاهدين، ونحفظ أسماء المجرمين المفسدين، فهل كان ذنب (حسن الخراط) أن ظهر في أمة لا تقدِّر أبطالها، ولا تنصف رجالها؟.

حسن الخراط حارس ليلي، خفير من خفراء البلد، كان عمله أن يحرس بيوتها من اللصوص، فلما رأى لصوصاً أخطر، وشرهم أكبر، قد سرقوا البلد كله نهض مع من نهض من الثوار يحمي الذمار ويمحو العار.

---

(١) الزهراء لمحب الدين الخطيب وكانت تصدر في مصر وتعد المجلة الأدبية الأولى.
(٢) (الناقد) لأديب الصفدي وكانت تصدر في دمشق.

وقف مع إخوانه الذين باعوا نفوسهم لله، لما أعلن أنه اشتراها من المؤمنين، وقف في وجه فرنسا يوم كانت فرنسا تملك أقوى جيش بري في العالم، يوم خرجت من الحرب ظافرة على هامتها غار النصر، يوم اقتسمت هي وزميلتها انكلترا، عفواً بل بريطانيا العظمى التي لم تكن تغيب عن أملاكها الشمس، في القارات الخمس، فانكمشت وتضاءلت ورجعت إلى حقيقتها وانزوت في ركن من جزيرتها، فلم تعد تطلع عليها الشمس، إلّا بضعة أيام على طوال العام.

اقتسمتا بلاد الله، على كره أهلها، فأخذت فرنسا جانبين من جوانب البحر الذي كان يقال له يوماً بحر العرب، وكان العرب بل كان المسلمون يملكون جوانبه كلها إلّا الأقل منها.

أخذت المغرب، والجزائر، وتونس، والشام (ولبنان من الشام)، وأخذ الانكليز جنوبي الشام، أي فلسطين (وفلسطين من الشام)، ولم تبق في ديار المسلمين بقعة لم يصل إليها الاستعمار إلّا هذه الجزيرة، فقد حام حولها ولم يلجها، ومد أصابعه إليها، ولم يرفع علمه عليها.

وكذلك الدنيا، الناس فيها كفِرق متسلقي الجبال، يصعدون حتى يبلغوا الذروة التي لا مصعد بعدها، فيهبطون حتى يبلغوا القرارة التي لا مهبط بعدها، فيصعدون.

يولد الإنسان ضعيفاً، لا ينطق ،ولا يمشي، فإذا كبر قوي حتى يغدو الخطيب الذي يسوق الجموع بكلمة من فمه، أو الشاعر الذي يغوص في أعماق النفس، أو يطير في سماء الخيال يرصف الكلم درراً وجواهر، وأين الجواهر والدرر من عبقري المقال؟.

ويمشي على الأرض بخيول من مركبات الحديد، تسابق الريح في مهبها فتصل قبلها، ثم يعلو في الجواء على نسور من المعدن فيجاري الأصوات، ويكون أسرع منها فيسبقها، ويصل إلى القمر فيفجع الشعراء والعشاق بحلم عاشوا عليه دهراً، ويحول القمر الذي طالما تغنوا بجماله وسحره، إلى حجارة وتراب يطؤونها بأقدامهم!.

وبعد أن كان لا يفرق بين الجمرة والتمرة، ولا يدري كيف يشرب الماء من الكوب، قوي حتى كشف بعقله خفايا الوجود، مما كان يظنه الأقدمون غيباً وما هو بالغيب، إن ما جعله الله غيباً يستحيل أن يطلع عليه بشر، وما يطلع عليه البشر لا يكون من الغيب.

﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء﴾ حتى إذا بلغ أشده، واستوى على قمة القوة، بدأ الضعف ﴿الله الذي خلقكم من ضعف، ثم جعل من بعد ضعف قوة، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة﴾.

وكذلك الدول: كنا نحن أعزّ وأكرم، وكنا الأعلم، فوقفنا وساروا فصاروا لما ساروا أقوى منا، وغدوا هم العلماء من دوننا.

هبطنا من يفاعنا، وأضعنا ملكنا، ونمنا وطال نومنا، فطمع الطامعون فينا.

كنا كالأسد في غابِهِ لما ساد الغاب، وتوارت منه الذئاب، ولم يصمد له منها ظفر ولا ناب، اطمأن وسكن، واسترخى فأدركه النعاس وغلبه الوسن، فلما استغرقه المنام، استيقظت الذئاب، وطمعت فيه الثعالب، ولكن الأسد يبقى أسداً ولو نام، والجوهر لا يصير زجاجاً ولو رميته في الوحل، والزجاج لا يغدو الماساً[1] ولو وضعته في صناديق الحديد. يرسب الذهب إذا ألقي في الماء، وينزل إلى قعر الإناء، ويطفو التبن والبعر، ولكن هذا لا يُغلي التبن ولا يرخص التبر:

وإن تكن الأيام فينا تبدلت ... بنعمى وبؤسى والحوادث تفعل
فما ليَّنت منا قناة صليبة ... ولا ذللتنا للتي ليس تجمل

* * *

لقد أخذ الأسد يستيقظ، إنه يمد يديه ثم يسترخي فيعاود المنام، لقد بدأت حركات النضال، فمن انتفاضة سنة ١٩١٩ في مصر وما كان فيها من أحداث، إلى أحداث الرميثة في العراق، إلى ثورة الريف المغربي التي **قادها**

(١) المفرد الماس، لا ماس، اللام فيه أصلية وليست لام التعريف.

الأمير محمد عبد الكريم الخطابي فحارب فرنسا وإسبانيا معاً.

ولقد لقيته في مصر سنة ١٩٤٧ بعد عودته من المنفى فوجدت فيه عالماً تقيّاً عابداً في ثوب قائد، رحمه الله فلقد كان مجاهداً مؤمناً[1].

ثم كانت الثورة السورية، وامتدت ثمانية عشر شهراً، كانت تمتلىء بأخبارها البرقيات، وأعمدة الصحف وتتصدر أكبر جريدتين يومئذ: التايمس والطان (أي الزمان) التي خلفتها لوموند (أي العالم).

لقد قهروا جيش فرنسا وأنا أقول الحق لا أنظم قصائد الفخر، ولا أسجل أحلام اليقظة ولا المنام.

كانت تخرج الحملة (والكلمة من تعبيرات الثورة) فيها الدبابات والمصفحات يقودها جنرال أو كولونيل، وفيها الألوف من الجنود فيردها عشرات (وإن كثروا فمئات) من الثوار، سلاحهم البنادق والسيوف، وسلاح آخر أقوى من السيوف والبنادق، هو الإيمان. لا يسخر أحد من هذا الكلام، فإن البندقية مع الإيمان أقوى من المدفع بيد غير المؤمن، والحجارة في أيدي شباب فلسطين اليوم وأطفالها، تفل الحديد وتغلب البارود في أيدي كلاب... لا بل خنازير يهود، ما يبلغون أن يدعوا كلاباً فللكلاب وفاء، ويهود الغدرُ من طبائعهم والمراء.

الإيمان ولو كان بالجبت والطاغوت قوة لا تكاد تغلب، والمثل فيتنام أما أتعبت بل أعجزت فيتنام أقوى دول الأرض، وهي لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا يرجو قتيلها جنة، ولا يرقب ثواباً؟.

هذا هو المثل الواطي القريب، أما المثل الأعلى لما يصنع الإيمان من عجائب فهو المسلمون الأولون، الذين مشوا لإعلاء كلمة الله شرقاً إلى تركستان وأطراف الصين، ومشوا غرباً حتى اقتحم (عُقْبة) بفرسه ماء البحر بحر الظلمات (الأطلنطي) وقال: اللّهمّ لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً في سبيلك حتى أفتح الأرض لنور الحق أو أموت.

---

(١) في كتابي (هتاف المجد) فصل عنه.

المسلمون الذين فتحوا بالإسلام وللإسلام ما بين قلب فرنسا وقلب الهند، ولولا أننا خالفنا عن أمر ربنا فجعلنا لـ (شارل مارتل)[1] سبيلاً إلى كسب المعركة في (بواتيه)، لوصلنا القسطنطينية وطوّقنا عنق أوروبا بأغلى عقد تزدان به الأعناق.

إنك إن استثنيت معركة حنين مع هوازن، وعشراً أُخر من عشرة الآلاف من المعارك التي خضناها لم تجد المسلمين إلّا أقل من عدوهم عدداً، وأضعف عُدداً، وأقل عتاداً ومدداً.

فَبِمَ انتصروا؟ لقد كان قواد الروم والفرس ممن درس فنون الحرب، وتاريخ المعارك، وسير الأبطال، ففي أي كلية عسكرية درس ذلك خالد بطل اليرموك، وسعد بطل القادسية، وابن العاص، وعقبة، وموسى، وطارق، والمهلب؟.

لقد فتح قتيبة من الأرض أوسع مما فتح نابليون، ولكن ما فتحه نابليون عاد إلى أهله، وما فتحه قواد الإسلام بالإسلام وللإسلام بقي للإسلام.

أين الذين غُلبوا في معارك الفتوح في الشام، ومصر، والعراق، وفارس، والهند، وإفريقية، أين هم؟ إنهم هم الذين يسكنون اليوم هذه البلاد، لكن ليس منهم مغلوب، وليس فيهم غالب، الإسلام جعلهم إخوة، إخوة لا إخوان ولا أصدقاء، بل إن رابطة الإسلام أقوى من رابطة الأخوة بين الأشقاء الذين ولدتهم أم واحدة، من أب واحد.

لو كنتم معي أيام الثورة، لقرأتم كل يوم اسم (جسر تورا) في البرقيات يبعثها المراسلون، وفي أعمدة الصحف، ولم أذكر الإذاعات لأنها لم تكن يومئذ إذاعات، فهل يعرف أحد منكم ما (جسر تورا)؟.

(تورا) أحد أبناء بردى، نهر (أو ترعة بالإصطلاح المصري) عرضه لا يبلغ خمسة أمتار، عليه جسر صغير، كانت تمر عليه الحملة فلا تكاد تجوزه حتى ترد عنه..

---

(١) هو جد شارلمان.

من يردها؟ جيش نظامي كجيش المارشال (جوفر) عند (المارن)[1] في الحرب الأولى؟ أم قوة مثل قوة الروس في (ستالينغراد)[2] في الحرب الثانية؟ لا، بل أفراد من الثوار، ما لهم خنادق كالتي يعرفها الجند، ولا حصون كحصونهم، ولا سلاح كسلاحهم. ما معهم إلّا البنادق وقليل من العتاد، وما يحميهم إلّا (الدكوك)، و(الدك) جدار البستان وهو تراب يدك دكاً، ويكبس كبساً، فإذا جف صار كالحجر.

وكانت تخرج الطيارات فيرميها الثوار برصاص البندقية، وقد يسقطونها.

ما كانت كطائرات هذه الأيام، بل كانت صغيرة ما فيها إلّا جنديان اثنان ظاهران، لها جناحان قصيران أحدهما فوق الآخر، ومروحة صغيرة من أمامها، لقد رأيتموها في فِلْـم (عمر المختار).

وقفت فرنسا بجيشها وجنرالاتها وجبروتها أمـام جسر تورا، لم تقدر أن تتخطاه، إلّا مرات معدودات.

ثم كان ما هو أعجب، لقد استطاع الحارس الليلي حسن الخراط أن يدخل دمشق، دخلها على رغم هذه القوى كلها، واحتلها الثوار ثلاثة أيام، لم يكن فيها في البلد فرنسي واحد.

وكان الفرنسيون، أصحاب الثورة الكبرى التي يدّعون أنها قامت لنشر العدالة والمساواة والحرية، الفرنسيون قوم روسو وهوغو ولامارتـين، الذين صنعوا تمثال الحرية، وأهدوه إلى أميركا، فأقامته عند بابها الشرقي، يطل على فرنسا شاكراً، من وراء البحر الأطلنطي.

فرنسا أم الحرية ذبحت الحرية في الشام، أقامت القلاع على جبـل قاسيون في دمشق، وعلى جبال المزة، لا لرد العدو عنها، بل لرد أهلها عن

---

(١) كانت المعركة في أيلول (سبتمبر) ١٩١٤ وهي التي ردت الألمان عن باريس.

(٢) مدينة البلغار التي يذكرها الرحالة المسلمون، هي ستالينغراد أو هي بجوارها، فمن كان عنده علم محقق فليكتبه، وهي غير حكومة البلغار المعروفة، بلغاريا هذه في البلقان، ومدينة البلغار في روسيا، وأول رحالة كتب عن روسيا هو ابن فضلان، وطبع رحلته مجمع دمشق.

استرداد حريتهم ممن عـدا عليها. والـذي عدا عليهـا أمها.. أم الحـرية فرنسا!!.

ولما عجزت عن مواجهة الحارس الدمشقـي في ميدان القتال حاربت البيوت فهدمت الجدران، ودكت الأركان، وأزالت العمران، أعادت قصة دون كيشوت مع الطواحين؟.

لقد أساءت فرنسا يومئذ إلى تاريخها، ولطخت الصفحات البيض من أدب أدبائها بالطين.

أين آداب الفروسية؟ إن الفارس الشريف يكف عن المبارزة إذا سقط السيف من يد خصمه فبقي بلا سلاح، لأن المسلح الذي ينازل أعزل لا يكون فارساً شريفاً، فكيف ضربت فرنسـا يومئـذ دمشق بمدافعها؟ كيف خربت وأحرقت أجمل أحيائها، ما بين سوق الحميدية وسوق مدحت باشا، حيث كانت أبهى وأغلى بيوت دمشق؟ إقرأوا كتـابي (هتاف المجـد)، إن أردتم تفصيل هذا الإجمال، وكتابي (دمشق).

لقد بقي هذا الحي أطلالاً سنين وسنين، ولما أعادوا بناءه أخيراً، بقي اسمه إلى اليوم: حي الحريقة.

وأحرقوا طرفاً من (الميدان) حي الأشاوس من كرام أهل الشام.

* * *

واسترد الفرنسيون قلب البلد (دمشق)، وبقيت أطرافها بأيدي الثوار أكثر من سنة. كنا نرى (الاستحكامات) أي أكياس الرمل، ووراءها الرشاشات، في الجسر الأبيض، وهو مجمع الطرق إلى أحياء السفح، إلى المهاجرين والصالحية وحي الأكراد (ركن الدين)، وكلها خارج حدود البلد، وفي باب الجابية، والميدان كله، وباب سريجة، وقصر حجاج خارج حدود البلد، وداخل الباب الشرقي قرب مكتب عنبر وما بعده خارج حدود البلد، وفي وسط العقيبة أمام جامع التوبة وما بعده خارج حدود البلد، والغوطة كلها خارج حدود البلد، أي في أيدي الثوار.

ومن أطرف ما كان، ما ذكرته في خطبتي في حفلة الجزائر، في أواخر الخمسينيات: كان في الاستحكام في العقيبة، حيث كنت أسكن أيام الثورة، ضابط باريزي أشقر ناعم، كأن رجولته خطأ مطبعي في سجل الحياة، أو كأنه أنثى متخفية في ثوب رجل.

أحب أن يرى صورة حسن الخراط، فجاءه أحد ظرفاء الحي بصورة عنتر التي تعلق في المقاهي، فلما نظر إليها ورأى سواداً كالليل، وعينين تتقدان كعيني الصقر، وشاربين كساريتي مركب.. انخرط بطنه، وأصابه الزحار (الدوسانطريا) فحمل من فوره إلى المستشفى.

بقينا على هذا سنة وبعض السنة، الفرنسيون في داخل البلد، والثوار في أطرافها، وفي الغوطة، من حولها.

ننام على انطلاق الرصاص، ونصحو على تفجر القنابل، نهدأ ساعات من الليل، قد تطول وقد تقصر، ثم تفجؤنا[1] الهزات والرجات حتى صرنا نميز طلقات بنادق الثوار، من رشاشات الجند، تلك تقول: ون ن ن ن. وهذه تقول: طق طق طق. وطلقات مدافع الدبابة: دج دج.

يهجم الثوار، فيرد الجند من (الاستحكامات)، ثم تخرج الحملة، ثم ترجع مكسورة.

ما أضعف الثورة إلاّ الذين خُدعوا، من أبناء الشركس الذين تطوعوا للقتال، وجنود السنغال الذين أجبروا عليه.

ويوم القيامة يبعثون على نياتهم، ويؤاخذون هم وغيرهم بأعمالهم، وفي رحمة الله متسع لكل من مات على الإيمان، اللهمّ رحمتك لنا وللمسلمين.

* * *

كتب عن الثورة الكثير، لكنها لم تؤرخ كما ينبغي، ولم أكن فيها لأكتب عنها من داخلها، لذلك وصفت ما يراه مثلي من الظاهر.

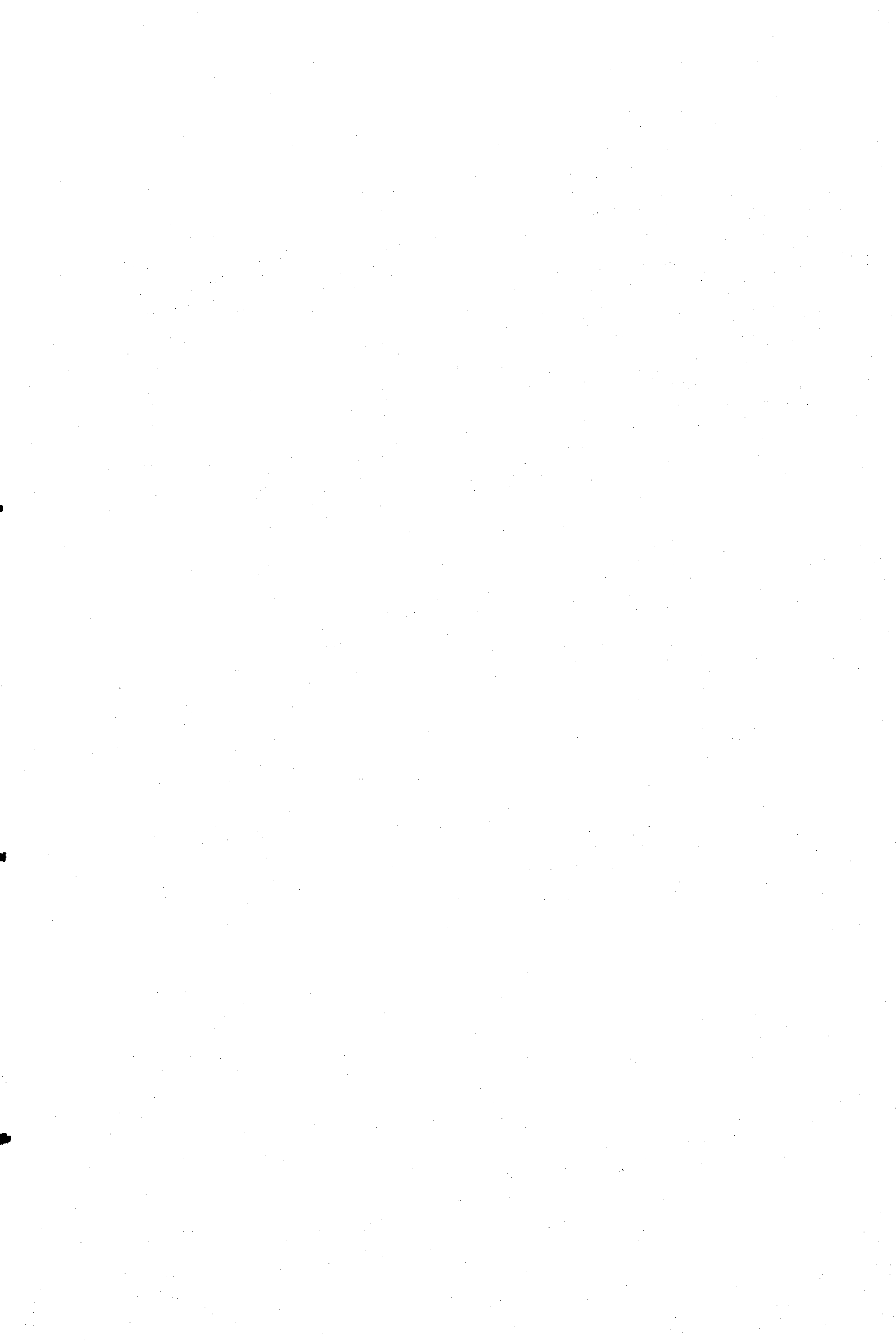
---

(١) هكذا تكتب الهمزة هنا لأن الضم أقوى من الفتح.

ما كنت ممن خاض غمارها، كنت شاباً تقصر سني عن خوضها، وإن كان كثير من أقراني قد شاركوا فيها، وأبلوا حسن البلاء.

لما أحرقت دمشق كنت أرى النار من بعيد، أرى لسانها ممتداً يلحس الدور والقصور، فيمحو الحياة منها، كما يمحى لوح التلميذ إذ يلحسه بلسانه. فأحس قلبي يحترق أسىً مثلما تحترق دمشق.

وعندما كانت تخرج الحملات، معها الدبابات والمصفحات، فتواجهها البنادق القديمة، فتردها مكسورة، كنت أسمع الأنباء من بعيد. فأشعر بالفخر، وأجد الرضا، فأحمد الله، أن نصر المجاهدين، وآمل أن تعود الحرية. ويرجع الخير إلى دمشق ويعمّ بلاد المسلمين.



- ٢٧ -

كيف انطلقت الثورة

كان عهد ما بين الحربين عهد نضال للاستقلال، وكانت قمة هـذا النضال، وكانت ذروة أمجاده، ورأس مفاخره، الثورة السورية.

ولئن طهّر الله الجزيرة العربية من أوضار الاستعمار المباشر، فلقد مَنّ على الشام أن كانت أول قطر عربي حظي بالاستقلال التام، والجلاء الكامل لجيوش الواغلين عليه، المتسلطين على شعبه.

ولئن كانت مكة أم الإسلام، والمدينة الظئر التي أرضعته طفلاً، فدمشق الحاضنة التي حضنته صبياً.

وما قوي الإسلام بها ولكنها هي قويت به، وما احتاج إليها، ولا شرف بها، ولا بغيرها، بل هو الذي شرّفها وشرّف غيرها.

ولئـن كانت الجزيرة دار العروبة، فالشام البستان الذي يطيف بالدار، والذخر الذي لا يفنى لأهل الدار.

ولئن كانت المدينة عاصمة الدولة الإسلامية الأولى، فدمشق عاصمة الدولة الثانية، على أن الإسلام دولة واحدة، ولو تعدّدت العواصم، واختلف الحكام، دولة واحدة: ربها واحد، ونبيها واحد، ودستورها واحد، وكل أبنائها إخوة في الإيمان، نص على هذا الدستور الخالد الذي هو القرآن.

* * *

إن الثورة لم تخرج من (جبل الدروز) كما شاع في الناس حتى أخذوه حقيقة مسلَّمة، وما هو بالحقيقة المسلّمة، بل خرجت الثورة من غوطة دمشق.

ولقد كان الممهد لها المظاهرات التي بعثتها زيارة (كراين) الذي جاء صديقاً. . . و (بلفور) الذي كان أول المسؤولين عن سرقة فلسطين.

أما السبب المباشر فهو جولة الشيخ بدر الدين في مدن سورية، أي أنها متصلة بـ (نهضة المشايخ) التي لم تلق من المؤرخين، ولا من الباحثين الاجتماعيين العناية التي تستحقها.

ولقد كانت بحسناتها وبعيوبها (حادثاً) ينبغي أن يدرس، ومن يدرسه فسيرى أنه لم يكن أثراً (أو رد فعل كما يقولون) لدخول الفرنسيين الشام، بمقدار ما كان أثراً ونتيجة للمواجهة الكاملة بيننا وبين هذه الحضارة الجديدة[1] التي كانت قبل الحرب ترانا ونراها من شق الباب، ومن طاقة الجدار، فدخلت علينا هذه المرة الدار، كما يدخل الزوار.

لقد أخلّت لما دخلت بموازيننا، وبدَّلت مقاييسنا، وغيَّرت أساليب تفكيرنا ومعيشتنا، فكنا معها أصنافاً ثلاثة:

قليل من شبابنا قبلوها بكل ما جاءت به حتى المفاسد والشرور، وكثير من مشايخنا رفضوها بكل ما جاءت حتى الحقائق العلمية، كدوران الأرض حول الشمس، والجمهور منا ما أحسّ بها، وبقي يعيش بعد دخولها كما كان يعيش قبله، ولكن الجمهور عندنا كان يسير دائماً وراء المشايخ حيثما ساروا، يأتمر بأمرهم، ويسمع منهم.

الشبان حجتهم أن أصحاب هذه الحضارة أقوى منا وأرقى، فكل ما عندهم إذن خير مما عندنا، والمشايخ حجتهم أنهم كفرة، لا يدينون دين الحق، والكفر شر فكل ما يأتي من عندهم إذن شر.

وكلا القولين خطأ وما لأحد منهما حجة فيما احتج به، فما يقاس الحسن والقبح بمصدره الذي صدر عنه، ولا يعرف الخير من الشر بمنبعه الذي جاء منه، بل يعرف حسنه وقبحه، وخيره وشره، من ذاته ومن صفاته، فقد نرث عن آبائنا رأياً أو عادة ويكون فيها الضرر، وقد نستورد رأياً أو عادة من عند غيرنا ويكون فيها النفع.

(١) لي محاضرة طويلة عن موقفنا من هذه الحضارة ألقيت في الرياض في ندوة الشباب العالمية ١٣٩٣ هجرية.

فكيف إذن نميّز الحسن من القبح، والخير من الشر؟

الجواب: نميز بما أودعه الله فينا من عقول، فإن أخطأت العقول الطريق نفتش عن النور الذي يدلها عليه، ويسيّرها فيه، ويكفل لها بلوغ الغاية فلا تضل عنها. وهذا النور هو الشرع. فالميزان هو العقل المهتدي بهدى الشرع.

* * *

الشيخ بدر الدين الحسني كان شيخ العلماء، وكان يدعى المحدث الأكبر، كتبت عنه في (الرسالة) حين وفاته[1]، وكتبت عنه بعد ذلك[2]، فلن أفيض الآن في الكلام عنه، لكن أقول: إن دنياه كلها كانت داره، والجامع الأموي، ودار الحديث التي انتهت إليه مشيختها، وما كان من أصحاب الحركة والتجوال، فلما قام الشيخ علي الدقر، والشيخ هاشم الخطيب، بما دعي بنهضة المشايخ، ورأى إقبال الناس عليهما، وانتفاعهم بهما، لا سيما أهل حوران والبلقاء (في شرقي الأردن) سره ذلك منهما، وشجعهما، فسألاه أن يجول معهما في مدن سورية يعظون الناس، يدلون على الله، يأمرون بالمعروف، ينهون عن المنكر، فمشى معهم، وكانوا إذا شارفوا البلد خرج الناس لاستقبالهم، وساروا وراءهم، فيبدؤون بالمسجد، فيعظون ويعلمون، ويحثّون على الجهاد، يبينون أحكامه وحالات وجوبه.

وكانت هذه الجولة هي الشرارة التي أشعلت الثورة، لا أقول هذا من عندي، ولا نقلاً عن الثقات العارفين من مشايخي وصحبي، كلهم يعرف هذا، ويعرفه كل من أدرك تلك لأيام. ولكن أنقله عن تقرير رسمي لمندوب المفوض السامي الفرنسي، نشرته جريدة (الأحرار) في بيروت العدد ٦٧٨ الصادر في الثاني من شعبان ١٣٥٤ هجرية.

* * *

بدأت الثورة عقب عودة الشيخ من حلب.

وهذه المذكرات التي بين يدي كتبها بطلب مني الشيخ محمد اسماعيل

---

(١) ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥م).

(٢) في مجلة رابطة العالم الإسلامي ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥م).

الخطيب، وكان مع نفر من إخوانه أول من خرج إلى الغوطة، وكان عزمي على تنقيحها لأنها مكتوبة بلغة عامية لا يكاد يفهمها إلاّ الشامي، ثم نشرها، وأحببت أن أتحقّق منها قبل النشر، فاتصلت بأكثر من استطعت الاتصال بهم، ممن ذكر اسمه فيها، وسألته عما جاء من خبره في هذه المذكرات، فما اختلف قول واحد منهم، فوثقت من صدقها، ولكني لم أنشرها، بسبب لغتها أولاً، فقد قلت إنه لا يفهمها إلاّ الشامي، لا بل إن الشامي اليوم لا يكاد يفهمها، لأنها بعامية الشام قبل خمسين سنة، ثم إنها ممتلئة بأسماء رجال لا يعرفهم اليوم أحد، منهم من ذمّ فعاله، فإذا أعلنت الذم آذيت ذريته وآله.

لذلك ألخص منها، ما يناسب المقام، مترجماً إلى لغتي، مكتوباً بأسلوبي.

* * *

يذكر (رحمه الله) زيارة (كراين) الأميركي، الذي حضر للوقوف على رغبات السوريين أو لتقصي الحقائق على التعبير الجديد، وكان الحزب الوحيد هو حزب الشعب فاجتمع برجاله، وبغيرهم من الزعماء، اجتمع بالدكتور عبد الرحمن شهبندر، والأستاذ حسن الحكيم ـ الذي لا يزال حيّاً وقد قارب المئة، قواه الله وجنبه الأمراض[1] ـ، وزكي الخطيب، وسعيد حيدر. وهؤلاء الأربعة من أنظف الوطنيين يداً، وأقومهم سبيلاً، وحدثت أحداث كانت عاقبتها أن نفى الفرنسيون هؤلاء جميعاً وكثيراً من غيرهم إلى جزيرة أرواد، مقابل الساحل السوري فحبسوهم فيها.

وكان ذلك في السنة الأولى لدخول الفرنسيين، والمظاهرات التي قامت نتيجة ذلك هي أول المظاهرات في عهد الانتداب، وقد كنت نسيتها لما تكلمت عن تظاهرة الناس يوم زيارة بلفور.

ويقول (رحمه الله): أن نفيهم كان يوم الأربعاء، وكانت الأحداث كلها والتظاهرات تبدأ من الجامع الأموي، بعد صلاة الجمعة، فلما كانت الجمعة، وقضيت الصلاة، قام الدكتور خالد الخطيب فخطب مطالباً بالاستقلال، وإطلاق

---

(١) توفي رحمه الله سنة ١٤٠٤ هـ عن مئة وأربع سنين وسيأتي الكلام عنه.

المعتقلين، وخطب غيره، وخرج المصلون متظاهرين، فقابلهم رجال الشرطة، ثم جاء الدرك، ثم جاءت (السباهية) من جنود المغاربة والجزائريين الذين ساقوهم إلى نزالنا مرغمين، ونصبوا مضخات الحرائق على كتف بردى، وواجهوا الناس بالماء من خراطيمها، فأقدموا فقطعوا خراطيم الماء، وألقوا بالمضخات ومن معها في النهر، عندئذ أطلق الجند الرصاص، فأردوا خمسة من الشباب، وكان هؤلاء أول فوج من الشهداء، بعد ميسلون.

* * *

قال الشيخ محمد في مذكراته، وقد وضعت كلامه كما كتبه بين قوسين: (.... وصار تشكيل جماعات جماعات لأجل أن تقوم البلاد بمساعدة بعضها البعض على الفرنسيين، وأنا العبد الفقير، كانت وظيفتي أن أحمل مصحف وخنجر، ونحلّف الناس، والله حلفت مقدار أربعة آلاف من صنف الزكرتية والرجال المشهورة، مثل ديب الشيخ، وأبو شاكر القلعجي من العمارة، ومن الشاغور حسن الخراط، وأبو حامد الفحل، وأبو عنتر، وأبو محمد سلوم، وأبو فارس الحرش إلخ... ومن الميدان أبو كمال عرار وأبو سليمان المهايني إلخ... وصادق الرجّال، وأولاد سكر، وأولاد رحمون إلخ.....

ومن سوق ساروجة (صاروجاً) عبد الوهاب الرجلة والأغواني إلخ.... ومن حارة الأكراد أبو داود الشيخاني، وأبو عمر ديبو إلخ...).

وهؤلاء الذين سماهم وأمثالهم هم فتوات الأحياء كما يقال في مصر، أو القبضايات، وندعوهم نحن (الزكرتية)، والأولون منهم كانت لهم مزايا الفرسان، ينجدون الضعيف، ويمنعون الظلم، ويحمون أعراض النساء، ثم خَلَف من بعدهم خَلْف ليسوا مثلهم، ولا أحب الآن الكلام عنهم.

* * *

عاد الشيخ وصاحباه من رحلة الشمال، وكان قد اقترب يوم المولد، وكان أهل الشام، كغيرهم في أكثر البلاد، يجتمعون لقراءة قصة المولد، وتوزيع قراطيس السكر الملبس، ولا أعرض للمسألة التي شغلوا بها الآن الأذهان، وجعلوها قضية الإسلام الأولى، وهي حكم الاحتفال بالمولد، فأنا أدوّن ها هنا

تاريخاً، لا أصدر فتاوى، وإن كنت قلت وكتبت من أيام شبابي، منبهاً إلى أن هذه الموالد التي يقرؤونها، أكثرها فيه ما لا تصح نسبته إلى رسول الله، عليه صلاة الله.

فجد جديد تلك السنة، هو أن الاحتفال بالمولد تحول من اجتماع على قراءة قصة المولد، وإنشاد الأناشيد، وأكل السكاكر، إلى مهرجان وطني شعبي، إلى مباراة بين أحياء دمشق في نصب أقواس النصر، وتغطيتها بفروع شجر الغوطة، وتزيينها بالورد والزهر، وصور عنتر وأبي زيد الهلالي وأبطال القصص الشعبية، ورفع الأعلام عليها، واللوحات الداعية إلى النضال، التي تمجد الاستقلال، وتنكر الاحتلال، ما كانوا يرفعون العلم الرسمي بل العلم العربي المربع الألوان، وكانت مسابقة إلى إقامة الحفلات الوطنية، كل يوم من الأيام، لحي من الأحياء، يقيم أهل الحي العراضات، ويهزجون بالأهازيج ثم يحضر موكب الوطنيين، فيخطب الدكتور عبد الرحمن شهبندر وهو من أقدر من سمعت من الخطباء، وزكي الخطيب، وخالد الخطيب، وتشتد الحماسة وربما مشوا بمظاهرة، فاصطدموا بقوى الحكومة. وكانت الحكومة حكومتين: المحلية وأعضاؤها كدمى مسرح العرائس، لا يتحركون حتى تحركهم أيد لا نراها، والحكومة المنتدبة، أي الفرنسيين.

هنا خرج كاتب المذكرات وصحبه إلى الغوطة.

قال: (وفي منتصف الليل خرجنا من عند بستان عرنوس، وحطينا عنده - أي وضعنا - لفاتنا - أي عمائمنا - وقنابزنا، ولبسنا لباس الثورة وخرجنا مع إخواننا عبد الرحمن الرهوان، وحريص المرجة، وأبو رشيد الخباز، وهؤلاء من قرية عربين، ومن دمشق العبد لله محمد إسماعيل الخطيب، وعبد الوهاب الرجلة، وشفيق السكري، وعبد الوهاب الدوجي، ونديم شهاب، وحين وصلنا جسر تورا اعترضنا اثنان من الفرنسيين فقتلنا الواحد وشلحنا الثاني، وقعدنا في الزور عند جسر الغيضة) والزور موضع من الغوطة كالغابة كثيف الشجر، متقارب الأغصان وهي قرب سقبا[1] وجسرين وكفر بطنا.

---

(١) وكنت معلم مدرستها سنة ١٩٣١.

قال: (بقينا أربعة أيام، وما كان أحد يطلع من الشام ممن حلّفناهم، فصرنا في حيرة و. . .).

ففكروا بخطة عجيبة، كتبوا كتاباً للفرنسيين، بأن الذي قتل الجندي عند جسر تورا هم فلان وفلان، ممن حلّفهم اليمين وما خرجوا للجهاد، ومنهم ممن لم أسمِ أبو شكري الطباع، وأبو شكري فيصل[1]، وسعود اللحام، وأبو صلاح العرجا إلخ. . . .

وأرسلوا إليهم صورة منه مع نديم شهاب، ليخبرهم أن الكتاب أرسل بالبريد إلى الفرنسيين، فإما أن يخرجوا إلى ميدان الجهاد، وإما أن يسلموا رؤوسهم إلى يد الجلاد[2].

فخرج أكثرهم وابتدأت الثورة.

* * *

أما أحداث الجبل التي ابتدأت قبل ذلك بقليل، فكانت حدثاً فردياً: جاء لبناني اسمه أدهم خنجر، محكوم عليه بالإعدام، يستجير بسلطان الأطرش، فلم يجده فلجأ إلى داره.

وحق الجوار، باق عندنا من أيام العرب الأولى، يحمي السيد جاره، ولو مات في سبيله، وما كانت حرب البسوس إلّا بسبب الجوار.

وقانون الجوار، وسجية الكرم، اضطرهم إليها أنهم يعيشون في صحراء ليس فيها حكومة تحمي الضعيف، ولا فندق يؤوي الغريب.

وعلم الفرنسيون بمجيئه فقبضوا عليه، فلما قدم سلطان غلى في رأسه الدم، وجمع بعض بني عمه من الطرشان، وكان بعض منهم مع الحكومة، وهجم على المخفر، وبدأ الصدام، وخرجت الحملات.

* * *

(١) أبو صديقنا الدكتور شكري فيصل، وكان هو وأخوه من زعماء حيّنا (العقيبة).

(٢) والعجيب أن مدير الشرطة يومئذ هو حمدي الجلاد.

فلما وصل الخبر إلى دمشق، عقد اجتماع عاجل لحزب الشعب، وبعثوا زكي الدروبي، أوصله إليهم وحماه في طريقه سعود اللحام من الشام، وتحولت حركة الجبل إلى ثورة رسمية، أعلن عنها، ونصب سلطان الأطرش قائداً عاماً لها، وانضوى الثوار تحت لوائها، وإن كانت هذه القيادة إسمية رسمية، وكان كل رئيس جماعة يعمل وحده.

والحديث طويل، وذيوله كثيرة، ولا أستطيع إن فتحته أن أغلقه.

فحسبي ما ذكرت، والعفو إن أجملت أو أبهمت أو قصَّرت.

- ٢٨ -
شعر الثورة في مكتب عنبر

تحدثت عمن أثروا في فكري وفي سلوكي من أساتذة (مكتب عنبر)، ومن معلمي المدارس الابتدائية قبلهم،وعن بعض المشايخ الذين قرأت عليهم أو صحبتهم خارج المدرسة، وبقي بعض سيأتي (إن شاء الله) الكلام عنهم.

وقلت لكم إن أساتذة (مكتب عنبر) كان أكثرهم من الضباط والقادة في الجيش العثماني: انهارت الدولة، وانحل الجيش، فجاؤوا يعلّمون.

وكان منهم ضابط صغير، هو بالنسبة إليهم شاب: ملازم اسمه (عزة الرفاعي) جعلوه مراقباً للطلاب، وكان المراقب الأول (عاصم البخاري) وهو أخو نصوحي بك البخاري الذي ولِيَ وزارة المعارف غير مرة، وأبوهما العالم السلفي الذي جعلوه رئيس العلماء الشيخ سليم البخاري،والغريب أن الطلاب كانوا يسمونهما: عاصم بك، وعزة أفندي!.

* * *

الأستاذ عزة الرفاعي لم يدخل علينا مدرساً، ولم يلق يوماً علينا درساً، ولكنه من أوائل من تركوا في نفسي أعمق الآثار وأبقاها.

كان مراقباً للطلاب، يصفُّهم، يدخلهم، ويخرجهم. ثم جعلوه مدرس رياضة، فأسّس فيها أسساً، وخرَّج الله به أبطالاً، ولهذا حديث آخر، والكلام عنه اليوم في أمر يتصل بي، ويتصل بالثورة التي كان الكلام في الحلقتين السابقتين عنها.

* * *

أمضيت ست سنين في (مكتب عنبر) منفرداً، لا أخالط الطلاب ولا أشاركهم في جد ولا لعب، فما الذي جعل الأستاذ الرفاعي يدعوني يوماً، وكانت الثورة في عنفوانها، وفي يده مجلة مصرية فيها (قصيدة شوقي)، فيسألني: هل أنا مستعد لإلقائها على الطلاب؟.

من قال له إني أحسن إلقاء الشعر؟ من عرفه به وأنا ما كنت أعرف ذلك من نفسي معرفة يقين؟.

وقلت: نعم. قال: خذها فاحفظها وغداً تلقيها.

وكان الغد فجمع الطلاب وجاء بعض الأساتذة، ووقفت أتلوها:

سلام من صبا بردى أرقّ ودمع لا يكفكف يا دمشق

ومضيت فيها، وأخذتني الحماسة فنسيت أن المدرسة حكومية، وأن فيها مدرسين فرنسيين، وأن الثورة قائمة، وأننا نسمع أصوات الرصاص والرشاشات ونحن في الفصول. وجهرت بها، وأطلقت صوتي كله، وكنت (وأظن أنني لا أزال) أُسمع الجامع الأموي كله بلا مكبر.

وحضر المدير وهو أستاذنا جودة بك الهاشمي، وكانت له في نفوسنا هيبة تبلغ حدّ الرهبة، فأحسّ كأني تردّدت لما أبصرته فأشار إليّ أن أكمل، فأكملت القصيدة.

وكان الطلاب، بل كان المدرسون أيضاً، يصفقون عند كل بيت ويستعيدونه، ويهتفون، صفقوا حتى احمرت الأكف، وهتفوا حتى بُحَّت الحناجر. لا إعجاباً بإلقائي بل بشعر شوقي، بل إعجاباً بالموضوع العظيم الذي نظم فيه شوقي قصيدته، وهو (الثورة السورية).

ثم وصلت بعد أسبوع قصيدة خير الدين الزركلي، فأمرني بإلقائها، وتكرّر الاجتماع والحماسة مني، والتصفيق والهتاف منهم.

وأنا لا أزال إلى اليوم، بعد خمس وخمسين سنة، أحفظ أكثر أبيات القصيدتين. لقد كان شوقي (لسان العرب) الذي يعرب عن آلامها وآمالها،

ويصوّر أفراحها وأتراحها فما مرّ بالعرب، بل بالمسلمين حدث إلّا كانت لشوقي قصيدة فيه، لذلك كان شعره ديوان العرب في هذا العصر.

* * *

هذه القصيدة ليست من أجود ما نظم شوقي، وقافيتها من أصعب القوافي، وأنا أعرف ظروف نظمها، فقد نظمها على عجل، ولكن شاعريته محت آثار عجلته، فجاءت فيها أبيات سارت في الناس مسير الأمثال، وخلدت خلود أبيات المتنبي، وصارت مدداً لكل خطيب يخطب، أو زعيم يقود. حوت معاني تبقى جديدة ولو مرت عليها السنون:

فُتُوق الملك تحدث ثم تمضي ... ولا يمضي لمختلفين فَتْق

فإن كنا متفقين رتقنا كل فتق، وسددنا كل ثغر، أما إذا اختلفنا وتنازعنا فإنها تذهب ريحنا ويكون فشلنا.

ولا تقولوا: ما له ينصحنا وما هو من أهل دارنا، فإن هموم الشرق تجمعنا:

نصحت ونحن مختلفون داراً ... ولكن كلنا في الهم شرق

ويجمعنا إذا اختلفت بلاد ... بيان غير مختلف ونطق

على أن البيان لا يجمع ما لم يكن معه الإيمان، فقد كان العرب قبل الإسلام أهل فصاحة وبيان، وكان يجمعهم النسب واللسان، وما جعلهم أمة واحدة، حتى نزل القرآن. ومن أبياتها السائرة:

وقفتم بين موت أو حياة ... فإن رمتم نعيم الدهر فاشقُوا

وللأوطان في دم كل حر ... يَدٌ سلفت ودَيْن مستحق

ومن يسقى ويشرب بالمنايا ... إذا الأحرار لم يسقوا ويسقوا؟

ولا يبني الممالك كالضحايا ... ولا يُدني الحقوق ولا يحق

ففي القتلى لأجيال حياة ... وفي الأسرى فدىً لهمو وعتق

ثم جاء البيت الذي صار (على ضعف تأليفه) بيت القصيد، في هذه الأبيات التي تصلح أن تكون نشيد النضال:

وللحـريـة الحمـراء بـاب بكـل يـد مضـرجـة يـدق

* * *

وقديماً قالوا إن (براعة الاستهلال) من محسنات المقال.

وقـد حيا شـوقي في مطلع القصيـدة دمشق، ووصف رقـة نسيمهـا وصباها، ودمعه على ما حلّ بحماها.

ولكن له مطالع أجود، كمطلع قصيدته في (الأزهر) الذي أنطق فيه أكبر ناطق وهو الدنيا، وأسمع أعظم سامع وهو الزمان:

قم في فم الدنيا وحي الأزهرا وانثر على سمع الزمان الجوهرا

ومطلع الشامية الأخـرى:

قم ناج جُلَّق وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم أحـداث وأزمان

ولقد أحسّ بهذا فقال:

ومعـذرة اليـراعـة والقـوافي جلال الرزء عن وصف يدق

وما قصر مع ذلك في الوصف فلقد وصف نكبة دمشق، التي لم يصدق خبرها لهول ما سمع عنها:

رباع الخلد ويحك ما دهاهـا أَحَـقٌّ أنهـا دَرَست أحـق؟
وأين دمى المقاصر من حجال مـهـتـكـة وأسـتـار تـشـق

ثم يصف الحور التي كانت مقصورات في الحجال، حين هدمت عليهن الدار، وهتكت الأستار، فخرجن ومن حولهن النار، التي أضرمتها حضارة المتحضرين الذين انتدبوهم ليدلّونا على طريق المدنية.... وأولادهن تحوطهم الأخطار، ولا يدرين أي طريق يسلكن للفرار.

برزن وفي نواحي الأيك نار وخلف الأيـك أفـراخ تـزق
إذا رُمْن السلامة من طـريق أتت من دونه للموت طـرق
بليـل للقـذائـف والمنـايـا وراء سمـائه خـطف وصعق

إذا عصف الحديد أُحمّر أفق على جنباتـه واسـود أفق
سلي من راع غيدك بعدوَهْن[1] أبـين فؤاده والصخـر فـرق

ثم جاء بيت فيه حقيقة ننساها دائماً، وكان علينا أن نتذكرها دائماً:

وللمستعـمـرين وإن ألانـوا قـلوب كـالحجـارة لا تـرق

رحمك الله ياشوقي، لهم والله قلوب كالحجارة، ولكنهم يلبسون الحجارة ثوباً من ناعم الحرير فتخدعنا نعومة ظاهرها عن قسوة ما فيها.

* * *

أما صديقنا بل أستاذنا خير الدين الزركلي، فليس من رجال شوقي ولا من طبقته، ولا أسلوبه من أسلوبه، فشوقي، وإن آذاني بهذه القافية التي كلما تلوت القصيدة أحسّ كأنها مطارق تنزل على رأسي: دقّوا، دقّوا، دقّوا.

رحمه الله ما الذي جعله يختار حرف القاف من بين سائر الحروف؟.

على أنه (أحمد) شوقي شاعر العرب الذي لم يأت بعد (أحمد) المتنبي شاعر أشعر منه، ولا (أحمد) شيخ المعرة صاحب اللزوميات.

ولكني أفضل هنا قصيدة الزركلي على قصيدته، لا أفضل الزركلي ولا غيره عليه هو. الزركلي ابن الشام، ومهما كان البعيد فإنه لا يشعر بمأساة البلد شعور ابن البلد، وأسلوب الزركلي هنا أسلس وألين، وإن كان أسلوب شوقي أقوى وأمتن، وقافية شوقي كأنها الطريق الوعر، فيه الحجارة والصخر. وقافية الزركلي كالسلسال الجاري، والجادة المعبدة السهلة، والزركلي كان حيناً أشعر شعراء دمشق الأربعة، وإن كان قد انقطع عن الشعر من نصف قـرن، وانصرف إلى التأليف، فترك كتاباً من أعظم ما ألّف في هذا العصر وهو (الأعلام).

مطلع قصيدة الزركلي:

الأهل أهلي والـديار ديـاري وشعار وادي النيرين شعاري[2]

---

(١) أي بعد منتصف الليل.

(٢) النيرب كانت قبيل (الربوة) في موضع (الدواسة)، وقد أكلت الشوارع الحديثة والساحات هذا كله.

ما كان من ألم بجلق نازل — وأرى الزناد فزنده بي واري
إن الدم المهراق في جنباتها — لدمي وإن شفارها لشفاري
دمعي لما منيت به جار هنا — ودمي هناك على ثراها جاري

كان الشاعر في مصر، فرّ إليها وأقام بها، لما حكم عليه الفرنسيون بعد ميسلون، كما فرّ إليها الدكتور شهبندر، والأستاذ محب الدين الخطيب، وفرّ إلى فلسطين الشيخ كامل القصاب.

والمدرّسون يعلمون الطلاب أن الأسلوب العلمي يعتمد على الأفكار، والأسلوب الأدبي على الصور. وأن الفكرة توصف بأنها صحيحة أو غير صحيحة، أما الصورة فتوصف بأنها جميلة أو غير جميلة، وقصيدة الزركلي مملوءة بالصور ولكنها ليست كالصورة في القصيدة العاطفية المدار فيها على الجمال وحده، بل على الجمال والحقيقة، لأن هذه القصيدة وأمثالها تاريخ فني، أو فن تاريخي، أريد أن أقول إنها لا تكمل إلّا إن جمعت بين الصدق وبين الجمال.

الصدق لأنها تاريخ ليست خيالاً، والجمال لأنها أدب ليست مجرد وثيقة. وقد جمع الزركلي فيها الحسنتين: خبر موثوق، في أسلوب جميل:

يا وامض البرق[1] اطمئن وناجني — إن كنت مطلعاً على الأسرار
ماذا هناك؟ فإن صوتاً راعني — والصوت فيه جفوة الأذعار

وجاءه الجواب يبين ماذا هناك:

النار محدقة بجلق بعدما — تركت (حماة) على شفير هاري
الطفل في يد أمه غرض الأذى — يرمى وليس بخائض لغمار
والشيخ متكئاً على عكازه — يرمى وما للشيخ من أوزار
لهفي على المتخلفين برحبها — كيف القرار ولات حين قرار

كيف يقرّون وهم يرون الظالمين يرصدونهم، يعدّون لهم كأس الموت وعدّة الهلاك أنهم:

---

(١) البرق هنا أي الأخبار البرقية، ولم تكن إذاعات.

يترقبون الموت في غدواتهم   وإذا نجوا فالموت في الأسحار
والظلم منطلق اليدين محكم   يا ليت كل الخطب خطب النار

ثم انطلق يرثي دمشق وحماه، وكل ما دمر الآثمون، وما قتلوا وما شردوا، يسائل الديار عن أهلها، والقصور عن سكانها، والرياض عن قطاتها:

أم القصور نواعماً رباتها   ما للقصور دواثر الآثار؟
أم الجنان الكاسيات رياضها   حلل السنا ما للرياض عواري؟
أم الحياة وللحياة نعيمها   هل في ديارك بعد من ديّار؟
زهو الحضارة أنت مطلع شمسه   أفتغتدين وأنت دار بوار؟

أكل هذا يرتكب باسم الحضارة؟:

ويح الحضارة كيف يمتهن اسمها   متكالبون على الضعاف ضواري

ولكن الضيم لا يدوم، وربما ثار المظلوم، والإحراج يسبب الإخراج، واللوم يومئذ على الظالمين:

هم أحرجوك فأخرجوك مهيجة   فصرخت فيهم صرخة الجبار
وإذا الظلام عتا تبلج فجره   ظلم الحوادث مطلع الأنوار

فلا تيأسي إن دمرت، فإن ما هدم يبنى، وما ذهب يعوض:

ما دمروك هم ولكن دمروا   ما كان فيك لهم من استعمار

* * *

لقد رأيت في هذا القرن الذي عشت ثلاثة أرباعه، مواقف كانت أسواقاً للشعر، وميادين سباق للبلغاء، لا يبقى شاعر لا ينظم فيها قصيدة فتكون معارض للبيان، يوم مات سعد مثلاً، ويوم بويع شوقي بإمارة الشعر، ويوم مات شاعرا العربية، شوقي وحافظ.

ومن هذه المواسم الأدبية الثورة السورية.

لقد عرضت هذه المختارات من قصيدتي شوقي والزركلي لأني ألقيتهما وحفظتهما، وعندي (في ذهني، وتحت يدي) قصائد أخر مما قيل في الثورة،

أكثرها ضاع ولم يبق ممن يحفظه إلاّ القليل، فهل ترون أن أجعل حلقة أخرى من هذه الذكريات للإشارة إليها، وإيراد مختارات منها؟.

إنها ليست من صلب موضوع الذكريات، ولكنها تأتي على هامشه، ولعل فيها متعة لكم ومنفعة، أكثر مما في هذه الذكريات، فهل تحبون أن أتكلم عنها؟.

إن قلتم نعم فموعدنا. الحلقة القادمة إن شاء الله وإن قلتم: لا. فالأمر لكم.

- ٢٩ -

من شعر الثورة

الجهاد جهاد بالنفس، وجهاد بالمال، وجهـاد باللسـان، ولئن خاض ميدان القتال (أيام الثورة السورية) رجال أبطال بسلاحهم وبأيديهم، فلقد خاضه الشعراء بألسنتهم وبقصائدهم، والله يجزي الناس بنياتهم، وبإخلاص عملهم لربهم. ولكن البشر يزنون الناس بأعمـالهم، وقد ذهب مـا صنع المقاتلون في المعارك ، ونسيناه وأحصاه الله وبقي ما قال الشعراء.

أفرأيتم بقاء الأدب في الدنيا، ومصارعته النسيان؟.

الذي لديّ من ذلك (أحفظه في ذاكرتي أو أجده مدوناً عندي على خلاف عادتي) كثير، فيه تاريخ الثورة، فإن لم تهتموا بهذا التاريخ، فإنكم واجدون فيه صوراً من حياة الناس في تلك الأيام، وأنمـاطاً من أسـاليب الشعراء المتعدّدة في الموضوع الواحد هذا، يوم كان الشعر شعراً، وكان الأدب أدباً، يوم لم يكن قد ظهر هؤلاء الذين عجزوا عن الشعر، لم يستطيعوا أن يصعدوا إليه، فحاولوا إنزاله إليهم. ولم يقدروا أن يحملوا أنفسهم على ما يستلزمه من بلاغة المنطق وموسيقية التعبير واتساق أبيات القصيدة في وزنها وفي قافيتها، فحمّلوا الشعر ركاكتهم وعاميتهم، ونشاز موسيقاهم، فكانوا كمن يشارك في جوقة تغني من مقام، انسجم معه السامعون، وألفته آذانهم، فغنى من مقام آخر. فشك الآذان وأذهب الطرب.

ولكن المصيبة أن الكلام لا ينفع معهم، لأنهم مثل الصم، وأنت تقوم

بينهم تعرفهم مزايا الأنغام، والفوارق بين المقامات، فهل يدرك الصم (أي الطرشان) دقائق النغمات؟.

* * *

وكان من كبار شعراء الشام شفيق جبري وإذا مدحته اليوم فلطالما اضطرتني ظروف الحياة إلى الهجوم عليه ونقده، كان رئيس ديوان المعارف، وذلك كوكيل الوزارة اليوم. والذي يتولى عملاً إدارياً له صلة قوية بالناس، يكثر خصومه، وكنت شاباً مندفعاً فهاجمته مرات، ولما فتحت مدرسة الأدب العليا وكان مديرها سنة ١٩٣٠ أو ١٩٣١ وسيأتي حديثها وعرَّف الأدب بأنه ألهية شريفة ردّدت عليه برسالة مطبوعة عنوانها (الأدب القومي)، ولكن لما نحِّي عن منصبه وجاؤوا بدكتور اسمه كامل أشرفية هاجمت الدكتور ومدحت جبري، ووضعت في رأس المقالة كلمة ابن هبيرة: ما رأيت كالفرزدق هجاني أميراً، ومدحني معزولاً.

وأشهد الآن وقد مضى للقاء ربه أنه كان شاعراً، ولعله أشعر أهل الشام، حاشا السنوات التي سبقت دخول الفرنسيين والتي توالت بعدها، واتّقدت فيها شاعرية خير الدين الزركلي وجاء بتلك الروائع.

نشرت قصيدة جبري أيام الثورة ـ ولم يصرح فيها باسمه ـ أسلوبه فيها وفي غيرها الأسلوب الأنيق، النظيف، وإن لم يكن بالأسلوب المتدفق الذي تحسّ بأنه ينطلق مندفعاً من طبع شعري غزير النبع. في شعره روح من نفس البحتري، وإن كان البحتري أجمل أسلوباً، وأكثر طبعاً. مطلع القصيدة:

مجد العروبة أقفرت عرصاته	والضيم حلَّ، فأين أين أباته
جرح بسيف البغي آلم وقعه	كبد الحياة فأين عنه أساته
وإذا الهوان دهى الحياة فموت من	أنف المقام على الهوان حياته

ثم يشكو علّة كانت فينا، ولا تزال فينا، هي أن منا من يعين عدونا علينا، ويكون معه من دوننا:

هل يبلغ الوطن المفدّى حقه وإلى بنيه من البنين شكاته
أيشاد معهد عزه وزمامه بيد العدو وهادموه بناته

ثم يذكر الجيوش التي حشدها العدو فوقفت لها وظفرت بها جماعات الثوار:

وفيالق حشد العدو خميسها في مأزق غصّت به لهواته
طلعت عليه كتيبة عربية فجرت على أسيافها مهجاته

فإذا رأيت الأسد سجيناً في قفص، فلا تظن أنك تمكنت منه، فإنه إذا كان الصدام رجع أسداً كما كان:

لا تزدر الليث الحبيس فربما عادت (وقد شهد الوغى) وثباته

وأعاد الصورة التي ذكرها شوقي حين ذكر الأيك والنار التي شبت من ورائه فقال:

ليست ليعرب فتية لم تحيه في موقف عجّت به فتيانه
برزت فغير الدوح لم تر مفزعا تحنو على أطفالها أثلاته
أتبيت نهب العاديات خدورها ويضمها الوادي ومنعطفاته
لا أعذر الصخر الأصم وقد وعى تنحابَها ألا تلين صَفاته

والدوح والأيك البساتين التي التجأت إليها اللواتي هدمت دورهن، وشردن هن وأطفالهن.

وثالث شعراء دمشق الأربعة الكبار يومئذ هو خليل مردم بك له قصيدة يقول في مطلعها - إن دمعه غاض - فمن يساعده على ذرف العبرات:

أمدّه الدمع حتى غاض جائده فمن بأدمع عينيه يرافده

وهو معنى قديم مطروق عبدته من كثرة ما مشت فيه أقدام الشعراء:

نضح البكاء دموع عينيك فاستعر عيناً لغيرك دمعها مدرار
من ذا يعيرك عينه تبكي بها أرأيت عينا للدموع تعار

ثم يصف ضرب دمشق بالمدافع، وإشعال النار في بيوتها الكبار:

أمسي الذي كان في جناتها فرحاً ... بمارج من سعير النـار واقده
النـار من فوقـه والنار دائـرة ... بـه فإن خـر أردته رواصـده
في كل زاوية رامٍ ومن نفروا ... شيباً وحوراً وأطفالاً طرائـده
ورب مكنونة كالدر ضن بـه ... على العيون فصانته نـواضده

وانظر هذه الصورة التي لم تكن بنت الخيال بل كانت بنت الواقع، صورة الأم التي قتلوا بعلها، فهربت تحمل طفلها، فأصابته شظيـة بترت يـده، فضمت إلى صدرها جسداً جريحاً ينزف دماً:

تخطت النار ليلاً وهي حاملة ... طفلاً قضى برصاص القوم والده
فلما تناءت بـه حتى أتيح لـه ... شظية بان منها عنـه ساعـده
ضمت إلى صدرها شلواً يسيل دماً ... كالطير هاض جناحاً منه صائده

لقد تمنى لهول ما رأى أن يكون أعمى حتى لا يرى:

يا هول ذلك من مرأى شهدت وقد ... وددت لو كنت أعمى لا أشاهده

* * *

أما محمد البزم رابع الشعراء، فهو جزل الألفاظ، ضخم التراكيب، وإن كنت كتبت عنه وأنا طالب، لما هجا أستاذنا الجندي في مجلة الميزان، عند أحمد شاكر الكرمي فقلت: إن شعره جدار من الحجارة لكنها مركومة كماً ما بينها ملاط. وكان ذلك في أواسط العشرينيات.

قصيدة البزم طويلة، على عادته في أكثر قصائده، سبعة وتسعون بيتاً من بحر واحد وقافية واحدة، وهي قافية تصلح للحماسة، كما تصلح للغزل والرثاء، فهي من ألين القوافي وأطوعها، ومن أرقها إن شئت ومن أقواها. مطلعها:

غادر دمشق ويمم دار سلطانا ... على السويداء لا تحفل بمن مانا
فتى العروبة، دفاع الكتيبة قد ... ضمت أشاويس وضائين غرانا

فيها مقطع عن حسن الخراط مطلعه:

من مبلِّغٍ من بياني كل شاردة   فتى العلى حسناً حَمْداً وشكرانا

وفيها نداء للجزيرة وأهلها:

بني الجزيرة والأنساب جامعة   والحازم الشهم يلقى الدهر يقظانا

يقول لهم، أما سمعتم وأنتم إخوتنا في الدين، وفي العروبة، بما نقاسيه؟ فكيف تقعدون عن نصرتنا؟ كيف تنامون على سرر النعيم، ونحن نتقلب على جمر الغضى؟ كيف تقرّون أسماعكم أصوات بلابل المغنين وعنادل المغنيات، ونحن لا نسمع إلاّ أصوات البارود يتفجر، والدور تنهدم، والأيامى يصرخن ولا من مجيب، واليتامى يبكون ولا من سامع؟

أين الحمية، بل أين العروبة، هل   غاض الوفاء وآض الود هجرانا

وينادي بني الشام:

قومي بني الشام هل مُصْغٍ فأسمعه   قولاً يؤجج في الأحشاء نيرانا

ويقول للفرنسيين:

أبناء (غلية)[1] لا كان انتدابكم   فقد أسال دماء العرب غدرانا

لا ترهقوا العرب فالعرب الكرام لهم   إن أُرهقوا وثبة الضرغام غضبانا

ويا بني (السين) نصحاً لا مراء به   والنصح يسمعه ذو الطيش أحيانا

دعوا الشآم وخلوا القاطنين بها   ويمموا غير ذي الأوطان أوطانا

* * *

ولصديقنا بل أستاذنا عز الدين (علم الدين) التنوخي قصيدة مطلعها:

قف في المنازل نادباً أطلالها   ماذا يفيدك أن تطيل سؤالها

قد أُحرقت عمداً دمشق فلم تعد   تصف الجميلة للورى وجمالها

لا وصلها ذاك الوصال وأهلها   في الغوطتين ولا الدلال دلالها

النار تمطرها العشية وابلاً   والعلج ويل العلج جاس خلالها

---

(١) بلاد الغال فرنسا.

لبثت ثلاثاً[1] والمدافع قذف		الرعد يقصف ما حكى جلجالها
ثلثا دمشق يهدمان تمدنا		ومن الدماء ترى به أسيالها
إن الدخان إلى السما متصاعداً		يشكو الحضارة والوحوش رجالها

والقصيدة في ثمانية وأربعين بيتاً كلها من هذا النفس: شعر مطبوع، وبحر طيع، وقافية لعلها أوسع القوافي وأسهلها، وأصلحها لكل فن من فنون الشعر، وَصَف المشهد الذي تكرّر في قصائد الشعراء، مشهد المخدرات قد روعن فخرجن مذعورات، والرجال الذين قتلوا، والأطفال الذين شرّدوا، فيا ليت واحداً من طلاب الأدب، يأخذ هذه الصورة، وما قال فيها كل شاعر، فيدرس في ذلك مذاهب الشعراء، وأساليب القول:

يا رب آمنة هناك بسربها		تغدو لتصلح دارها وعيالها
أمست وما غير السماء لحافها		ظلمًا ولا غير الطريق حمىً لها
برزت تصيح وشعرها متفرق		سترت به حذر العيون جمالها
وهناك نائحة تنوح لبعلها الثاوي		وتندب بعده أطفالها
الله للأطفال كيف غدت لقى		صرعى القنابل بعثرت أوصالها

ووصف ما لقيت (حماة) فقال:

أعلمت أن حماة لم يدعوا بها		حجراً على حجر يريك ظلالها
عرِّج على الوادي فليس به سوى		(العاصي) يريق من الدموع سجالها
وسوى النواعير التي بنواحها		تبكي حماة نساءها ورجالها

ولمحمد الشريقي قصيدة يقول فيها:

أريت جلق والنيران تأكلها		ومارد الغدر يغشاها فتضطرم
أمَضّها الرزء حتى أُفقَها رجم		وهاجها الحزن حتى دمعها ضرم

---

(1) هي الأيام الثلاثة التي احتل فيها الثوار دمشق من ١٨ ـ ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٥م ربيع الأول ١٣٤٤هـ.

رسـل التمـدن والإجـرام مثلبـة وليس يصلح لـلأحكـام مجتـرم
الصخر أكثر عطفاً من قيادتكم منه العيون ومنكم هذه الحمم
رسل التمدن إن كانت شريعتكم هدم البلاد قلى لا كان شرعكم
لا تحسبوا أن هذا الشعب يرهبكم إذا بغيتم فبغي النـاس قبـرهم

ومن قصيدة وجدتها عندي لشاعر اسمه علي منصور، لا أعرفه، من الشعر السهل الطري الذي يذكر بشعر أبي العتاهية. مطلعهـا:

ضـعـي لـظلمـك حـدا فـقـد تـزايـد جـدا
وغـادري الـشـام تـسكـن وأرض حـوران تهـدا
ولا يـغـرنـك جـنـد فـالحـق أكـثر جـنـدا

وعندي لشاعرنا الكبير خير الدين قصيدة قالها في رثاء فؤاد بك سليم من قواد الثورة الدروز، من هذا الطراز، وإن كانت أحسن سبكاً، وأجمل أسلوباً، كأن فيها من روح (البهاء زهير) حين يقول:

إن تـنس عـهـدي فـإني والله لم أنس عـهـدك

يقول فيها:

صـدقت والله عهـدك لا جف دمعي بعـدك
آلـيـت مـيتـة حـر ومـت تحمـل بـنـدك
قضيتَ حق الـعـوالي وأنت تقـتـاد جنـدك
عملت للمجـد حتى أدركت بـالموت مجدك

وللصديق الشيخ محمد سعيد العامودي، قصيدة يعارض فيها قصيدة ابن هانىء الأندلسي مطلعها:

القـوم قومـك والبنون بنـوك والـطامحون إلى العـلى أهلوك

يقـول فيها:

الملك ملك بني أمية نـاطق عن أمسك الزاهي وعن ماضيك
والسؤدد العربي والتاريخ قد شهدا المحاسن في ربى واديك
والمشرفية قـد روت وتحدثت عن عزة قَعْساء تكمن فيـك

أدمشق يا بلد الكرام ومعقل الـ أبطال في يوم القنا المشبوك
يا موطن الأحرار والأخيار من أهل الوفاء إذا دعا داعيك
إن هب في أرض الجزيرة معشر فالسابقون إلى الأمام ذووك
أو ثار من بين الأعارب ثائر فالثائرون الأولون بنوك

ومن قصيدة الصديق الأستاذ تيسير ظبيان يخاطب القائد الفرنسي:

ما جئت تلقي سلاماً في مواطننا لكن أتيت بتضليل وتمويه
لتسلب الشعب حقّاً لست تنكره فكيف تسلب مالاً أنت حاميه
أبالقذائف والنيران ترهبه وبالوظائف والأموال تغريه
إن السيوف التي كانت تجرعكم كأس المنية ما زالت بأيديه
فاحمل متاعك وارحل عن منازلنا (فصاحب البيت أولى بالذي فيه)

ومن قصيدة للأستاذ أديب التقي:

تلك العقائل من أدمى أناملها؟ من راع آمِنَها في الحندس الداجي؟
من فض برقعها؟ من حل مئزرها؟ من ساقها حاسرات بين أفواج؟

* * *

هذه نماذج مما قيل في (الثورة السورية) سنة ١٩٢٥، فيها موضوع دراسة للأديب، وذكرى للمذّكر، وعبرة لعاقل يريد أن يعتبر.

- ٣٠ -

النجاح في البكالوريا والسّفر إلى مصر

مرت بمكتب عنبر قبلنا أفواج وأفواج، لكن لم يلق واحد منها ما لقيناه من عقبات عند دخولنا إليه، وخروجنا منه.

كان مَنْ قبلنا يدخلون إليه من الباب المفتوح، فما هي إلّا أن يبرزوا الشهادة حتى يدعوا إلى الدخول، فوضعوا أمامنا نحن سداً لم نستطع أن نتخطاه بشهاداتنا وحدها بل بمسابقة أجروها بيننا، فلم يدخله إلّا السابقون منا.

وكان من قبلنا يمتحن في المدرسة، بما تعلم فيها، فيمنح إجازتها، ويخرج منها، فلما عدت إلى المدرسة بعد ابتعادي عنها، واشتغالي بالمحاسبة وبالتجارة، كان ذلك في سنة ١٩٢٧، وكانت عودتي إلى شعبة الأدب، ووفق الله وكنت الأول بين رفاقي.

في آخر تلك السنة حين لم يبق منها إلّا شهران، فوجئنا بإحداث نظام البكالوريا، وبقرار الفرنسيين أن تطبق علينا المناهج التي تطبق على طلاب فرنسا، وأن تقرر لنا الكتب التي كانت مقرّرة لهم.

واستعدّ لها من كان أمامنا الاستعداد الذي قدروا عليه، في المدة القصيرة التي كانت قد بقيت بينهم وبينها، وكانت نسبة النجاح ضئيلة، بل كانت مرعبة إذ كان الناجحون (فيما أذكر) لا يزيدون على ثلث الطلاب.

وكان منهم (أو كان فيمن يخطر على بالي الآن منهـم) جميل سلطان، وزكي المحاسني، و(أبو سلمى) عبد الكريم الكرمي، وبشير العظمة، ومنير شورى، وعبد الباسط العلمي، ومن حلب أسعد الكوراني.

وكنا نحن بعدهم، فتهيأنا من أول السنة لامتحان البكالوريا، ومن العجائب أني تركت شعبة الأدب ودخلت البكالوريا في شعبة العلوم!.

ومرت السنة وساقونا إلى الامتحان، في البناء الذي كنت حدثتكم عنه، لما انتقلت إليه مدرستنا (السلطانية الثانية) سنة ١٩١٩.

هذا البناء القائم بين التكية الكبرى (تكية السلطان سليمان القانوني)، والتكية الصغرى (تكية السلطان سليم) على نهر بردى، بعمارتها التي تشبه قصراً صغيراً من قصور أوروبا في القرون الوسطى.

جمعوا فيه لهذا الامتحان الرهيب طلاب الثانوية الرسمية (مكتب عنبر) والمدارس الأهلية الإسلامية، والمدارس النصرانية: العازارية، والفرير، واللاييك وغيرها، وطالبات هذه المدارس كلها.

وجاء اليوم الذي لا أنساه، يوم وقفنا نستمع إلى (دنلوب) سوريا المستشار المسيو (راجيه) يقرأ أسماء الناجحين وكان قلبي كما قال الشاعر:

كـأن قطاة ركبت بجنـاحهـا　　على كبدي من شدة الخفقان

ويظهر أن الشاعر من كثرة اضطرابه خلط بين الكبد وبين القلب[1] وكانت كل خلية في جسدي أذناً مرهفة تستمع. أتصور الرسوب فأنظر أين أهرب حتى لا يراني الناس، وإلى أين أهرب حتى لا يعيِّروني برسوبي، تمر عليّ الخواطر كأنها شريط سينما، قد أفلت فهو يكر بسرعة حتى ما يستطيع الناظر إليه أن يتبين مشاهده، لا أنظر إلى أحد ولا ينظر إليّ أحد، قد شغل كل بنفسه. وفجأة سمعت المستشار ينادي: بوش ـ غا ـ كود ـ سي آلي ـ تان ـ تاوي (أي بشرى قدسي علي طنطاوي).

لما سمعت اسمي لم أعد أبالي بشيء، وصار همي أن أجد طريقاً لأحمل فرحتي، وأخرج بها لئلا تسقط مني وسط الزحام. لقد كانت إحدى الفرحات

(١) والعرب تسمي القلب كبدا.

القليلة، التي أحسست بها في حياتي. فهل يكتب لي أن أسمع اسمي مع الناجحين مرة ثانية، في الامتحان الأخير الذي ليس له دورة ثانية، ولا لمن خسر فيه سبيل إلى إعادته؟ والله مالي عمل أقدمه لأستحق به النجاح في ذلك اليوم ما أتكل إلاّ على كرمك. يا كريم، يا أكرم من كل كريم، يا رب.

ثم كانت مفاجأة أخرى

جاء كتاب من خالي محب الدين يخطب أختي لشريكه عبد الفتاح قتلان فوافقت هي ووافقنا، ودعاني أن أذهب بها إلى مصر.

إنكم لا تدرون ماذا أثارت هذه الدعوة في نفسي من مشاعر، وفي ذهني من خواطر.

كانت مصر في خيالنا يومئذ دنيا مسحورة، فيها العجائب، وكل مرغوب فيه يأتينا منها، المجلات والصحف، الحركات الفكرية والوطنية تنبثق منها، الرجال الذين نقرأ لهم، والشعراء الذين نحفظ شعرهم منها، وكان تخيل ذهابي إليها، أكبر من أن يمر وصفه من شق القلم، والتعبير عنه مهما كان بليغاً، لا يبلغ حقيقته.

وكنت أسمع أن الأحرار من أرباب الأقلام، ومن عشاق الحرية يؤمون مصر: أستاذنا محمد كرد علي، ومن قبله شيخ مشايخنا السيد رشيد رضا، ومن بعده خالي وأستاذي محب الدين، يأتون من كل مكان من المغرب من الجزائر من تونس من ليبيا.

فلما طلب إليّ أن أسافر إلى مصر، تراءى لي هذا الحلم دانياً كأني ألمسه ولكن كيف أترك أمي وما عشت يوماً بعيداً عنها، وقد صرت أنا رجل البيت (كما يقولون) بعد موت أبي؟ وكيف أفارق دمشق، وأنا لم أخرج منها إلاّ إلى ضواحيها وقراها، حتى بيروت أقرب المدن إلينا، وأمسُّها صلة بنا ما زرتها ولا عرفتها؟.

وإذا كنت أعجز عن السفر، وحدي، فكيف أتولى أمر أختي وحمايتها وحمل أمانة صيانتها وإيصالها؟.

وأُعِدَّ جواز السفر، ولا يزال عندي (في دمشق) بأختامه وسماته وتأشيراته، كنت على عتبة العشرين، وكانت أختي أصغر مني بما لا يزيد إلّا قليلاً عن أربع سنين، ولكني مع ذلك أذكر يوم ولادتها، أراه واضحاً من وراء سبعين سنة، فكيف أذكره وقد كنت ابن أربع سنين؟.

كنت مع عمتي في دار الشيخ عبد الوهاب، وهو خال أبي ولكني أدعوه عمي، وكانت لنا جارة من فرط حبها لنا وصلتها بنا، وأنها ربتني وأولتني من حبها - لا أقول مثل الذي أولتني أمي - ولكن قريباً منه، لقد كبرت ولا أعتبرها إلّا قريبة لي، جاءت تخبرنا أن أمي في المخاض، وهي تريد أن تأخذنا إليها، وتأخذ القابلة في طريقها.

وكانت بين الأحياء بوابات تغلق بعد العشاء، ويقوم الحارس من ورائها فلا يفتح إلّا لمن عرفه، واطمأن إليه، فنادينا من وراء البوابة: قضية ولادة، نريد أن نأتي بالقابلة ففتح لنا.

* * *

وكنت أسمع من صغري أن لي عمًا في اسطنبول يلاحق دعوى قضائية على وقف بيننا وبين آل الصلاحي، بقيت في المحاكم ما بين دمشق واسطنبول.... تدرون كم؟ قد لا تصدقون إن قلت لكم (وما أقوله الحق) ثلاثاً وثمانين سنة!!. مات من أقام الدعوى، ومات من أقيمت عليه، ومات أولادهم، وجئنا نحن فما أدري والله هل كان الحق معنا أم كان علينا، ولكن أهل (باب المصلّى) في دمشق يسمون البستان المتنازع عليه (جنينة الطنطاوي)، والله أعلم. فما قيمة حق يصل إليه صاحبه بعدما يموت هو، ويموت ولده؟ أتدعو ضيفاً إلى عشاء، فتؤخره حتى يموت من الجوع، ثم تتصدق به على قبره؟ وكنت أسمع أن لي خالاً في مصر، يكتب في الصحف في المؤيد والأهرام، وله مطبعة وله مجلة، ثم قدم أيام الاستقلال ثم حكم عليه بعد ميسلون، ففر إلى مصر.

السفر من محطة الحجاز

وجاء يوم السفر، وكان اليوم الثامن والعشرين من أيلول (سبتمبر)

١٩٢٨ وجئت محطة الحجاز، هذه العمارة التي كانت (وأظنها لا تزال) تحفة في فن البناء، ومثلها وإن كانت دونها في جمالها، محطة العنبرية في المدينة، وقد سمعت أنهم يفكرون في هدمها. فإذا قبلتم مني، فدعوها، دعوها فإنكم إن تهدموها تقتلوا رجلاً في ذهنه تاريخ، وفي جعبته تحف، ومعه قطعة من بلادكم فلا تبتروا قطعة عزيزة من جسد بلادكم.

وكانت المحطة مائجة بأهلها كما يموج البحر بمياهه، فمن مسافر عجِل ومن مودع باك، ومن بائع ينادي، ومن آت وذاهب، وطالع ونازل. وكنت منزوياً في ركن من أركان القطار المسافر إلى حيفا، وإلى جانبي أختي الصغيرة، انظر إلى بعيد، فأرى هناك، في أخريات الناس امرأة تمسك بيدها طفلين، متلفعة بملاءة لا تبدي منها شيئاً، ولكن وراء هذا القناع الأسود عينين تفيضان بالدمع، عالقتين بمكاننا في القطار، وخلال تلك الضلوع قلباً يخفق شوقاً، ويسيل حباً، ووراء هذه الوقفة الساكنة الهادئة ناراً تضطرم في الجوف، وزلزالاً يدكُّ نفسها دكاً، بَيْد أنها صبرت على هذه كما صبرت على غيرها، فأجزل اللهمّ لها الأجر على هذا الصبر.

وصفر القطار يحملنا إلى مصر فازداد القلب خفقاناً واضطراباً، ثم نفث دخانه كأنما هو حي تملّكه موقف الوداع فزفر زفرة الحزن الدفين، والألم الحبيس، ثم هدر وسار وراحت المحطة تبتعد عنا، وعيني عالقة بيد تلك المرأة التي تلوح لي بمنديل أبيض... حتى غاب عني كل شيء:

وتلفتت عيني فمـنذ خفيـت عني الـطلول تلفت القـلب

هنالك رأيتني وحيداً، ورأيت القطار يجدُّ لينأى بي عن أهلي وبلدي[1].

* * *

كان القطار يسير من دمشق إلى حيفا النهار بطوله، فإذا وصل حيفا مساء، بات المسافر فيها، حتى يصبح فيركب قطار فلسطين الذي يخرج في الثامنة صباحاً، فيمشي إلى حدود القناة، وهنالك ينزل منه المسافرون فيركبون

(١) هذه قطعة من مقالة لي في (الرسالة) سنة ١٩٣٧.

(معدية) تنقلهم إلى الضفة الأخرى منها، فيجدون قطار مصر، الذي يصل القاهرة الساعة العاشرة والنصف ليلاً.

* * *

خلفت ورائي عالمي الذي أعرفه كله، وأقبلت على عالم، كله جديد، وكنت موزع اللب بين حزن الفراق، وحماية الأخت، والتطلع إلى ما أنا مقبل عليه.

وأنا لا أحب السفر إلّا في القطار، فإنك تستطيع أن تقوم فيه وتقعد وإذا نعست قدرت أن تنام، وإذا جعت وكان معك مال قصدت المطعم وأنظف المطاعم عادة وأغلاها، مطاعم القطارات، تأكل والدنيا تمر بـك، تمشي أمامك مشي الجند أمام القائد الذي وقف يعرضها (أي يستعرضها)، تبدأ غداءك أو عشاءك في بلد وتنتهي منه في بلد، وإذا وقف القطار في محطة استطعت أن تخرج فتمشي فيها...

لا كراكب الطيارة الذي يسافر كأنه محبوس مصفّد بالأغلال، عالمه الذي يستطيع أن يتحرك فيه ما بين مقعده، والحمام أو موضع التدخين، وإن كان سفرك طويلاً، وكان جارك مزعجاً، أو كانت أماً معها أولاد لا يسكنون ولا يسكتون، كانت السفرة تعذيباً وعملاً شاقاً.

ولقد ضايق الأولاد المضيفة مرة، يعدون بين رجليها، يكادون يسقطون طباقها وكؤوسها فقالت لهم: يا أولاد اقعدوا أو اطلعوا إلعبوا (برا)!

وكنت أنا وأختي من ركاب الدرجة الثالثة اخترناها لأن القطار لم يكن فيه درجة رابعة، وما أكلنا في المطعم ولا عرفنا أن في القطار مطعمًا يأكل فيه الناس، وما أدري فلعل قطارات تلك الأيام لم تكن فيها مطاعم.

كنت مقدماً على عالم مجهول، فلا أخـطو خطوة إلّا بعـد التفكر في عواقبها. ووصلنا حيفاً، ورأيت البحر أول مرة في عمري، ما رأيته قبلها، وكنت خائفاً ولكني أتجلد وأتظاهر بالجرأة والمعرفة، هل أطلع أختي على تهيبي وخوفي؟.

ومشينا وأنا أوهمها أني أدري إلى أين أسير، وما كنت أدري شيئاً حتى رأيت لوحة فندق فدخلته، وكان أول فندق أدخله في حياتي. . .

قلت لكم: أني لم أخرج من دمشق من قبل إلاّ إلى ضواحيها وقراها، فمن أين لي معرفة الفنادق، وما الذي يدعوني إلى دخولها؟.

أخذنا غرفة وضعنا فيها حقائبنا، وخرجنا فوجدت مطعمًا، أعني مكاناً يبيع الحمص والفول، وكان فارغاً فقعدنا وأكلنا، وهي لا تعرف كيف تأكل والناس ينظرون إليها، أتكشف وجهها أم تأكل والخمار مسدل عليها؟ ومر الأمر بسلام، فلم يكن هناك أحد. وخرجنا نرى البلد، فمن جهلي دخلت المرفأ المظلم بدلاً من أن أقصد الشوارع المضيئة، ثم خفت أن يظن الناس بنا شراً، إذ يرون شاباً وبنتاً منفردَيْن في المرفأ الخالي فخرجنا، ولم أهتدِ إلى طريق البلد، فأظهرت أني أريد النوم، حتى ننهض مبكرين لنلحق القطار، مع أن محطة القطار إلى جنبنا، ما فارقناها ولا ابتعدنا عنها.

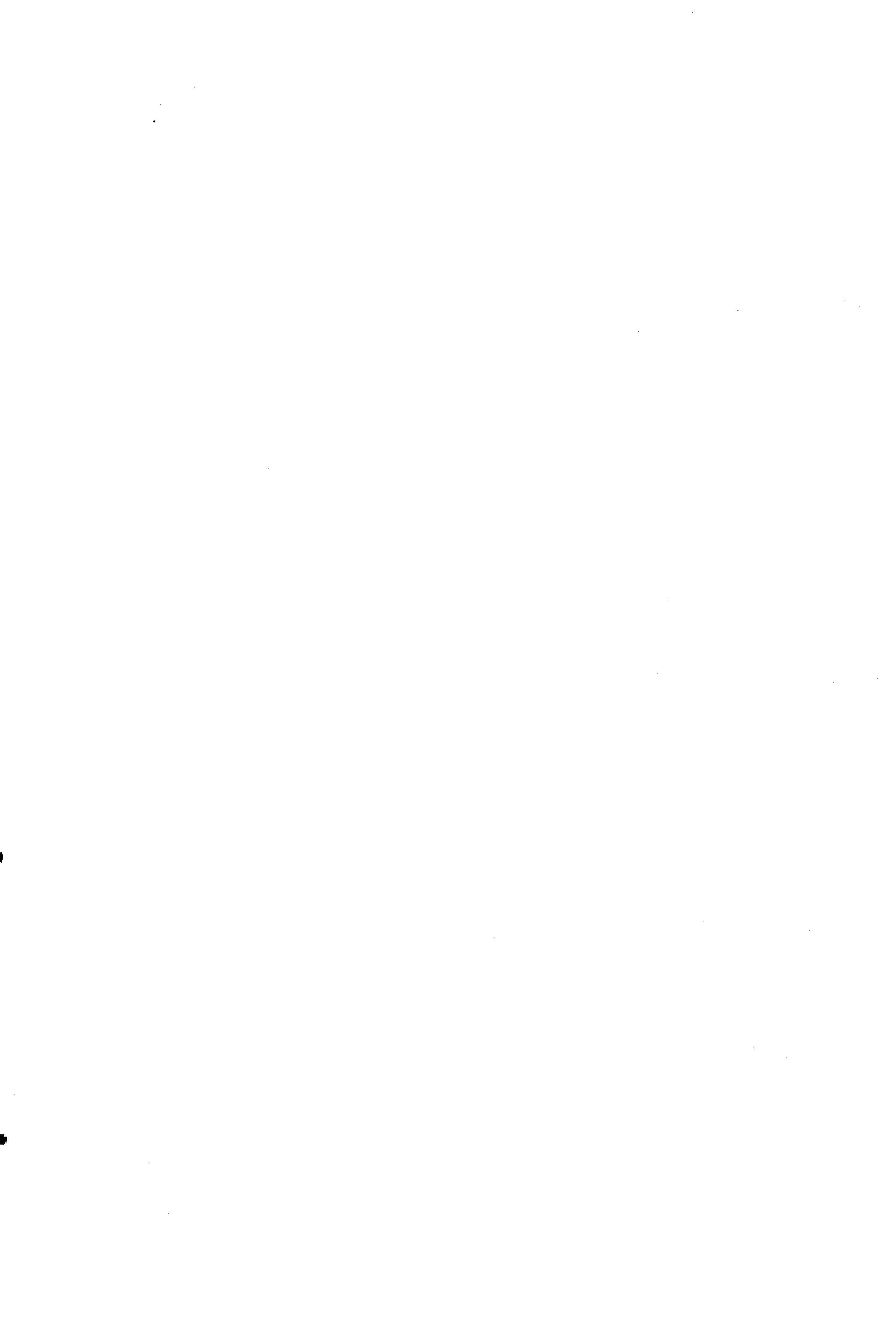
* * *

كانت جنات أضعناها

وأصبحنا فركبنا قطار فلسطين، ومرّ على تلك البلاد والبساتين التي كانت جنات أضعناها، لما تركنا الواغلين يدخلون علينا، وبعناهم أرضنا، واختلفنا وتنازعنا حتى اتحدوا علينا، وأعانهم ناس ليسوا من دينهم، ولكن عداوتنا، وبغضهم لنا وحَّدَهم علينا.

ولما قطعنا الترعة، وصرنا في قطار مصر أمنت، وسكنت نفسي لقد عرفت أني سألقى من يستقبلني ويدلني، وسأطرح ثقل الأمانة عن عاتقي.

ومررنا بالقرى والمدن، فصرت أتطلع إليها مطمئناً، وأتأملها، وأستمتع بجدة المناظرة، والوصول إلى ما كنت أعدّه من المجهول، حتى إذا قيل: هذه مصر، ورأيت محطة باب الحديد، رأيت شيئاً عظيمًا، كان فوق ما كنت أتخيل.



- ٣١ -
اليوم الأوّل في مصر

كانت سفرتي إلى مصر سنة ١٩٢٨ أكبر حادث حدث لي في شبابي، ترك أعمق الآثار في نفسي وفي فكري وفي سلوكي، ولكن الخسارة التي لا تعوض أني لم أدوّنها في حينها.

كنت كالذي زعموا أنه وصل إلى (الكنز المرصود) فوجد ركاماً من الذهب والحلي، وأكواماً من الجواهر والألماس، فلم يحمل ما يقدر على حمله منها، بل دفعه الطمع إلى أن يبحث عن غيرها، علّه يجد أغلى منها، فلما تركها وابتعد عنها، ضلّ طريق العودة إليها، فلم يبلغها ولم يرجع بشيء منها.

فخذوها نصيحة مني، نصيحة من مجرب يريد أن يجنبكم عواقب السيّء من تجاربه: دوّنوا كل ما يمر على أذهانكم من أفكار، وما يعتلج في نفوسكم من مشاعر، اكتبوه في حينه، فإنكم إن أجّلتموه فتّشتم عنه فلم تجدوه.

فيا ليتني كتبت ما أحسسته وما فكرت فيه ساعة وصولي إلى مصر، تقولون اكتبه الآن.

الآن؟ هيهات! فلا أنا الآن (أنا) في ذلك اليوم، ولا مصر مصر، ولا أهلوها أهلوها، لا أقول إنهم كانوا أحسن، أو إنهم كانوا أسوأ، بل أقول إنهم تغيروا، ومنذا الذي يا عزًّ لا يتغير؟[1].

---

(١) الذي اختاره العلماء أن تكتب (منذا) موصولة الحروف كالكلمة الواحدة. والنداء المرخم كقوله (يا عز) يجوز بفتح الزاي أو بضمها، وهذه فائدة على الهامش.

وهب أن مصر ما تبدلت، أفما تبدلت أنا؟.

نحن نرى الدنيا من خلال نفوسنا، كالذي يبصر وعلى عينيه النظارات: إن كانت النظارة دخانية رأى الدنيا معتمة، وإن كانت زهراء رآها مشرقة، وإلاّ فلماذا يصف الشاعر الفَرِح الدنيا ضاحكة، ويصفها الحزين باكية، والدنيا هي الدنيا ما ضحكت ولا بكت، ولو كانا مصورين لملأ الأول لوحته بالألوان القاتمة، وجعلها الثاني زاهية الألوان، والمشهد واحد أمامهما، ألا يمكن أن تكون فلسفة التشاؤم عند بعض الفلاسفة، آتية من صداع ملازم، أو عسر هضم، سوّأ عيشه وسوّد الدنيا أمامه؟ فما قيمة فلسفة كان يهدمها دواء مُسَكّن، أو عقار[1] هاضم ثمنه نصف ريال!.

لقد كانت صورة رائعة لمصر تلك التي انطبعت في نفسي ساعة وصلت إليها ولكني لم أستخرجها وأحتفظ بها، بل صورت المشهد بعدها من غير أن أدوّر (الفلم)، فجاءت عشرات من الصور، بعضها فوق بعض، فتداخلت خطوطها واختلطت معالمها، ولم أعد أستبين واحدة منها.

وهل يعود الشباب؟!

فهل أسجلها الآن بعدما مر عليها أربع وخمسون سنة؟ بعدما فقدتها؟ لقد سقطت مني في مسالك الحياة، وفي مسارب العمر. إن الذي يسقط منه شيء يعود أدراجه يفتش عنه في الطريق الذي جاء منه، فمن لي بأن أعود لأسلك كَرَّةً أخرى طريقي في الحياة؟.

أعود إلى الشباب؟ إلى سنة ١٩٢٨ وما بعدها؟.

لقد انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها حلم وكأنهم أحلام. في الحلم يغفل العقل، أي يغيب الرقيب، فتنطلق الأماني المحبوسة، وتتكثف وتتجسد أمامك حتى تحس بها: تراها، تلمسها، تكلمها، تعيش فيها، كل ما كنت تتمناه تراه قد جاءك من غير أن تمد إليه يداً أو تخطو إليه بقدم. إن كنت فقيراً تمنى الغنى تدفق عليك المال، وإن كنت عاشقاً بلغت الوصال، تشعر أنك تطير

(١) واحد العقاقير عقار بالتشديد.

على ظهر الرياح، بلا طيارة ولا جناح.

ثم يصحو النائم ويتصرم الحلم، فإذا العالم الذي كنت تعيش فيه، ليس إلّا صورة في فلم، أو مشهداً في لوحة راء[1] انقطع عنه التيار، فإذا اللوحة بيضاء!.

إن الذي فات مات، كما تقول المسرحيات، ويستحيل أن ترجع في الدنيا الأموات.

* * *

تركتكم في الحلقة الماضية في محطة باب الحديد، بلغتها بعدما ظننت أني لن أبلغها، فقد كانت تلك السفرة أمتع وأقسى ما مر بي، كنت كالغريق فلما رأيت خالي ومن جاء معه لاستقبالي أحسست كأن يداً تمتد إليّ تمسكني ثم تنقذني، وخرجت معهم، وهم يسألونني عن سفري، وأنا أجيب بنصف ذهني، ونصفه مشغول بتأمل ما أرى، كنت في مثل نشوة الحالم، فأنا معهم بجسدي، وأنا بعيد عنهم بنفسي، كنت أعلم أن الحلم يمّحي إن تيقظ الحالم، فما لهذا الحلم العجب يبقى معي، أحيا فيه ولست نائمًا؟.

ألا ينام أهل مصر؟!

لا تعجبوا فإن السيّاح الذين يجوبون أقطار الأرض، والذين جزعوا مشرقها ومغربها، يجدون في مصر إذا جاؤوها ما يرغبهم فيها، ويشدّهم إليها، فكيف بشاب على أبواب العشرين، لم ير في عمره بلداً غير بلده دمشق، ودمشق على جمالها وبهائها لم يكن فيها يومئذ مثل ما في مصر من الميادين والشوارع والحدائق والمتاحف ولا كان ذلك في شيء من مدن الشام والعراق.

وأول ما أدهشني أننا خرجنا من المحطة وقد انتصف الليل أو كاد، في

---

(١) كنت قد سميت الراديو من قديم الراد (اسم فاعل) لأنه يرد علينا الصوت الذي يخرج من الإذاعة، فلما جاءنا التلفزيون أيام الوحدة كلفوني وضع إسم له، فوجدت أن المعنى الحرفي للتلفزيون هو الرؤية من بعد، كما أن معنى تليفون الصوت من بعد، والتلغراف التخطيط من بعد (وكلها من اليونانية) فسميته (الرائي). بمعنى المرئي كقوله تعالى ﴿ في عيشة راضية ﴾ أي مرضية، على طريقة المجاز العقلي.

الساعة التي تغلق فيها الحوانيت في الشام، وتخلو الطرق، وتنام المدينة... فإذا الشوارع هنا مزدحمة بالناس وحافلات الترام ممتلئة، والدكاكين مفتوحة، أفلا ينام أهل مصر لا في الليل ولا في النهار؟.

ووصلنا الدار في موهن من الليل[1] فزاد دهشتي أني وجدتهم يعدّون العشاء، ورأيت بعد أن هذه عادتهم كل يوم: يبقى خالي في المطبعة إلى أن يمضي ثلث الليل والشغل دائر، والمطبعة شغّالة، ثم يخرج إلى ميدان باب الخلق حيث عربات بياعي الفواكه، التي تدفع باليد، وعلى كل عربة مصباح من مصابيح الغاز التي تدعى في مكة (الأتاريك)[2]، فيشتري بعض ما يجد: بلحاً أو عنباً أو تلك التي كرهت ريحها من أول يوم فما أكلتها، الجوافة، ويأخذ البياع ورقة يلفها على هيئة القمع الكبير، يضعها فيها، ونصعد بها إلى الدار، وكانت الدار فوق المطبعة، فنجد العشاء.

وأوينا إلى مضاجعنا عشية وصولي مصر وقد شاخ الليل، ودنت ساعة السحر، ولكني لم أنم. إن الذي تبدل وسادته أو تغير غرفته لا ينام، فكيف بمن ودع حياة ألفها وعرفها في بلده، وجاء يبدأ حياة في بلد آخر لم يألفها ولم يعرف عنها إلّا أقل من القليل؟.

وجعلت أتقلب على الفراش، حتى سمعت أو خُيّل إليّ أني سمعت أذان الفجر، فقمت لأتوضأ وتحققت من دخول الوقت، فصليت وعدت أحاول النوم، وما قام للصلاة أحد ممن كان في الدار، وكان ذلك ثاني ما أدهشني.

وبلغ مني النعاس.. بعد مشقة السفر، وطول السهر، ولكني لم أنم إلّا لماماً. إن من يصل ليلاً إلى البلد الجديد، يبيت متطلعاً يرقب ضياء النهار ليرى ما الذي كانت تخفيه ظلمة الليل، وإن كان ليل القاهرة ما فيه ظلام..

إن شعوره كشعور من تأتيه الهدية يعرف نفاستها ولكن يجهل نوعها فهو يفكّ شريطها، أو يفتح صندوقها، تتجاذبه فرحتان: انتظار الشيء النفيس،

---

(١) أي في نصف الليل.

(٢) ولعلها محرفة عن (الكتريك).

وكشف المجهول الجميل، أو كمن يشتري القصة البارعة، حين يفتح أول صفحة منها.

* * *

ونهضت (كما نهضوا) ضحى، فأكلنا الفول، وفول مصر صغير لذيذ، وفول الشام كبير، ولهم في إعداده طريقة غير طريقة أهل الشام، أما ثمنه فيكفي أن أقول لكم: إن خالي كان يسلم زوجته كل صباح ريالاً، تشتري منه الغداء والعشاء ولا بدّ فيهما، من ـ طبخ ورز ولحم ـ والفاكهة والأنقال، لثمانية أشخاص وقد تبقى من الريال بقية...

ونزلت إلى المطبعة في شارع الاستئناف، فخرجت منه إلى ميدان باب الخلق، وكان أكبر من (المرجة) الميدان الوحيد في دمشق، أبصرت فيه النيابة والمحافظة من هنا، ودار الكتب، والمتحف الإسلامي من هناك..

وكانت مصر (أعني القاهرة) كبيرة في تلك الأيام، وليست مدينة ولكنها في حقيقتها مدن في مدينة.

مدن مشت من حيث مشى التاريخ، أولها أول التاريخ الإسلامي في مصر (الفسطاط) التي بناها الصحابي الفاتح عمرو بن العاص وهي مصر القديمة، ثم امتد التاريخ وامتدت القاهرة فجاء أحمد بن طولون فبنى مدينة القطائع، وهي حي السيدة، ثم جاء جوهر قائد المعز العبيدي فبنى القاهرة، ثم كانت أيام الحملة الفرنسية فسكنوا عند العتبة والأزبكية.

ثم تواصلت هذه المدن، وتداخلت وكانت مصر الجديد في سنة ١٩٢٨ منفصلة عن القاهرة، وشبرا كانت مثلها.

ولو ترك الأمر إلى خالي لما رأيت من مصر شيئاً، لأنه ما كان يخرج من مطبعته إلاّ إلى جميعة الشبان المسلمين التي سيأتي قريباً حديثها، ولكن شريكه صهري الجديد، وزوج أختي هو الذي أراني ملامح القاهرة.

أخذني إلى النيل، ففهمت لماذا يدعوه المصريون بحر النيل، ما رأيت قبله

مثله، وهل رأيت قبله إلّا بردى؟ وكان بردى وأولاده جميعاً (يزيد وتورا والقنوات وباناس والقناة والديراني)، كانت كلها أصغر من ترعة واحدة من ترع النيل ولكن لا أحب أن أظلم بردى، إنه فقير ولكنه جواد كريم، إنه يخرج من أرضنا نبعاً، ثم يدخل في أرضنا ليعود فيخرج زرعاً، لا نضيع قطرة منه، وإن قرأتم في كتب الجغرافية أنه يصب في بحيرة (العتيبة) فاعلموا أنه يصل إليها مرة في كل خمسين سنة، إنه يصب في الأرض الطيبة ليخرج الله به الثمر الطيب، على حين يحمل النيل العظيم، ماءه الكثير، ليرميه في البحر.

الأوبرا والعتبة الخضراء

ذهبنا إلى العتبة الخضراء: وكانت قلب البلد، وإلى جنبها ميدان الأوبرا، ورأينا (وكانت هنا الدهشة الثالثة) رأينا الأصنام والتماثيل، وسط الميادين والساحات، ورأينا متاجر ما عرفنا في دمشق مثلها، عمارات كاملة فيها كل شيء مما يؤكل أو يلبس أو يفرش أو يكون زينة وحلية وتحفاً: أوزدي باك، عمر أفندي، وصيدناوي، وشيكوريل، وما فيهم مسلم ولا عربي ولا مصري أصيل، ومما سمعت من العجب أن أوزدي باك اشترى اسم عمر أفندي، وكانت تلك أول مرة أسمع فيها أن اسمًا يباع.

ثم درنا من حول (درابزين) حديقة الأزبكية، حيث تباع الكتب القديمة كما تباع على نهر السين في باريس، وكانت الأزبكية نظيفة مخدومة، وسلكنا شارع فؤاد ورأينا على جانبيه كل بضاعة يحتاج إليها أو يرغب فيها، معروضة عرضاً يغري المستغني عنها بطلبها.

إلى أن وصلنا إلى الجسر (ويسمونه هناك باسم التركي: الكوبري) وهو من الحديد مسقوف بعمد الحديد، فجزناه من فوق النيل الكبير إلى الزمالك، حيث تقوم بقصورها غير بعيدة عن بولاق بأكواخها، إلى النيل الصغير، على جسر كانوا يسمونه (كوبري بديعة) نسبة إلى رقاصة من شتورا في سهل البقاع، بين لبنان الشرقي والغربي، جاءت مصر فأعطتهم مرقصاً أقامته، كان مفسدة للشبان لما يستباح فيه من المحرمات، وكان مدرسة من مدارس إبليس لتخريج الراقصات، وأخذت منهم مالاً كثيراً، واسمًا جعلوه مشهوراً.

وعدنا يمشي بنا (الترام) إلى جنب النيل الصغير، وهو عن شمائلنا وما على إيماننا (كما أذكر) بناء ولا عمران، إنما هي حدائق أو بسائط من الأرض، حتى بلغنا أجمل وأعجب مكان في مصر يومئذ وأحبه إلى السائحين والزائرين: حديقة الحيوان، لما كانت في عزها، وكانت رابعة حدائق الحيوان في العالم في سعتها وبهائها، وكثرة ما فيها من الحيوانات، وكان يمضي المرء يومه كله فيها فلا يحيط بها ولا يملها، ثم وصلنا الجيزة، وما بعدها شيء إلّا (تراماً) يمشي في خلاء من الأرض إلى الهرم، ما دون الهرم مساكن ولا سكان، وقد سمعت أنه صار الآن شارعاً معموراً لا عمران العلم والفضيلة والإيمان، بل الفن واللهو والخسران، والله أعلم بصحة ما سمعت.

* * *

ولما كان مساء اليوم الأول من أيامي في مصر، أخذوني في جولة أخرى ثم دخلنا حديقة الأزبكية، إلى زاوية منها كانت مقهى ومسرحاً، فلما وصلت إليها أحسست كأني أدخل ماخوراً، أو كأني العذراء تلج دار الفواحش، وفررت مذعوراً.

قالوا: مالك؟ قلت: قهوة؟ أنا أقعد في قهوة؟.

كانت القهوة عندي في منطقة الممنوعات، أفترون هذا صواباً؟ لقد عرفت بعد حين أنه كان بعيداً عن الصواب.

إن الصعوبة في تخطي الحدود، فإذا بدلنا مكانها، وأدخلنا المكروهات في دائرة المحرمات، سهل على مرتكب المكروه اقتراف الحرام، وطال جدالنا، وتجمع الناس من حولنا، ثم غلبت على أمري فدخلت ولم تمض إلّا ربع ساعة حتى أطفئت الأنوار، وبدأ عرض فلم من أفلام السينما.

والغريب أني لم أنكر السينما مثلما أنكرت المقهى، لأنهم أرونا فلمًا عن حرب (شناق قلعة)، خلال الحرب الأولى، فتعودت رؤية الأفلام، والعادة هنا تثبت من مرة واحدة!.

وكانت سينما صامتة، لم تكن قد نطقت بعد، وأظن ظناً لا أحقق تحقيقاً،

أن السينما نطقت بعد ذلك بقليل، وأنها حين نطقت ظهر (الفلم العربي) في مصر.

* * *

في تلك الأيام كانت الدعوة الإسلامية تتمخض في مصر، لتأتي بمولود جديد، وكان ظهور كتاب (الشعر الجاهلي)، ومن قبله كتاب (الإسلام وأصول الحكم)، مثل أجراس الإنذار، وصيحات التحذير، فنبهت النائمين من العلماء والمصلحين ، وكان إنشاء مجلة الفتح، ثم ولد المولود الجديد: جمعية الشبان المسلمين.

وكانت بداية الدعوة الإسلامية النظامية، وفي الحلقة القادمة القليل الذي أعرفه عنها.

- ٣٢ -
ظهور الدّعوة الإسلاميّة في مصر

لا أزال في الكلام عن سفرتي الأولى إلى مصر سنة ١٩٢٨، وقد تعجبون إذ أؤرخ تارة بالتاريخ الميلادي وتارة بالهجري، إني أكتب التاريخ كما هو عالق بذاكرتي، وكان خيراً لنا جميعاً، وأولى بنا أن نقتصر على التاريخ الهجري، وإن احتجنا إلى توضيح وضعنا الميلادي بين قوسين.

شهدت في تلك السفرة بداية الدعوة الإسلامية (المنظمة)، لا أقول إنها لم تكن دعوة قبلها، أو لم يكن دعاة فكل من عرفت من مشايخي، وكثير من أساتذتي، كان من أكبر ما يهتمون به ويقبلون عليه، دلالة الناس على الله، وإرشادهم إلى طريق رضاه، كانت الغاية واحدة ولكن تعددت الطرق إليها، بتعدد اجتهاد أصحابها وما انقطعت الدعوة أبداً، ولكنا كنا في (عصر انتقال) كالذي مر به المسلمون في صدر الدولة العباسية، ومر به الرومان لما اختلطوا باليونان، ولقد كانت هذه الظاهرة[1] موضوع أول محاضرة ألقيتها سنة ١٣٤٥هـ وأنا يومئذ طالب، ولا تزال (الظاهرة) موجودة لذلك أعود إلى الكلام فيها، كلما عادت دواعي الحديث عنها، وضربت في تلك المحاضرة مثلاً لها، لا أزال أعود إليه لأني لم أجد إلى الآن مثلاً أصدق منه: بردى حين يلتقي بنبع الفيجة، فيمشيان معاً نحو مئة متر لا يختلطان، تملأ كأسك من بردى من اليمين ماءً نظيفاً لكن فيه شيئاً من العكر، وتملؤها من الشمال من الفيجة ماءً عذباً زلالاً ليس في الدنيا أعذب منه ولا أصفى ولا أبرد[2]. ثم يمتزجان فيكون منهما نهر

---

(١) الظاهرة بالمعنى الاصطلاحي لا اللغوي.

(٢) يتراهن الناس: من يستطيع أن يبقي يده فيه خمس دقائق. إنه ماء مثلج أو ثلج مُمَوَّه.

جديد ليس فيه صفاء الفيجة ولا في اغبرار بردى.

هذا مثال الأمم في مراحل الانتقال حين تلتقي حضارتان، ويمتزج شعبان، أو تجتمع عقليتان وثقافتان.

وكل شعب من الشعوب العربية جاز هذه المرحلة، بعضهم خلص منها، أو نأى عنها، وبعضهم لا يزال فيها.

كان في مصر مثلاً (أيام سفري إليها) مشايخ وأفندية، أزهر وجامعة، محاكم شرعية ومحاكم مدنية، يختلفان في الزي وفي التفكير وفي تقويم (لا تقييم)[1] الحياة، يمشيان كالخطين المتوازيين، يتجاوران ولا يتلاقيان، يتكلمان بلسانين، ويفكران بعقلين، فلا يكاد الشاب يفهم ما يقول الشيخ ولا يرتضي تفكيره، ولا كان الشيخ يعرف الطريق إلى إفهام الشاب وإثارة اهتمامه بما يفكر هو فيه.

وكانت هذه هي العلة الكبرى. ولقد ظهر أفراد جمعوا طرفي الخيط، ولكنهم كانوا قلائل، حاولوا أن يقربوا العلوم الجديدة، أو الفكر المعاصر، من الإسلام، منهم من صنع ذلك باعتدال كالشيخ محمد عبده في مصر، وصاحبه السيد رشيد رضا، ومنهم من أوغل فيه حتى جانب الحق، وخالف أو كاد يخالف الإسلام كالسيد أحمد خان في الهند، وأفراد بلغوا الغاية في تحصيل العلوم (الجديدة) والأستاذية فيها، وكانوا على إلمام تام أو آطّلاع كاف على العلوم الإسلامية، من أظهرهم محمد أحمد الغمراوي في مصر، وأحمد حمدي الخياط في دمشق، وكلاهما كان من أساتذة الجامعة.

* * *

لذلك كانت الحاجة إلى أسلوب جديد في الدعوة غير أسلوب الكثير من المشايخ، على ما كان لهم من علم وفضل وتقوى، ونبه الناس إلى هذه الحاجة (الفتنة الكمالية) في تركيا، وبروز جماعة كأنهم تأثروا بها، وأرادوا (ولو لم يشعروا) التمهيد لمثلها، وظهر ذلك في كتب شبلي شميل، وسلامة موسى، وفي

---

(١) تقييم غلط ولو حاولوا تبريره!.

كتاب (في الشعر الجاهلي)، وكتاب (الإسلام وأصول الحكم)، وكانت الصرخة قوية حتى سمعها الذين كانوا مستغرقين في النوم فهبَّ ناس منهم، وأدركوا الخطر. فكتبت الردود: أستاذنا الشيخ محمد الخضر حسين ألف (نقض كتاب الشعر الجاهلي)، ولطفي جمعة، وآخرون لا أذكرهم الآن بأسمائهم، ولكن الله يذكرهم ويشكر لهم ويجزل ثوابهم، والدكتور الغمراوي بكتابه (النقد التحليلي) الذي خاطب فيه طه حسين بلسانه، ونقض عليه بنيانه بمعوله، ورجع بالحق إلى الينابيع التي استقى منها بالباطل، وقدم للكتاب أمير البيان الذي كان سفيراً دائمًا في أوروبا، سفيراً للعرب وللمسلمين ينبههم، ويدافع عنهم، ينفق من جيبه لا من خزانة دولة ولا من صندوق جمعية، يعيش عيش الكفاف، يقرأ ويكتب، والذي كتبه الأمير شكيب أرسلان بقلمه وبخطه يعدل ما كتبه عشرة من أكبر كتاب العصر، وله فوق ذلك شعر جيد.

والذي جمع هذه الأقلام، وكان لها بمثابة مركز القيادة، أو مكان الأركان «أركان الحرب»: مجلة «الفتح».

مجلة «الفتح» كان لها عمل عظيم عظيم في تنبيه المسلمين، وإيقاظهم وإرشادهم، والتمهيد لهذه الصحوة الإسلامية التي نراها ونحمد الله عليها اليوم، والتي نسأله دوامها، وتصحيح مسارها، ودرء الأذى عنها، ولعل الله يلهم واحداً من طلاب الدراسات الإسلامية في جامعاتنا إعداد رسالة أو أطروحة عنها.

ولقد كانت قبلها «المنار»، وللمنار أثر لا ينكر في العقيدة وفي العلم وفي (توعية) المسلمين، وفي مجموعتها لمن استطاع الحصول عليها كنز تستخرج منه عشرات من الكتب، كما فعل الصديق العامل الدائب على التأليف الدكتور صلاح الدين المنجد حين استخرج فتاوى السيد رشيد وأفردها بالطبع.

أنشأ محب الدين «الفتح» في آخر سنة ١٣٤٤ (١٩٢٦) وكان من أثر الازدواجية (بين المشايخ والأفندية) أنه جاء بشيخ أزهري هو الشيخ عبد الباقي سرور نعيم (كما أذكر) فجعله رئيس تحريرها!.

كانت «الفتح» أوعى مجلة إسلامية، توجه حتى في عناوين الأخبار العامة التي تنقلها عن وكالات الأخبار، فتحول بالعنوان مغزى الخبر عما تريده الوكالة إلى ما يوافق خطة «الفتح» ويريده الإسلام.

ومن المجلات الواعية التي عرفتها، أقول (منها) ولا أسميها كلها، «البصائر» مجلة جمعية علماء الجزائر التي كان يشرف عليها، ويكتب بقلمه البليغ افتتاحياتها الصديق الشيخ البشير الابراهيمي، و«الضياء» للأستاذ مسعود الندوي في الهند، و«المجتمع» التي تصدر اليوم في الكويت، و«الرائد» التي تصدر في الهند، فيما تصدر المؤسسة الإسلامية الجليلة: «ندوة العلماء».

لما وصلت مصر كان قد مر على ظهور «الفتح» سنتان، ولكنها استطاعت أن تكون بتوفيق الله مجلة العالم الإسلامي، وكان لها مواقف مشهودة في الرد على «الشعر الجاهلي» الكتاب الذي جاء بالكفر الصريح، والذي شغل مصر عن قضيتها الكبرى، ولعل هذا من جملة مقاصد من كتبه، ومن سرقه كاتبه منه وهو (مارجليوث) ومن دفع إليه أولاً، ودافع عنه ثانياً، وكتاب «الإسلام وأصول الحكم» وهو كتاب أسوأ من الأول، لأن الأول فيه الكفر الصريح يراه المسلم فيعرفه، وهذا فيه الكفر المغطى، لا ينتبه إليه إلّا النبيه، فينال منه وهو لا يشعر، وقد ثبت أن هذا أيضاً مسروق.

وكان لـ «الفتح» موقف عظيم في التنبيه إلى خطر «الظهير البربري». والظهير باصطلاح المغاربة كالمرسوم الملكي عندنا، أصدره الفرنسيون يريدون به إماتة أحكام الإسلام، وإحياء أعراف البربر الذين أرادوا فصلهم عن المسلمين، كما أريد ذلك في الجزائر من ثلاث سنين، فأبى الله ذلك والمسلمون، لأن البربر من يوم أن شرفهم الله (كما شرفنا) بالإسلام، صاروا هم أهله، وهم حماته، لا فرق بين عربي وبربري، بل لا فرق بين عربي وعجمي ولا بين أبيض وأسود هذا هو حكم الإسلام.

بداية الدعوة المنظمة

كانت بداية الدعوة (المنظمة) بإنشاء جمعية الشبان المسلمين، وكان الذي فكَّر بإنشائها، صاحب «الفتح» محب الدين الخطيب، وقد سمعت ذلك منه، وخلاصته:

إنه في سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م) قبل وصولي إلى مصر بسنة أو نحوها، كان أصحاب دور النشر، ومنهم صاحب المطبعة السلفية، وهو محب الدين يجتمعون لتكوين رابطة بينهم، أو نقابة لهم، في دار الشبان المسيحية، وهي إحدى المؤسسات التبشيرية (أي التنصيرية التكفيرية) فلما رآها فكر أن يكون للشبان المسلمين جمعية مثلها. فعرض الفكرة على صديقيه الأستاذين الجليلين: السيد محمد الخضر حسين، والوجيه العالم أحمد تيمور باشا، وعلى مجموعة من الشبان (الشبان يومئذ وهم جميعاً في مثل سني) منهم الأساتذة عبد السلام هارون، وعبد المنعم خلاف، ومحمود شاكر، وكل هؤلاء من أصدقائي، ولئلا يتنبه إليها أعداء الإسلام، وما كان أكثرهم يومئذ وأكثرهم في هذه الأيام، تواصوا أن يكون نشر الفكرة بحكمة، والدعوة إليها بلا إعلان، وكان كل من سميت من الشبان يدعو أصدقاءه فيَقبلون بها ويُقبلون على الانضمام إلى أهلها. وكان اجتماعهم وكان لقاؤهم بالشيوخ الثلاثة الخضر، وتيمور، ومحب الدين، في المطبعة السلفية في شارع الاستئناف وهو شارع صغير، يتصل بميدان باب الخلق، حتى إذا قويت الفكرة، وانتشرت وكثر أتباعها ولم يعد يخشى عليها، عقد أول اجتماع عام لإقرار قانون الجمعية وانتخاب مجلسها الإداري في دار سينما كوزمو، ودفع أجرة الدار شوقي أمير الشعراء من ماله، وأعلن عن الجمعية وانتخب لرياستها عبد الحميد سعيد الذي أتاه الله بسطة في الجسم، وسعة من المال، ووجاهة في الناس، وكان عضواً دائمًا في مجلس النواب، والسيد محب الدين الخطيب أميناً عاماً، وأحمد تيمور باشا أميناً للصندوق واستؤجرت للجمعية دار كبيرة في شارع قصر العيني، بجانب مجلس النواب، لما وصلت مصر كانت فيها.

ثم أنشأ السيد الخضر الحسين (جمعية الهداية الإسلامية).

* * *

جمعية الشبان المسلمين لم تكن تجديداً في فهم الإسلام، ولم يكن لها عمل جدي في الدعوة إليه، ولا كانت تصحيحاً لمعتقدات العوام، ولا محاربة لبدع كانوا يتوهمون أنها من الإسلام، وإنما كانت (وأنا هنا لبيان الحق لا للمجاملات) كانت تنظيمًا ظاهرياً فقط، ولعل اشتغال أعضائها بالرياضة وإقامة الحفلات لها،

أكثر من اشتغالهم بالعلم والدعوة، وجمعية الهداية كانت تنظيمًا ظاهرياً لعمل المشايخ في الدعوة إلى الله، تلقى فيها محاضرات لا تكاد تحس أن فيها جديداً.

أما الدعوة «المنظمة» الحقيقية فقد بدأت على يد شاب اسمه حسن البنا، كان ممّن يتردد على خالي محب الدين في المطبعة السلفية، عرفته من يومئذ هادىء الطبع، رضيَّ الخلق، صادق الإيمان، طلق اللسان، آتاه الله قدرة عجيبة على الاقناع، وطاقة نادرة على توضيح الغامضات، وحل المعقَّدات، والتوفيق بين المختلفين، لم يكن ثرثاراً بل كان يحسن الإصغاء كما يحسن الكلام، وضع الله له المحبة في قلوب الناس، تخرج من دار العلوم في السنة التي دخلت فيها الدار[1]، لم ألقه فيها إنما لقيت سيد قطب وكنت معه في فصل واحد على ما أذكر وكلاهما أسنُّ مني بثلاث سنوات.

* * *

وأنا على طريقتي التي لزمتها عمري كله، لم أدخل يوماً حزباً، ولم أنتسب إلى جماعة، ولا ربطت فكري بفكر غيري إلّا أن يكون الله ألزمني باتباع رأيه وإطاعة أمره، من مبلِّغ حكم الله، أو حاكم مسلم لا يأمر بما يخالف شرع الله، أو أب، أو أستاذ يأمر بخير يحبه الله، بل إن المسلم يسمع كلمة الحق من كل من ينطقه الله بها، صغيراً كان أم كبيراً. أنا أسير في الخط الذي أُريت أنه الطريق الصحيح، فمن وجدته يمشي معي فيه أيدته وناصرته، وإن حاد عنه ضالاً هديته، وإن كان متعمداً نصحته أو زجرته، لذلك أيدت بقلمي وبلساني الإخوان المسلمين في مواقف ونقدتهم في مواقف، وما رجوت شكراً على تأييد ولا وجدته، ولا خفت لوماً على نقد ولا باليته، وذلك كله على ضعفي الذي أقرُّ به ولا أنكره وعلى إيثاري دائمًا العزلة والانفراد.

* * *

أقمت تلك المرة في مصر أقل من شهرين، ولكني استفدت منها فوائد لا تنال في سنتين. عرفت في السلفية جِلّة من رجال العلم والأدب، أحمد تيمور باشا الذي كان في سمو خلقه وفي سهولة طبعه، وفي تواضعه على رفعة قدره، مثلاً للناس، يزور المطبعة كل يوم فإن كان خالي مشغولاً لم يعطله بل قرأ شيئاً

(١) لأنه دخلها قبل صدور النظام الجديد الذي يمنع من دخولها من لم يكمل دراسته الثانوية.

مما يجد، وإن كان فيها زوّار، تحدث إليهم، وكان طويل الصمت، بعيداً عن الادعاء. كان في المطبعة يوماً جماعة من أهل الفضل يتناظرون في أمر (الطربوش) ما أصله؟ ومن أين جاء؟ والباشا ساكت كأنه لا يعلم عن الموضوع شيئاً، وكانت المطبعة تدور في الداخل، تطبع رسالة له عن الطربوش، تقصى فيها خبره، وجمع تاريخه.

ويشبهه في هذا السيد الخضر، الأخ الأكبر لشيخنا الشيخ زين العابدين التونسي، وأستاذ شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار. وممن لقيت في (السلفية) الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، وكان من يكلمه يكتب له الجملة فيقرؤها لأنه لا يسمع أبداً، ولقيت عنده الشيخ كامل القصاب وكنت أعرفه من بعيد، وهو رجل حياته تاريخ له في السياسة أثر، وفي التعليم آثار، وسأكتب (إن شاء الله) عنه وعمن لقيت في السلفية.

ومما استفدته في مصر أن قوي فيها قلمي، وانتقلت من الأسلوب الحماسي المحشو بالمبالغات والجمل التي لها دوي كدوي صوت الطبل، وهي فارغة مثله، إلى أسلوب هو أقرب إلى الرصانة وتجلى ذلك في باب التعريف بالكتب في مجلة «الزهراء»، ومن رأى آخر عدد صدر من «الزهراء» والذي قبله وجد أكثره بقلمي.

ومما استفدته تبدل طريقتي في الخطابة، من الحماسة والصراخ وكثرة الإشارات، وذلك الذي نشأنا عليه إلى الحديث الهادىء.

وكل ذلك أعود إن شاء الله إلى تفصيل القول فيه.

وكان أكثر ما اهتممت به لما عدت إلى دمشق وسعيت إلى الدلالة عليه، ووفِّقت والحمد لله في نقله من حيّز القول إلى حيّز العمل، هو إنشاء الجمعيات الإسلامية، واتحادات الطلاب وكلاهما لم يكن معروفاً في الشام.

* * *

عدت وكانت السنة الدراسية في بدايتها، وكنت (كما أسلفت) أحمل شهادة البكالوريا في شعبة العلوم، وكانت البكالوريا على قسمين: الأول في نهاية السنة الحادية عشرة من سني الدراسة، والثاني في نهاية الثانية عشرة.

وكان فيه شعبتان: شعبة للرياضيات، وشعبة للفلسفة، فـانتسبت إلى الفلسفة بلا تردد، وأقرُّ الآن بعد تخرجي فيها بثلاث وخمسين أنها جددت فكري، ووسعت أفقي، وتركت في نفسي أثراً عميقاً لا يمّحي، ولكنها كانت خطِرة جداً لولا أن الله سلمني منها، وأنه بفضله جعل عندي من سالف دراستي ذخيرة وفيرة من علوم الدين، وأساساً راسخاً (أسأل الله بقاءه) من الإيمان، لأضلتني.

كما أقـرُّ أن سفري إلى مصر، على رغم أنها بلد الأزهر، ومثابة العلماء، وأن إقامتي فيها كانت قصيرة، وكانت في وسط إسلامي، أنها على هذا كله كادت تفتنني، وتبدّل سلوكي. فليتق الله الذين يبعثون بأولادهم، إلى بلاد لا يسمع فيها أذان، ولا يتلى قرآن، وفي نفوسهم ظمأ قاتل، وحولهم أنواع البارد (المسموم) من حلو الشراب.

إذا كنت أنا الناشىء في بيت العلم والدين، كدت أفسد في مصر وأنا ابن عشرين، فماذا تكون حال من يذهب في مثل تلك السن إلى أوروبا أو أميركا أو روسيا؟.

- ٣٣ -

العودة إلى دمشق
وإنشاء جمعية الهداية الإسلاميّة

لقد عدت من مصر ومعي شيء جديد، في نفسيتي وفي تفكيري، وفي تجارب حياتي.

أولها: إلف أعواد المنابر، والتمكن من أسباب الخطابة، ولقد كنت أخطب من قبل سفري إلى مصر، بل لقد ألفت مسرحيات للطلاب وكنت أساعد على إخراجها، وكانت تُمَثّل ليالي متتابعات، يقبل الناس عليها لا يملونها، بل لقد اخترعت فناً جديداً في إلقاء الشعر، أعلِّم الطلاب إلقاء كل قصيدة كأني ألحنها لهم ليغنوها، هنا يمد الصوت، وهنا يشد، وهنا يعلو وهنا ينخفض، وقسمت الإلقاء إلى إلقاء تعبيري، وإلقاء حماسي، وإلقاء عاطفي، وإلقاء تمثيلي، وربما جاء تفصيل هذا الإجمال فيما يأتي من المقال.

وثانيها: أني ذقت لذة العمل في الصحافة، لا كاتباً فيها أو (مراسلاً) لها من خارجها، بل عاملاً فيها من داخلها، وبدأت من فوق، من مجلة الزهراء التي كانت يومئذ المجلة الأدبية الأولى.

والثالثة: أني شهدت مولد الجمعيات الإسلامية فحملت خبرها إلى دمشق، وكان في دمشق جماعة من كرام التجار وبعض طلبة العلم يتلاقون على عادة الشاميين في (دور) بينهم. والدور أن يجتمعوا أياماً معدودات عند واحد منهم، اجتماعاً فيه تسلية وليس فيه معصية، فإذا كان اليوم الأخير في دور الرجل، صنع لهم صنيعاً: صدر كنافة، أو صينية قوزي، أو الصفيحة والشعيبيات وهي أكلات لا يغني سماع وصفها، عن ذوق طعمها، ولا يعرف مذاقها إلّا من ذاقها.

والذي عرّفني بهم، وأخذني إليهم رجل كان أحد الذين أثّروا في حياتي، وأفضلوا عليّ، رجل عاش عمره كله من غلة ضيعة له في (حرستا) قرب (دوما)، فلم يكن يعمل ليكسب مالاً بل ليكسب أجراً: لا يقع منكر إلّا كان أول من يسرع إلى إنكـاره، ولا يسمع بمحتاج إلّا كان أول من يجمع له ما يسد حاجته، لا يبالي في سبيل ما يراه الحق بعُرْف مجتمع، ولا بمداراة إنسان، لا يفرق عندما ينطق بالحق إن كان الذي أمامه بواب المدرسة، أو وزير المعارف. كان الشيخ تاج الدين الحسني قريبه (ابن عمته) فكان ينصحه وقد يغلظ له القول، وإن رأى منه انحرافاً رده إلى الصواب، وكان موقفه من كل رئيس أو وزير يلقاه، كموقفه من الشيخ تاج رئيس الدولة، ثم رئيس الجمهورية، ذلك لأنه كان مؤمناً معتمداً على الله، ولأنه كان مستغنياً بضيعته عن مال الحكام ـ أعني مال الله الذي جعله تحت أيدي الحكام ـ والعالم لا يذل إلّا إذا مد يده بطلب، أو تشوَّف قلبه إليه، فإما أن يكون العالم غنياً بماله، وإما أن يكون غنياً بالقناعة بما قسم الله له من رزق، والعزة بما أكرمه الله به من إيمان.

وكان عالي الصوت، شديداً في الجدال، خطته الهجوم أبداً حتى في الدفاع، ولكنه كان رجاعاً إذا بدا له الحق، يقرُّ به، ويدع غضبه إليه.

كان من أصفى الناس قلباً، ينسى إساءة الناس إليه، كما ينسى إحسانه إليهم، وهذه لعمري ذروة النبل. صحبته خمسين سنة كما صحبت شيخنا الشيخ بهجة البيطار، فكنت أحس معهما كأني أمام والد أحبه حب الولد لأبيه، وأنطلق معه على سجيتي. كنا نجيئه متى شئنا، فنجد بابه ونجد قلبه مَفْتُوحَيْنْ لنا، إن جعنا أكلنا، وإن نعسنا نمنا، وإن شغلنا أو مللنا انصرفنا، وكذلك كانت الحال مع الشيخ بهجة والشيخ نصيف. فرحم الله هذا الرجل ورحمهما، ورحم أمثال أولئك الناس. لم نجد والله بعدهم مثلهم، ولم يسد أحد مسدهم، فاللّهُمَّ ارحمهم وأحسن جزاءهم.

أما هذا الرجل فهو الشيخ عبد القادر العاني الذي توفي في دمشق من أقل من سنتين عن أكثر من تسعين عاماً.

* * *

أخذني إليهم، وما سني من سنهم، ولا تفكيري من تفكيرهم، فأنا شاب وهم كهول، وأكثرهم من التجار، وأنا كما عرفتم من سالف حديثي، أجهل خلق الله بالتجارة، وأبعدهم عنها، ولكني لما عرفتهم ألفتهم، وأنست بهم.

كانوا مخلصين وكانوا ظرافاً، وأنا إنما يصعب عليّ دخول المجلس، هنا العقبة الكؤود، فإذا تخطيتها وصرت في المجلس وجدت عندي من طرائف الأخبار، ونوادر السِّيَر، ومن النكات والمضحكات، ما أمسك به أطـراف الحديث فأشدها وأرخيها كما أشاء.

حدثتهم فيما حدثت به عن إنشاء الجمعيات في مصر، وأوجزت لهم قانون الشبان المسلمين، والهداية الإسلامية، وقلت: لماذا لا تحوِّلون هذا (الدور) إلى جمعية، تنفعون بها الناس وترضون الله، ويكون لكم حظ من ميراث النبوة وهو الدعوة إلى الله.

واختاروا قانون جمعية الهداية الإسلامية واسمها، وأعدوا الأوراق لأخذ الرخصة الرسمية، ولم يكن يحتاج إصدار مجلة غير سياسية، أو تأليف جمعية غير سياسية إلّا إلى إخبار (مجرد إخبار) يقدم إلى وزارة الداخلية.

ومن ظرف هؤلاء الإخوان، ومزاحهم أننا كنا نفكر فيمن يكونون أعضاء في الجمعية فقلت لواحد منهم: ما رأيك بفلان، وكان حاضراً معنا، هل تراه يصلح عضواً؟ قال: هو (عضو) عزيز علينا، لا نستغني عنه، لكن يجب ستره!.

وأُلّفت الجمعية، وأعلنّا عنها في ردهة المجمع العلمي العربي (في المدرسة العادلية الأثرية) سمح لنا بذلك رئيس المجمع أستاذنا محمد كرد علي، وكنت أنا الذي تشرَّف بالإعلان عنها في محاضرة دُعِيَ الناس إليها. وأعلنت (أيضاً) عنها، وذكرت قصة إنشائها، وخلاصة قانونها في مقالة (عندي نسخة منها) نشرت في (القبس) عند صديقنا الأستاذ نجيب الريس عدد ١٩٣٠/١١/٢٩.

أرادوا الاحتفاء بالمولد

وجاءت ذكرى المولد، وأرادوا الاحتفاء به على عادة المسلمين الآن، في جميع البلدان، بقراءة قصة المولد، وكان الخاصة من الرجال يقرؤون مولد (البرزنجي)، والنساء (مولد العروس).

والعجيب أن سير الرجال تبدأ من الولادة، والناس إذا وصلوا في (المولد) إلى خبر ولادته ﷺ وقفوا وصلوا عليه الصلاة الإبراهيمية، وأكلوا السكر (الملبس) وتفرقوا.

وفي الموالد كلها ما ليس بصحيح، بل ما هو مخالف للقرآن وللصحيح من الحديث، وأنا أكتب في إنكاره من مطلع شبابي، منها: أن جده عرف يوم مولده أنه هو النبي المنتظر، وأمه عرفت وناداها منادٍ لما حملت به يخبرها بأنه النبي المنتظر، ويأمرها أن تسميه محمّداً، وأن بحيرا وغيره من النصارى عرفوا أنه هو النبي، واليهود عرفوه، بل إن (مولد) البرزنجي يؤكد أن (وحوش المشارق والمغارب) عرفت خبره وتباشرت به، وأنها غاضت بحيرة ساوة، وفاض وادي سماوه، وتهاوت الشرفات من إيوان كسرى...

ثم أقلب الصفحة فأجد مقابل هذا كله. الحديث الصحيح بأن محمّداً ﷺ، جاءه الوحي وقال له: (إقرأ) وهو لم يعرف تماماً أنه النبي المنتظر، وأنه ذهب إلى خديجة مرعوباً، فأخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، أي أنه صار نبياً فعلاً، وهو لم يعلم بذلك تماماً، والله يقول له ﴿ما كنت تدري ما الكتاب﴾ فكيف عرف أولئك كلهم؟ حتى الوحوش عرفت أنه هو نفسه النبي؟.

والأناشيد التي تصحب المولد، والتي أنكرتها من مطلع شبابي، أكثرها غزل بجمال الرسول، أو كلام عنه، لا يصلح لأن يكون مدحاً له.

* * *

قلت لهم: بدلاً من تلاوة هذه القصة، والمشاركة في الكذب على رسول الله، وإساءة الأدب معه، أُعِدُّ أنا محاضرة، ألقيها، وتطبعها الجمعية، وتوزعها بدلاً من (الملبس).

قالوا: فكيف بالقيام عند ذكر الولادة؟ قلت: سبحان الله، ومن قال إن هذا القيام من فرائض الإسلام، إنه بدعة لا أصل لها؟.

قالوا: كيف يكون مولد بلا قيام؟!

قلت: أنا أقيمهم لكم إن شئتم! قالوا: كيف؟

قلت: إن الخطيب المتمكن، يحرك السامعين كما يريد، يقودهم بلسانه، وبحركات يده، ولو كان فيهم من هو أعلم منه وأجلّ وأكبر، هذا سحر المنبر.

وألقيت المحاضرة في ربيع الأول سنة ١٣٥٠، وكانت أول احتفاء بالمولد ليس فيه كذب، ولا غناء ولا طرب، كانت نوعاً جديداً من الموالد، وإن كانت الموالد كلها جديدة، أي مبتدعة لم تعرفها القرون الأولى التي كانت أفضل القرون.

لقد مرّ على هذه المحاضرة اثنتان وخمسون سنة[1]، وألقيت بعدها محاضرات الله أعلم بعددها، ولكن الناس نسوا ونسيت أنا، ما قلت فيها، وهذه طبعت فبقيت، فيا ليتني طبعت كل محاضراتي. وهل تنفع شيئاً (ليت)؟.

هل تصدقون أني لما قرأتها كنت أحس كأني أقرأ شيئاً كتبه غيري. قلت لكم في مطلع هذه الذكريات، إن الإنسان في تبدل دائم: خلايا جسده، ميول نفسه، كثيراً من أفكاره. ومما يتبدل في الكاتب أسلوبه، وإن كان في كل ما يكتب أمارة تدل عليه، شيء في المقالة تحسه ولا تلمسه يخبرك أن كاتبها فلان وإن لم يكن في ذيلها اسم فلان، وهذا الشيء هو الأسلوب. لقد حاول النقاد تعريف الأسلوب تعريفاً منطقياً، بعد أن عرفوه معرفة حسية فلم يقدروا له على تعريف، فكأن أسلوب الرجل في خصائصه هو الرجل نفسه، كما قال بوفون Buffon، إنك تميز زيداً عن عمرو، من شكله من صوته من مشيته، لكنك لا تستطيع أن تقول، كيف ميزته.

وتعرف أن ليلى جميلة، وأن المتنبي عبقري، ولكنك تعجز عن تحديد سر الجمال في ليلى، هل هو في عينيها أم في نهديها أم في بسمة شفتيها؟ وعن حصر

---

(١) يوم نشر هذه الحلقة سنة ١٤٠٢.

عبقرية المتنبي في تركيب ألفاظه، أو في اختراع معانيه، أو في حكمه وأمثاله التي سارت كل مسار؟.

* * *

فرحت بهذه المحاضرة إذ وجدتها مطبوعة، وأحسست كأنها صورة التقطت لي في مرحلة من عمري ليس عندي نسخة منها، وقد مضى زمانها وتبدلت أنا حتى كأني غير صاحبها، صورة لي في المراحل الأولى من سفرتي الطويلة على طريق الأدب. إنها ليست كصورتي اليوم عند قرّاء (المسلمون)، ولا كصورتي في (المدينة)، و(رابطة العالم الإسلامي). ولا كصورتي في (الرسالة)، و(الثقافة)، وصورتي قبل ذلك في (الأيام)، و(النصر)، و(فتى العرب)، و(ألف باء) الصحف الشامية التي ماتت كلها.

وأنا أقرأ كتاباتي الأولى فلا أرتضيها الآن، ولكن ما قيمة حكم الإنسان على عمله، ومدى صحة تقويمه[1] إياه؟ إن محمد عبد الوهاب يظن أن أغانيه الأولى (يا جارة الوادي) وأخواتها دون ما جاء به بعد وما يجيء به الآن، مع أن كثيراً من الناس ـ وأنا منهم ـ يرون أن أجمل ما غناه أغانيه الأولى من أخوات جارة الوادي.

هذه المحاضرة مما لا أرتضيه الآن، ولكني أنقل فقرات منها هنا، ليرى القرّاء كيف كنت أكتب في تلك الأيام، ولأن هذه المحاضرة لم تدخل في كتاب من كتبي المطبوعة، بل طبعتها (جمعية الهداية الإسلامية) في ورقات، ووزعتها على من حضر المحاضرة لما ألقيت من اثنتين وخمسين سنة، فكم من القرّاء كان موجوداً لما وزعت؟ وكم ممن كان موجوداً قد احتفظ بها؟.

ما قلته في المحاضرة..

وصفت في المحاضرة حال العالم قبل مولد الرسول ﷺ، وكيف انقطع وحي السماء، وشاخت دول الأرض، وانزاحت الحضارة العادلة عن أكثر بقاعها، واقتسم العالم الدولتان الكبريان: فارس والروم، كما يقتسمه اليوم

---

(١) ولا تقل تقييمه، فإن التقييم غلط، وأصلها قام (أي قوم).

الروس والأميركان، وقلت: إنه كان يعرض لكسرى الفرس، أو قيصر الروم، خاطر من الطمع، أو يحس من نفسه فضلاً في القوة، فينهض ليقاتل الآخر. يصطرع الملكان، ويغرق الألوف من الناس في دمائهم، وتزهق أرواحهم. في سبيل من؟ في سبيل الشيطان، لا في سبيل الحق، ولا في سبيل الرحمن. فسدت الأخلاق في روما حتى اجتمع على العري الكامل الرجال والنساء في الحمامات، حتى تزوجت ابنة شيشرون أبي الوطن، بأربعة رجال في وقت معاً.

عَمَّ الجهل والظلام، وسادت الدعارة والفسوق. . .

إلى أن قلت: (لم يعد في بلاد الحضارة أمل ببزوغ الفجر المرتقب، فهل يبزغ من وراء الرمال، من بوادي الجزيرة؟) ووصفت حال العرب، وكيف كانوا (منشقين على أنفسهم، متباينين في قبائلهم، لا راية تجمعهم، ولا حكومة تخضعهم، حكمهم إلى سيوفهم، آلهتهم شتى، وأربابهم أصنام يخشون كسرى، ويرجون قيصر، قبعوا في باديتهم، وقنعوا بجزيرتهم).

إلى أن قلت: (ثم كان أمر، وكانت عشية أو ضحاها، فإذا الافتراق اتحاد، وإذا الضعف قوة، وإذا هذا الشعب الجاهل يحمل مشعل العلم، وهذه الجزيرة القاحلة تعنو لها أرض الجنان والأنهار، وينهار أمام أهلها عرش كل ظالم جبار.

ماذا حدث؟ من الذي هز هذه الصحراء الجدباء؟ من نفخ في هذا الشعب الجاهل، فأخرج منها، أمة عالمة قوية كانت المثل الكامل للأمة الفاضلة، من الذي أزاح الله به الظلام عن الكون، وأطلع به شمس الهداية والخير على الدنيا؟.

قفوا، طأطئوا الرؤوس شكراً لله الذي أرسله رحمة للعالمين).

وقرنت كلمة (قفوا) بإشارة باليد الممدودة إلى القيام فنهضوا جميعاً ولما قلت: (صلوا عليه وسلموا تسليمًا) قرأوا الصلاة الإبراهيمية، على عادتهم في الموالد، لا على أنها واجبة هنا، أو أنه لا بدّ من قراءتها.

وكان مما قلت: (إننا قد اجتمعنا هنا في ذكرى مولده ﷺ لنفيض على العالم من أنوار سيرته السامية، وتاريخه الجليل، إننا قد اجتمعنا هنا لنثبت للدنيا كلها

أن الإسلام دين الله، وأن القرآن كتابه، الذي جعله المنهاج لنا، فلا يقبل منهاجاً غيره منا. .

إننا قد اجتمعنا هنا لنطمئن إخواننا المسلمين فوق كل أرض، وتحت كل نجم، بأن دين الله لن يغلب، ولن يزول، وأن العاقبة لأهله، ولو مسهم القرح، ونالهم الأذى. إننا قد اجتمعنا هنا لنصرة الفضيلة، ونشر العدل، وإيصال الخير الذي بعث به محمّد إلى الدنيا كلها. كان ميلاده نعمة، وسلوكه قدوة، ومبعثه هدى ورحمة، ودينه شمساً ساطعة، اهتدى الناس بهديها، وساروا على ضوئها، فتبارك الله، وبورك الرسول، ونعمت الذكرى.

ولد والعالم في ظلام، والناس في ضلال، والحضارة في تقهقر، فعم النور واهتدى الناس، وازدهرت الحضارة. .

كان الباطل ظافراً، والجهل فاشياً، والظلم محكمًا، فلما ولد ظهر الحق، وساد العلم، وظفر العدل فكان مولده رحمة للعالمين، وهدى للناس أجمعين. إلى آخر المحاضرة فهي طويلة. وكانت خاتمتها: (ألا فلنجدد في هذا اليوم إيماننا، ولنتعاهد على الرجوع إلى ديننا، لنتصافح ولنتناصح ولنكن يداً في الحق واحدة، علَّ الله يمنُّ علينا بنصر من عنده، وما النصر إلاّ من عند الله. . .

لنتيقظ لتلك الفئة التي تزعم أنها منّا، وتؤثر على ديننا، وكتاب ربنا، ضلالات الملحدين وبدع المبتدعين، ومن في تلك الفئة؟ إن فيها أبناءنا وإخواننا، أفسدتهم علينا هذه المدارس وهذه المجتمعات، أخذتهم منا مؤمنين وردتهم إلينا كافرين بدينهم، مزدرين لفضائلهم، أعداء لآبائهم وعترتهم. ونحن؟ نحن غافلون نائمون، لا نواجه عدواً، ولا ندرأ خطراً، ولا ننكر منكراً. .

إننا راجعون إلى ربنا، وسيسألنا عن دين أضعفناه، ومجد أضعناه، فبماذا نجيب؟ لقد نزلت فينا المصائب، وتوالت النكبات، حتى صرنا إذا أصابتنا السهام، تكسرت النصال على النصال، فلم نعد نشعر بآلامها.

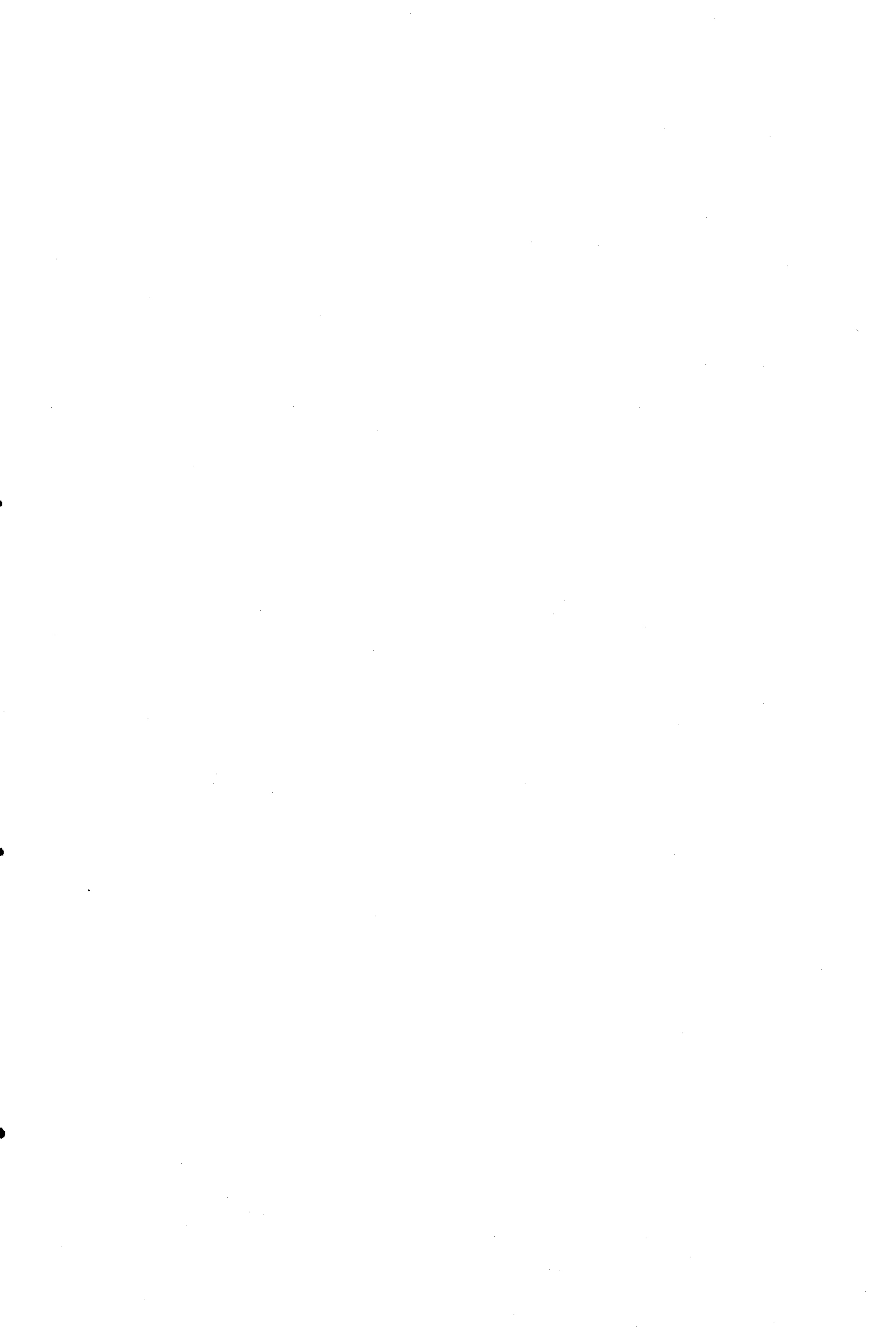
لقد طفح الكيل، وتكاثف الظلام. فإلى النور، إلى الحياة. قوموا اليوم بين

يدي ربكم، وأقبلوا عليه بقلوب مخلصة وحّدها الدين، ثم اسألوه أن يفرِّج عن المسلمين، وأن يمدكم بنصره ومعونته.

ادعوا فقد دعا الرسول ﷺ يوم بدر وألح في الدعاء ولكن بعد أن أعد الجيش وصف الجند، واتخذ الأسباب كلها التي يقدر عليها، ثم سأل الله ما لا يقدر عليه إلاّ الله، وهو تحقيق النصر).

(فاعملوا وتوكلوا، أعدوا وادعوا، إسعوا وسلوا، وإذن يجيب الله دعاءكم، ويعطيكم سؤالكم).

هذا ما قلته في ربيع الأول سنة **١٣٥٠** هـ في يوم إعلان تأليف أول جمعية إسلامية في سورية.



- ٣٤ -
تقلّبات على الطريق

الذي يريد أن يشتري بيتاً أو يستأجره، يقلّب بيوتاً كثيرة، يبصر مزاياها وعيوبها، ثم يختار ما هو أصلح له منها، ولقد كانت سنة ١٩٢٩ والتي بعدها إلى سنة ١٩٣١ كانت لي مرحلة اختبار واختيار، ما كانت بصنعي بل بصنع الله لي: خالطت المشايخ، حتى صار لي في ميدان الدعوة صوت مسموع، وإن لم يكن أعلى الأصوات، وصرت من قادة الطلاب وإن لم أكن أكبر القواد، وصرت من فرسان المنابر، ومن حملة الأقلام، وإن لم أكن سابق الفرسان، ولا من أكبر الكتّاب، وأصبحت معلمًا ولكن في مدارس أهلية، واشتغلت بالمسرح تأليفاً ومعاونة في الإخراج، ومعلمًا للتمثيل، ونلت الشهادة وكتبت تحت اسمي (بكالوريوس آداب وفلسفة)...

... وكانت كلها بدايات: في الربيع تخضر الأرض، وتنشق عن نبتات صغيرة، منها زهور برية أو حشائش خلقت لتعيش شهور الصيف فقط، ومنها ما يعيش سنين، ومنها خوط شجرة زيتون ربما بلغ عمرها القرون.

كانت كلها بدايات منها ما وقف وانقضى عهده فصار من الذكريات، ومنها ما استمر إلى الآن. إستمر - والحمد لله - عملي في الدعوة، وفي التعليم، وفي الكتابة، وفي الخطابة، وانتهى عهد المسرح وقيادة الجماهير، كما انتهى من قبله عهدي بالتجارة، والحمد لله أيضاً، فما ندمت على ما انصرفت عنه، ولا على ما بقيت فيه.

عودة إلى مصر

ولما انتهت السنة الدراسية عدت إلى مصر، ناوياً الإقامة فيها، وقدمت

أوراقي للجامعة، وقابلت الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب، والدكتور عبد الوهاب عزام، فكان اللقاء الوحيد مع الأول، وكان اللقاء مع الثاني بداية مودة وصداقة ومحبة استمرت حتى توفاه الله: في مصر وفي دمشق وفي كراتشي، وسيأتي إن شاء الله الكلام عنه.

إخترت الجامعة ولكن الله ما اختارها لي، فقد كان خالي محب الدين على رأس من يرد على طه حسين كتابه (في الشعر الجاهلي)، وكانت (المطبعة السلفية) مركز الحملة عليه، ودفع ما جاء به، ودخولي الجامعة يباعد ما بيني وبينه، وأنا إنما جئت مصر لأكون معه لا عليه، فدخلت دار العلوم العليا وليس عندي شيء مكتوب يذكرني بأيامها، وما كان في ذاكرتي ذهبت به الأيام والليالي فلست أذكر إلاّ أني كنت أركب (الترام) من باب الخلق إلى (المنيرة)، يمشي بي في شارع ضيق ملتوٍ هو شارع الخليج، الذي لم يعد اليوم ضيقاً ولا ملتوياً، وكان على جانبيه أبنية عتيقة تكاد تكون خربة فصار على جانبيه اليوم عمارات ضخمة عالية.

ولا أذكر من أساتذتها إلاّ الشيخ أحمد الاسكندري، مؤلف (الوسيط) الذي كنا نقرأ فيه تاريخ الأدب العربي، ووكيل المدرسة الشيخ حسن منصور، وكان بارعاً في التفسير، وكان مهيباً يخشاه الطلاب، وأننا كنا نتغدى الظهر في المدرسة، ثم نخرج.

ومما أذكره أنهم أرادوا أن يؤلفوا فرقة للتمثيل، فجاؤونا بشاب له اسم غريب لا أزال أحفظه هو (فتوح نشاطي)، أعدَّ عبارات جعل يختبر بها الطلاب، ليرى من يحسن منهم الإلقاء، ومن يصلح منهم للتمثيل، فلما وصل الدور إليّ، دهش ودُهش الطلاب جميعاً، والتفتوا إليّ بعد أن كانوا لا يحسون بوجودي، وصرت المقدم عنده وعندهم، وصار هذا (الجدع الشامي)[1] مضرب المثل في إجادة الإلقاء، والمقدرة على التمثيل، ولم يعلموا أني كنت (أستاذاً) في دمشق لهذا الفن، قبل أن أكون (طالباً) مبتدئاً فيه في مصر.

---

(١) وأصل الكلمة جذع، وهي فصيحة (يا ليتني فيها جذع أخب فيها وأضع).

ما أعجب الإنسان

ما أعجب حياة الإنسان!

لقد سألوني عشرين مرة في درس الإنشاء: ماذا تريد أن تكون في المستقبل؟ فكتبت أريد أن أكون طبيباً، وأن أكون محامياً، وأن أكون... وأن أكون، فما كان شيء مما أردت أن أكونه، ولكن كان ما أراد الله أن أكون.

لا، لا أقول مقالة الجاهلين (أن الإنسان مسيّر)، إنه ليس مسيراً بل هو مخير، لم يجبر الله كافراً على الكفر، ولا عاصياً على العصيان، بل أعطاه العقل الذي يفكر، والإرادة التي تقرر، والأعضاء التي تنفذ، وفتح أمامه الطريقين، وقال: هذا طريق الجنة، وهذا طريق النار.

من خرج من بيته، وكان سليم الرِّجلين، يستطيع أن يمشي إلى المسجد، ويستطيع أن يمشي إلى الخمارة، فأين الإكراه؟.

يقول جون سيمون: أنا مخير وأنا أريد أن أرفع يدي، فمن يراهنني على أني لا أستطيع رفعها؟ إذا قدرت على رفعها، أقدر أن أرفعها لأنقذ غريقاً، أو لأغرق بريئاً، فهل العملان سواء؟ لا ليس الإنسان مسيراً، بل هو حر مختار، يصنع ما يشاء ولكن في حدود الطاقة البشرية، السيارة تمشي، ليست كالصخرة الراسية، ولكنها تمشي في الطريق المعبد، وبالسرعة المحدّدة. لا تصعد درج العمارة، ولا تسابق (البوينج). وأنا مخير ولكن لا أقدر أن أجعل أنفي أجمل، ولا قامتي أطول ولا أن أجعل أمسي يعود[1].

الإنسان مثل الزورق في البحر، يسيره راكبه، يحدد وجهته، ويعين غايته، ولكن قد تأتي موجة عالية، أو ريح عاتية، فتوجهه جهة لا يريدها، إلى غاية لا يقصدها.

في يدي الآن، ورقة مصفرَّة من القدم، مكتوب فيها:

---

(١) راجع كتابي (تعريف عام بين الإسلام).

المملكة المصرية، دار العلوم العليا، نادي التمثيل والموسيقى، نمرة مسلسلة (٧٠). وصل من حضرة العضو محمد علي طنطاوي مبلغ ١٠ فقط قروش صاغ قيمة اشتراكه عن شهر أكتوبر سنة ١٩٢٩ تحريراً في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٢٩. الخاتم الرسمي، أمين الصندوق. محمد علي الضبع.

علي الطنطاوي ممثل أو موسيقي! وتصورت ماذا تكون خاتمة هذه القصة التي بدأت بهذا الوصل لو هي اكتملت فصولاً. إلى أين كان يصل بي هذا الطريق الذي وضعت رجلي في أوله يوم صرت عضواً في نادي التمثيل والموسيقى لو أني تابعت السير فيه؟

كنت أبدأ فأمثل في المدرسة، ثم أشارك في رواية على المسرح، ثم أدخل فرقة من الفرق، ثم يسجل اسمي في القائمة التي تبدأ بجورج أبيض لتنتهي بإسماعيل ياسين، فيكون علي الطنطاوي اليوم ممثلاً عجوزاً متقاعداً، يعاشر النساء، ويشهد الرقص، ويسهر الليل وينام النهار، ويعود بلا صحة ولا مال ولا دنيا ولا آخرة. ولم يكن يحول بيني وبين هذه النهاية شيء، فالاستعداد له في نفسي كبير، والرغبة فيه قوية، ولكن الله صرفني عنه.

أصبحت يوماً فإذا خاطر قوي لم أملك له دفعاً يدفعني لترك دار العلوم، ونادي التمثيل فيها، والعودة إلى دمشق وكان هذا الخاطر هو الموجة التي حولت زورقي، إلى ما هو خير لي، فاللّهُمَّ لك الحمد.

* * *

عدت إلى دمشق فإذا موعد القبول في الجامعة قد مضى، وكان في نفسي طاقة هائلة إذا لم تصادف عملاً تذهب فيه، تذهب بي أنا، وكنت مكلفاً بنفسي وبأمي واخوتي، فإذا لم أجد كسباً حلالاً، ضعت وأضعتهم.

فلا بدّ لي إذن من عمل أوجه إليه طاقتي، ومورد أنفق منه على أهلي. ومن أين المورد؟ هل أعود إلى التجارة التي جربتها فما أطقتها، ولا صدقت أني نجوت منها؟ هل أقبل (وظيفة)[1] وأنا أنكر على من يكون موظفاً في حكومة يوجهها المستعمرون كما يشاؤون؟ لم يبق أمامي إلاّ التعليم.

(١) الوظيفة في اللغة الراتب.

حياتي كلها موجات يبعثها الله، فتوجه زورقي إلى حيث يريد، منعطفات ما كان شيء منها بتدبيري واختياري بل باختيار الله لي، وأعود فأكرر أني لست مسيراً، وأن من يزعم أن الإنسان مسير يقر على نفسه بأنه أحمق. الإنسان مخير، ولكن دائرة اختياره ضيقة، ومدى حريته في الانطلاق قصير، لذلك كان علينا التفكير، وعلينا أن نستشير، ثم نستخير، فنسأل الله أن يبلغنا من الخير ما نعجز عن بلوغه إلّا بعونه.

من ذلك أنه كان في دمشق مدرسة أهلية أثرية، اسمها المدرسة الأمينية، قريبة من الأموي، كانت أقدم مدرسة للشافعية في دمشق، عمرها قريب من عمر الأزهر، مديرها ابن خالتي الشيخ شريف الخطيب، وكان يُعَلِّم فيها أخوه الشيخ طه، فجئت أزوره يوماً فيها فعلقت رجلي بالفخ. وكانت هذه الزيارة (منعطفاً) كبيراً في طريق حياتي، إذ دخلت على التلاميذ فألقيت عليهم درساً، فأحببت التدريس، فاشتغلت به، ثم أقام (الحفلة) السنوية، وكان يدعو إليها وجوه الشاميين من علماء وموظفين وتجار، وكلفني أن أكون خطيبها، وكنت أكتب خطبي، فأعددت خطبة قال من سمعها، - ما قال لي، ولكن قال عني فبلغني - بأنها كانت شيئاً جديداً، ما ألف الناس يومئذ مثله ولا عرفوه، في موضوعها وأفكارها، وفي أسلوبها وإنشائها، وفي طريقة إلقائها، وكان ذلك سنة ١٣٤٥ هجرية وأنا شاب في زهرة الشباب حسن الوقفة، جهير الصوت، صحيح النطق، ولولا الحياء لقلت أني (جميل الصورة) أيضاً!!.

تلك كانت بدايتي في التعليم، وفي الخطابة، وفي هذه المدرسة (ثم في غيرها) كانت بداية اتصالي بعالم المسرح والتمثيل، وفيها اخترعت فن الإلقاء.

تدفق في نفسي ينبوع من النشاط ومن الابتكار، جئت بالمحراث القوي، وبالبذر الجيد وبالسماد الصالح. ولكني أعملت محراثي، ونثرت بذاري، في أرض لا تصلح للزراعة، فحملت المشاق، وكثرة الانفاق ولم أخرج بطائل.

ولو كان هذا الجهد في الجامعة، أو في مدرسة ثانوية، عند من يقدره قدره، ويهتم به، لجاء بأطيب الثمر وأكثره، ولم يذهب هدراً، مع تلاميذ صغار لا قدروه في حينه، ولا حفظوه بعده، بل إن أكثرهم لم يكمل دراسته، بل

انصرف إلى أعمال الدنيا، فلم تعد تربطه رابطة بالعلم والأدب.

* * *

فلما اضطررت الآن إلى العمل، رجعت إلى (الأمينية) أُعلِّم فيها بالأجر، وما الأجر؟ أربعة قروش إلّا ربعاً على الساعة، والقرش هللة (هلالة) هنا، أو (مليم) في مصر، هذا هو الأجر!.

وهذا شيء لا يشتري خبزاً، ولا يشبع أسرة، فعملت في مدارس أخر: في الجوهرية، عند الشيخ عيد السفرجلاني ـ أستاذي في الجقمقية الذي مر بكم ذكره ـ وكان من تلاميذي فيها واحد نبغ حتى صار من شيوخ التعليم، ومن العلماء، وأمضى شطراً من عمره موجهاً للمدرسين، مشرفاً على وضع المناهج، وتأليف الكتب في العلوم الدينية لأنه كان مفتش التربية الدينيـة في وزارة المعارف، وهو أحد تسعة كانوا أوفى من مرّ بي من الطلاب، وقد مرّ بي آلاف وآلاف وآلاف من سنة ١٣٤٥ إلى الآن، هو الأستاذ عبد الرحمن الباني.

وفي المدرسة التجارية، التي عملت فيها من ست سنين، ثم تركتها لما قدموا عليّ الشيخ أحمد الدقر فأعطوه الدرس. وفي الكاملية، المدرسة التي كانت يوماً من أعظم مدارس دمشق، فصارت مدرسة ابتدائية، انشأها الشيخ كامل القصاب العالم المعلم الوطني المصلح، وكان يعلم فيها ألمع رجـال دمشق كالدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وتخرج فيها جلة من الأساتذة كالدكتور أحمد حمدي الخياط أستاذ أطباء دمشق، والدكتور أسعد الحكيم.

كان يديرها لما جئت أدرس فيها الصديق الخطيب الأستاذ جودة المارديني، وكان أول شيخ يلبس الحلة الافرنجية (البنطال والجاكيت). ويعقد العقدة (الكرافات)، ويحلق لحيته، فكنا ونحن صغار نعجب منه، وقليل منا يعجب به، ثم جاء مديراً لها ابن الشيخ كامل.

ولهذه المدارس، وأيامي فيها أخبار طوال، إذا جرت المناسبة إليها، ذكرتها. وكان من المدارس الأهلية، الكلية العلمية الوطنية ـ التي كانت للمربي الشيخ أبي الخير الطباع ـ، ثم للدكتور منيف العائدي الأستاذ في كلية الطب، وكانت تتبع مناهج وزارة المعارف، وتُعِـدُّ الطلاب لامتحان البكالوريا، وكان

يدرس الأدب العربي فيها الأديب الشاعر العالم الأستاذ خليل مردم بك، فسمحت الجامعة للطلاب غير السوريين بدخولها بالشهادة الثانوية، وأعفتهم من نيل البكالوريا، فانشأت الكلية صفاً (فصلاً) سمّته (صف الجامعة)، يدرس فيه كل ما يدرس في (صف البكالوريا) وطلبت من الأستاذ مردم بك أن يعلم فيه فاعتذر، ورشحني لتدريس الأدب في هذا الصف، فدعوني وجعلوا لي أجراً عشر الليرة الذهبية (أي ٥٥ قرشاً) على الساعة، وكان أجراً كبيراً بحساب تلك الأيام وجمعت محاضراتي عن بشار بن برد، أخذتها من دفتر أحد الطلاب وطبعتها في كتاب، صدر على عجل سنة ١٩٣٠، ولم أعد طبعه ولا أنوي إعادته، لأني لا أرتضيه.

مرحلة بدايات

كانت مرحلة بدايات، ومن هذه البدايات احترافي الصحافة.

وكنت قد اتصلت بها من قبل لما نشرت أول مقالة لي في (المقتبس) عند الأستاذ أحمد كـردعلي أبي بسام وعبد الرزاق، وشقيق أستاذنا الكبير منشىء المقتبس محمد كرد علي.

وفي كتابي (من حديث النفس) تفصيل الكلام فيه فلن أعود إليه ولكن أقول: (إني كتبت المقالة وقرأتها على رفيق عمري أنور العطار رحمه الله، وكان يومئذ يجرب قول الشعر، فأشار عليّ أن أنشرها فاستكبرت ذلك، فما زال يزينه لي حتى لنت له، وغدوت على إدارة المقتبس وكانت في شارع السنجقدار (القديم) قبل أن يخربه المنتدبون، وقبل أن يعيد الناس بناءه، وكانت في صف المسجد من جهة المرجة، ولا أدري كيف وجدت الجرأة على أن أصعد السلم، وأن أسلم على الأستاذ وأدفع إليه المقال.

ولم يكن من إخواننا من يعرف طريق صحيفة، أو يقدم على طلب النشر فيها، وكنا يومئذ مصابين بمرض الخجل الذي شفي منه أكثر شباب اليوم، بل جازوه إلى الجهة الأخرى... التي تقابل الخجل.

فأخذ المقالة فنظر فيها، فرأى كلاماً مكتهلاً ناضجاً، ورأى أمامه فتى صغيراً فطيراً، وكان ذلك في أوائل سنة ١٩٢٦، فعجب أن يكون هذا من

هذا، وكأنه قد شك فأحب أن يتحقق فاحتال علي حتى امتحنني بشيء أكتبه له زعم أن المطبعة تحتاج إليه، وليس عنده من يكتبه، ولا يحسن تأجيله. ففهمت وأنشأته له إنشاء من يسابق قلمه فكره، فازداد عجبه مني، ووعدني بنشر المقالة غداة الغد.

خرجت من إدارة الجريدة وأنا أتلمس جانبي أنظر هل نبتت لي أجنحة أطير بها لفرط ما استخفني من السرور، ولو أني بويعت بالإمارة أو أعطيت البشارة، ما فرحت أكثر من فرحي بهذا الوعد.

وسرت كأني راكب حوامة، ولم تكن قد اخترعت الحوامات، فأنا أمشي على الأرض ولكن لا تمس أقدامي الأرض، وما أحسبني نمت تلك الليلة ساعة، ولو نمتها لحلمت فيها بما ينالني من المجد حين ينشر المقال فيقرؤه الناس، فيدعون أعمالهم، ويتركون ما بأيديهم، ليشيروا إليّ فيقولوا: هذا هو كاتب المقالة. وجعلت أترقب الصباح ترقب عاشق هيمان، ينتظر وصلاً بعد طول هجران، حتى إذا انبثق الصباح، نزلت فأخذت الجريدة، فإذا فيها المقالة وبين يديها كلمة ثناء لو قيلت للجاحظ لرآها كبيرة عليه.

رحمك الله يا أبا بسام، ورحم تلك الأيام.

لقد نشرت بعدها أكثر من أربعة آلاف مقالة، فما عرفت مثل تلك الفرحة. إن الفرحات الأولى لا تعاد، ترى الكعبة ألف مرة فلا تحس أمامها مثل الذي أحسسته في المرة الأولى، وتقرأ القصة مرات فلا تشعر بالمتعة التي شعرت بها عند القراءة الأولى، وتعاشر زوجتك سنوات وسنوات فلا تجد فيها كلها ليلة كالليلة الأولى.

* * *

وعدت إلى احتراف الصحافة سنة ١٩٣٠ وحديث هذه العودة في (العدد) القادم، إن أحياني الله إلى العدد القادم.

الفهرس

المقدمة ٥

الحلقة (١)

ذكريات لا مذكِّرات ٩

الحلقة (٢)

من ذكرياتي عن دمشق ١٧

الحلقة (٣)

من الكتّاب إلى المدرسة التجارية ٢٥

الحلقة (٤)

من ذكريات الطفولة ـ ذكرياتي عن الحرب العالمية الأولى ٣٣

الحلقة (٥)

من ذكريات الطفولة أيضاً ٤١

الحلقة (٦)

من المدرسة التجارية إلى المدرسة السلطانية، ومن العهد التركي إلى العهد العربي ٤٩

الحلقة (٧)

في المدرسة السلطانية ٥٧

الحلقة (٨)

منعطف خطير في تاريخ سوريا ٦٥

الحلقة (٩)

عهد جديد في حياتي، وذكرياتي عن الجامع الأموي ٧٣

الحلقة (١٠)

من جوار الأموي إلى سفح جبل قاسيون ٨١

الحلقة (١١)

فصل جديد في تاريخ الشام ٨٧

الحلقة (١٢)

في امتحان الشهادة الابتدائية، خطبتي الأولى وتهجّمي على الفرنسيين ٩٥

الحلقة (١٣)

في ثانوية «مكتب عنبر»، ومرحلة خصبة وهامة في حياتي ١٠٣

الحلقة (١٤)

في مكتب عنبر ١٠٩

الحلقة (١٥)

أساتذتي في مكتب عنبر ١١٥

الحلقة (١٦)

أساتذتي في مكتب عنبر أيضاً ١٢٣

الحلقة (١٧)

من مصر إلى الشام ١٣١

الحلقة (١٨)

جدي الشيخ أحمد الطنطاوي ١٤١

الحلقة (١٩)

عود للحديث عن مكتب عنبر.................. ١٤٩

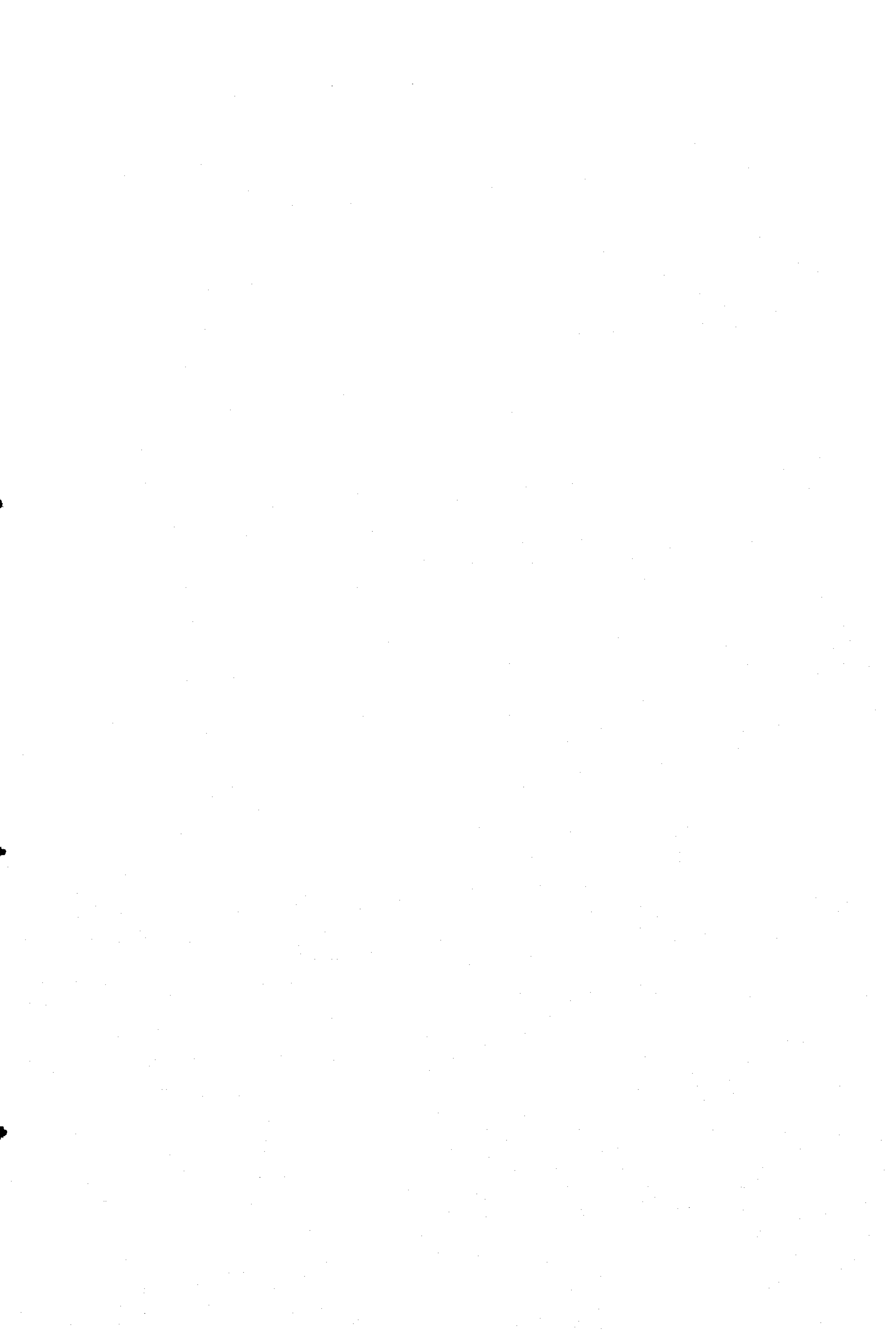
الحلقة (٢٠)

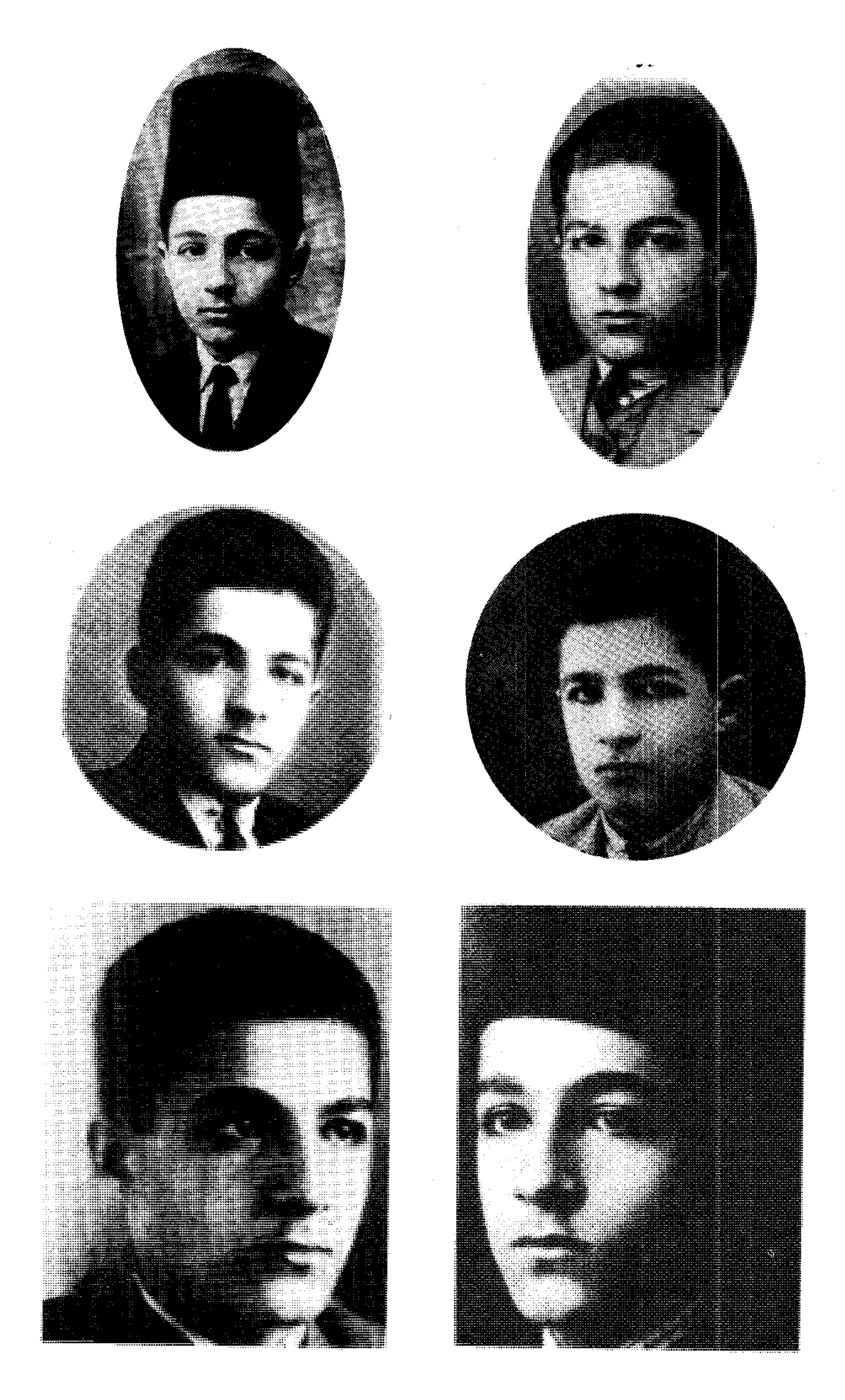
شغلي الدائم المطالعة ١٥٩

الحلقة (٢١)
ثورة في المدرسة ١٦٧
الحلقة (٢٢)
صفحة جديدة في سِفْر حياتي ١٧٥
الحلقة (٢٣)
لمّا صرت تاجراً ١٨٣
الحلقة (٢٤)
مشايخي خارج المدرسة ١٩١
الحلقة (٢٥)
أسرة الخطيب وبعض أسر دمشق العلمية ١٩٩
الحلقة (٢٦)
الثورة على الفرنسيين ٢٠٧
الحلقة (٢٧)
كيف انطلقت الثورة ٢١٧
الحلقة (٢٨)
شعر الثورة في مكتب عنبر ٢٢٥
الحلقة (٢٩)
من شعر الثورة ٢٣٣
الحلقة (٣٠)
النجاح في البكالوريا والسفر إلى مصر ٢٤١
الحلقة (٣١)
اليوم الأول في مصر ٢٤٩
الحلقة (٣٢)
ظهور الدعوة الإسلامية في مصر ٢٥٧

الحلقة (٣٣)
العودة إلى دمشق وإنشاء جمعية الهداية الإسلامية ٢٦٥
الحلقة (٣٤)
تقلّبات على الطريق ٢٧٥
قسم الصور ٢٨٧

قســـم الصــور





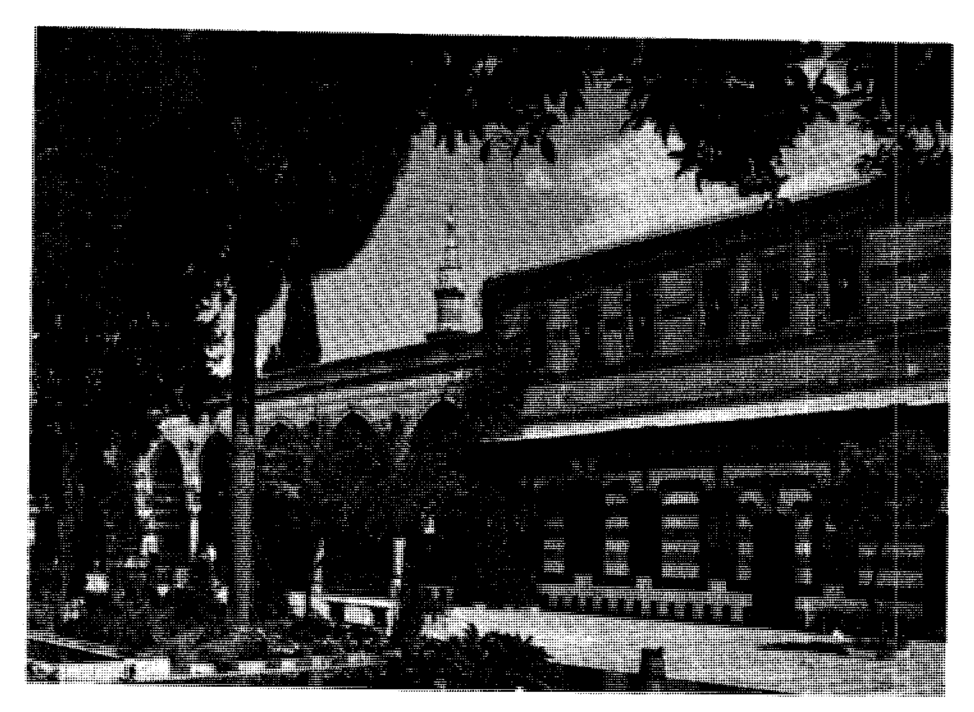
علي الطنطاوي في الصبا والشباب



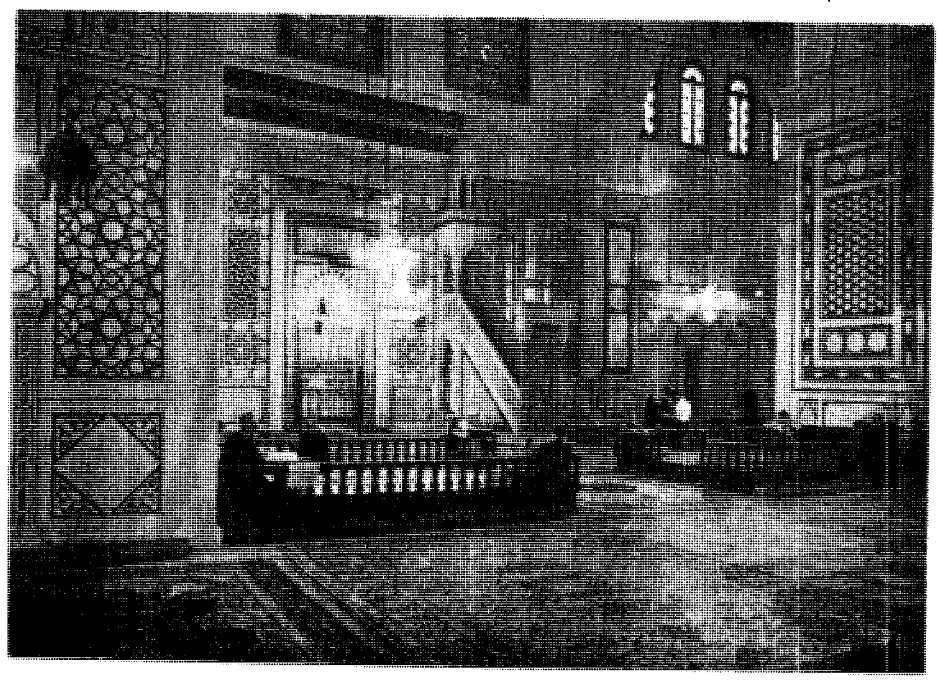
ساحة المرجة في دمشق



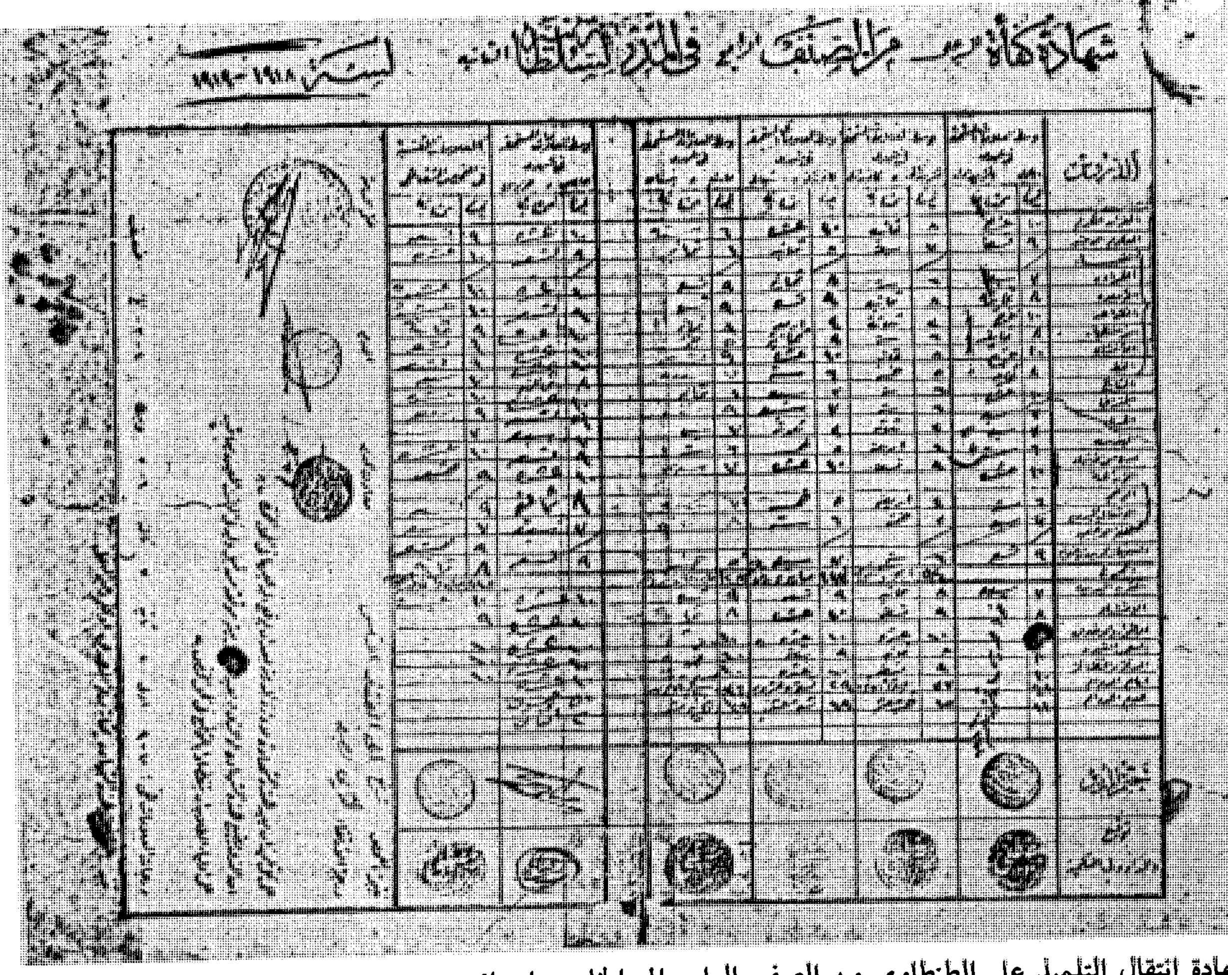
صورة أخرى لساحة المرجة بدمشق



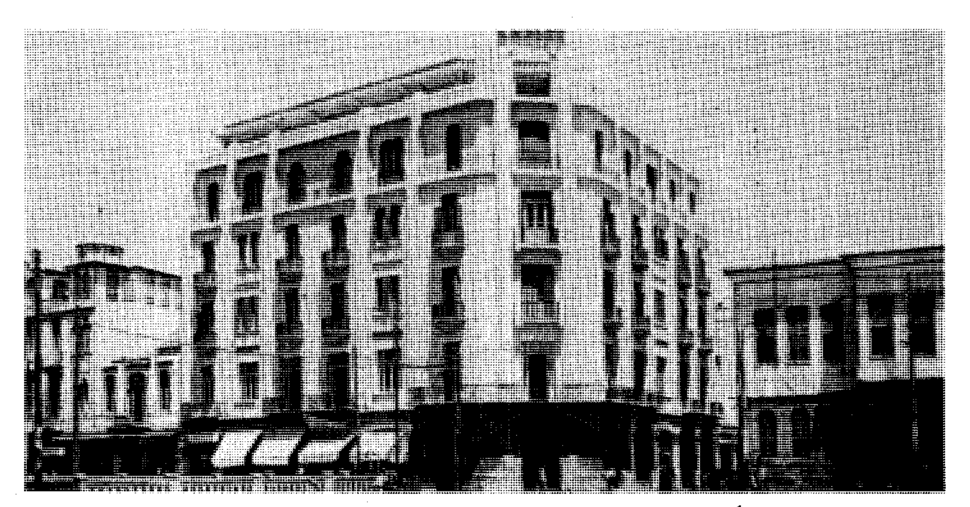
قصر العظم في دمشق



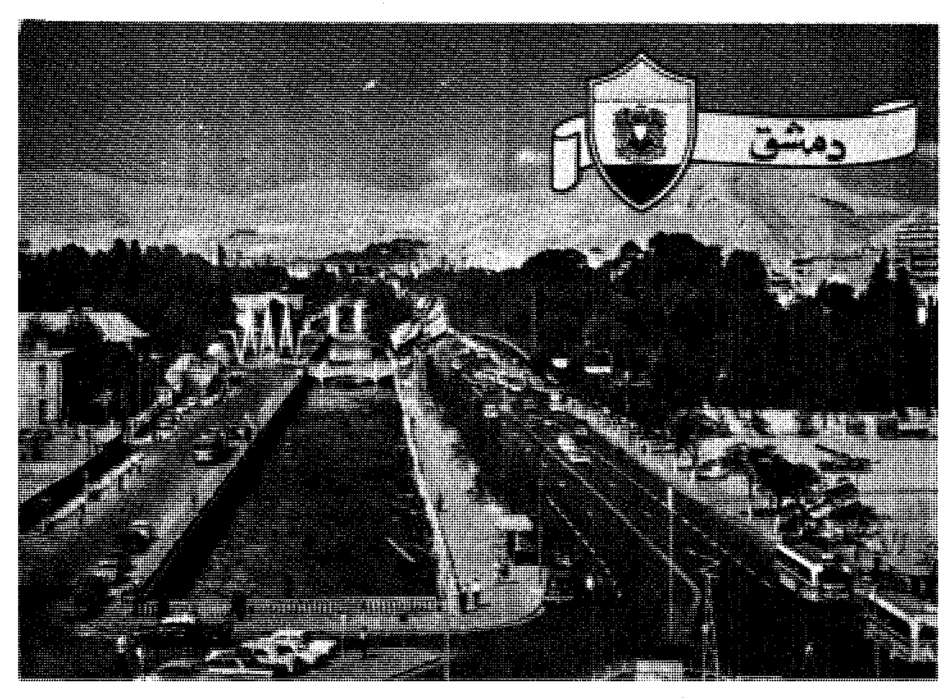
الجامع الأموي في دمشق



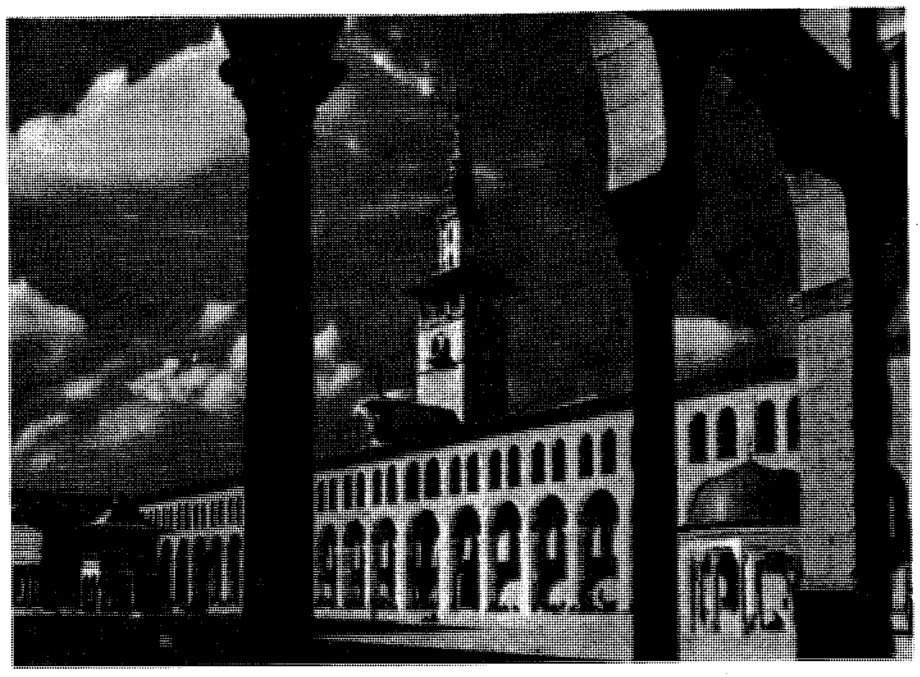
شهادة انتقال التلميذ علي الطنطاوي من الصف الرابع إلى الخامس ابتدائي



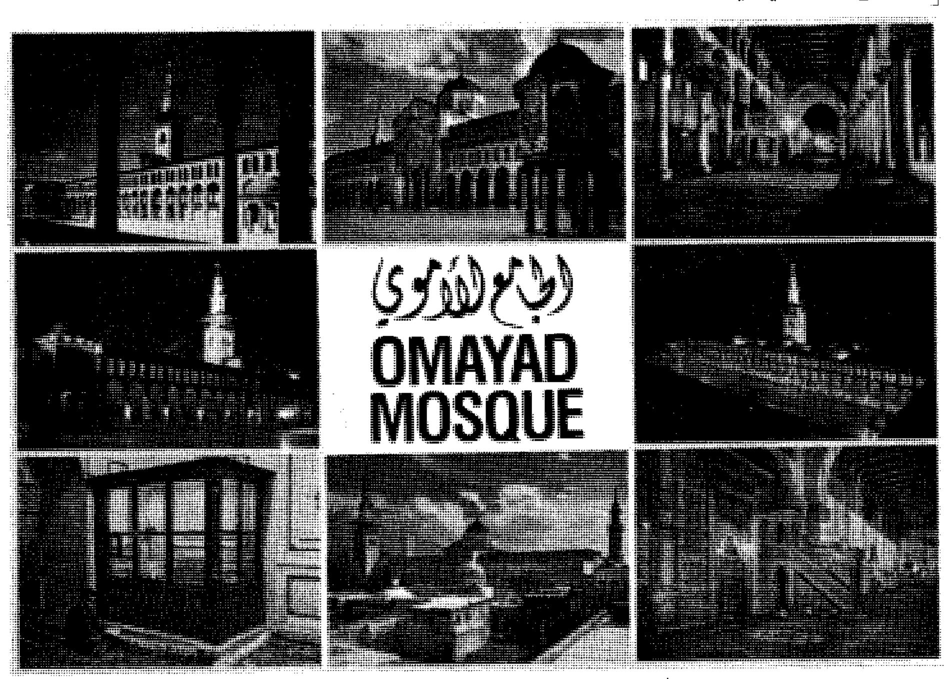
صورة العدلية قديماً في دمشق



المدرسة السلطانية الثانية التي صارت كلية الحقوق ثم مديرية التربية في دمشق



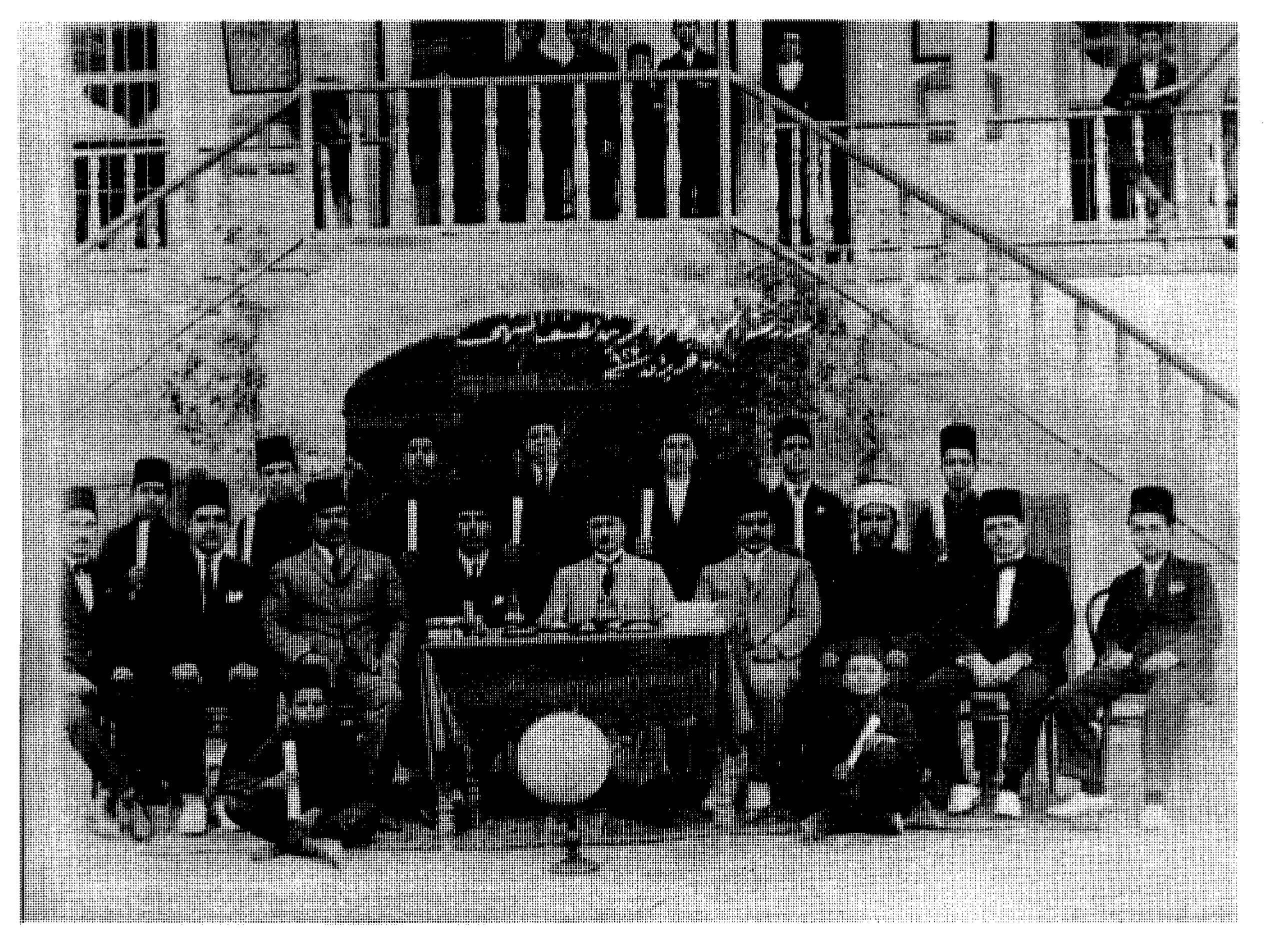
الجامع الأموي في دمشق



الجامع الأموي في دمشق



علي الطنطاوي عام ١٣٤٢ هـ



علي الطنطاوي حينما حصل على الشهادة الابتدائية وهو الجالس على الأرض على يمين الصورة



شهادة الكفاءة التي حصل عليها علي الطنطاوي في العام الدراسي ١٩٢٣ - ١٩٢٤ م



علي الطنطاوي في مدرسة مكتب عنبر



علي الطنطاوي في الصف العاشر - شعبة الأدب



صورة لأساتذة مكتب عنبر مع الخريجين عام ١٩١٢ في بستان آل البكري بالقابون



صورة أخرى للأساتذة والخريجين في ذلك البستان تجلّى فيها تواضع الأساتذة في جلوسهم متربعين على الأرض

بعض أساتذة علي الطنطاوي في مكتب عنبر


الأستاذ سليم الجندي


الأستاذ جودت الكيّال


الأستاذ يحيى الشماع


الأستاذ محمد علي الجزائري

صورة ثانية لبعض الأساتذة في مكتب عنبر



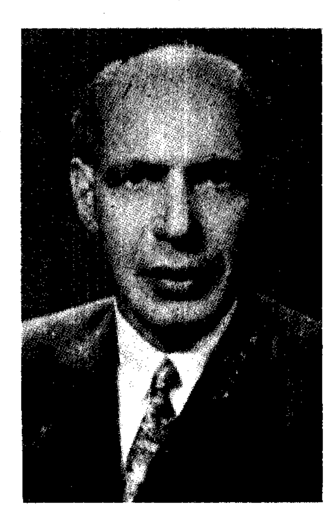
الأستاذ جودت الهاشمي



الأستاذ مسلَّم عنايه



الأستاذ هاشم الفصيح

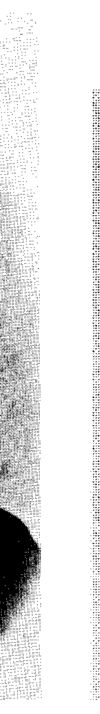


الأستاذ كامل عيّاد

صورة ثالثة أيضاً لأساتذة المكتب



الشيخ محمد الداوودي



الشيخ عبد القادر المبارك



الأستاذ حسن يحيى الصبّان



الشيخ عبد الرحمن سلام

من علماء دمشق في القرن الرابع عشر هجري



الشيخ جمال الدين القاسمي



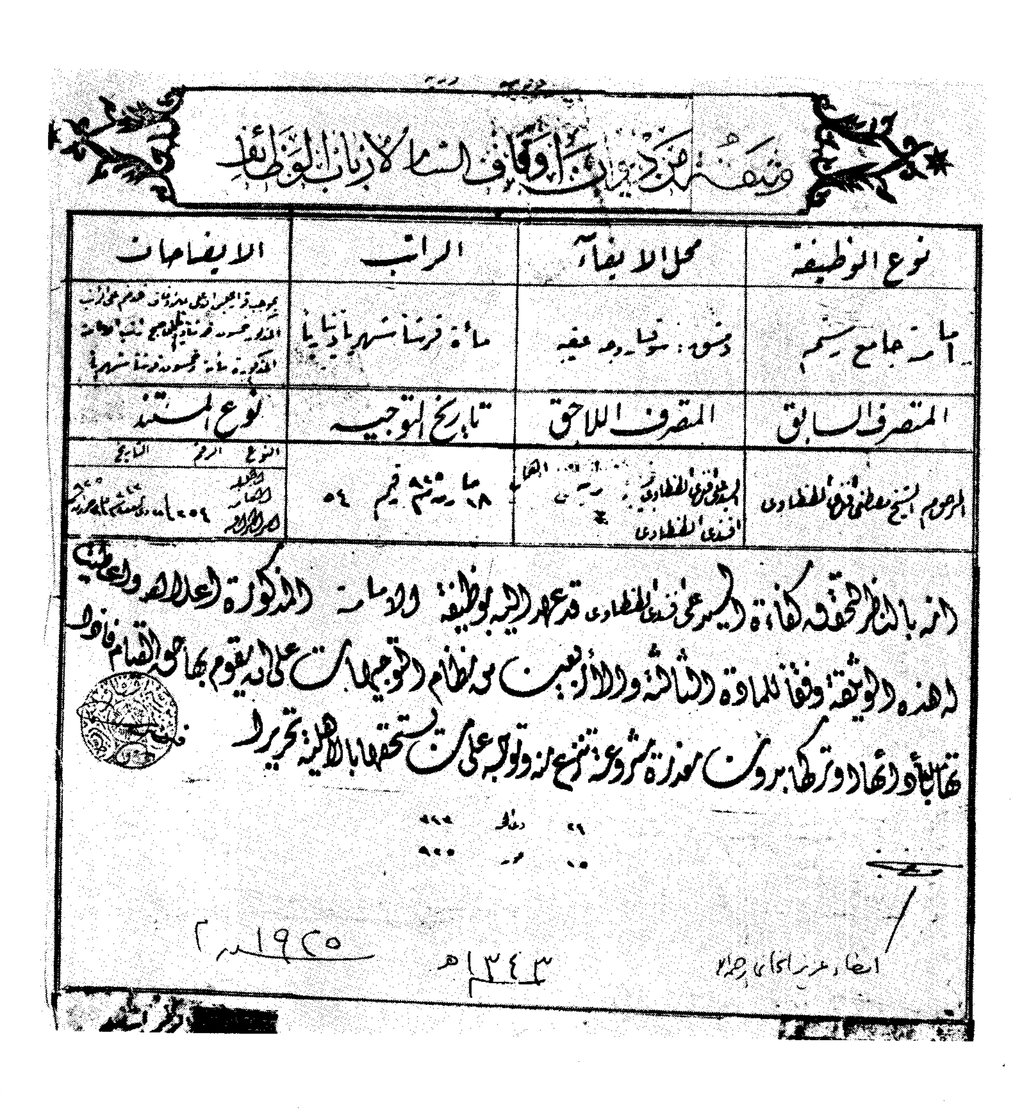
الشيخ أبو الخير الميداني



الشيخ علي الدقر



مكافأة مدرسية لعلي الطنطاوي على حسن سلوكه واجتهاده



وثيقة من ديوان أوقاف الشام لأرباب الوظائف

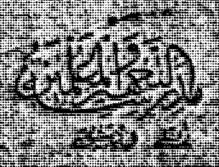
نوع الوظيفة	محل الإيفاء	الراتب	الإيضاحات
إمامة جامع [illegible]	دمشق : [illegible]	مائة قرشاً شهرياً [illegible]	بموجب قرار المجلس [illegible] [illegible] المذكورة مائة [illegible] قرشاً شهرياً
المتصرف السابق	**المتصرف اللاحق**	**تاريخ التوجيه**	**نوع المستند**
المرحوم الشيخ مصطفى فوزي [illegible]	السيد علي فوزي [illegible] [illegible] أفندي [illegible]	٨ مايس سنة [illegible] رقم ٥٤	النوع: القرار — الرقم: ٢٠٤ — التاريخ: [illegible]

انه بالنظر لتحقق كفاءة السيد علي فوزي [illegible] قد عهد إليه بوظيفة الإمامة المذكورة أعلاه والعلاوة وأعطيت له هذه الوثيقة وفقاً للمادة الثالثة والأربعين من نظام التوجيهات على أنه يقوم بها حق القيام فإذا تهاون بأدائها وتركها بدون معذرة مشروعة تنزع منه وتوجه على من يستحقها بالأهلية تحريراً

١٩٢٥م

١٣٤٣هـ

LYCÉE & ECOLE NORMALE
à DAMAS



سجل الأعمال

LIVRET SCOLAIRE

Classe ________ صف

Nom de l'élève ________ اسم التلميذ

Année 192 سنة ١٩٢

عن ثلاثة اشهر

	ملاحظات الاساتذة
عربي	حسن الجد والخلق [illegible]
انكليزي	حسن [illegible] [illegible]
اجتماعيات	حسن الاخلاق والاجتهاد [illegible]
رياضيات	اخلاقه فاضلة نشيط الاجتهاد [illegible]
طبيعيات	
كيمياء	
رسم	مجتهد عاقل [illegible]
الدين	[illegible] [illegible]

توقيع الولي
SIGNATURE DES PARENTS

توقيع المدير
LE DIRECTEUR

في الفحص التحريري الثاني

Cours	Notes obtenues	M,	المعدل	العلامات المكتسبة	درس
Instruction relig.			٩	١٠	الدين
Langue arabe			٩	١٠	العربية
Composition arabe			٨	٨	الانشاء
Langue française			٨	٨	الافرنسية
Composition »			٧	٦	الانشاء
Histoire générale			٨	٩	التاريخ العام
» ancienne			٨	٩	التاريخ القديم
Géographie			٨	١٠	الجغرافيا
Arithmétique					الحساب
Géométrie			٧	٨	الهندسة
Algebre			٤	٦	الجبر
Comptabilité					مسك الدفاتر
Trigonométrie			٧	٨	المثلثات
Mécanique					الميكانيك
Cosmographie					الفلك
Physique					الحكمة
Chimie					الكيمياء
Physiologie					منافع الاعضاء
Botanique					علم النبات
Zoologie					علم الحيوان
Géologie					طبقات الارض
Economie					الاقتصاد
Philosophie					الفلسفة

Deuxième examen écrit

Cours	Notes obtenues	M,	المعدل	العلامات المكتسبة	درس
Psychologie					فن التربية
Pédagogie					اصول التدريس
Travail manuel					الاشغال اليدوية
Dessin d'art					الرسم الفني
Dessin géométrique			٧	٧	الرسم الهندسي
Musique					الموسيقى
Gymnastique					الرياضة البدنية
Manipulation					تطبيقات عملية

ABSENCES التغيب : ٦ PRÉSENCES الدوام : ٦٠

CONDUITE السلوك: ١٠ PLACE الدرجة: ١ اول

توقيع الولي
SIGNATURE DES PARENTS

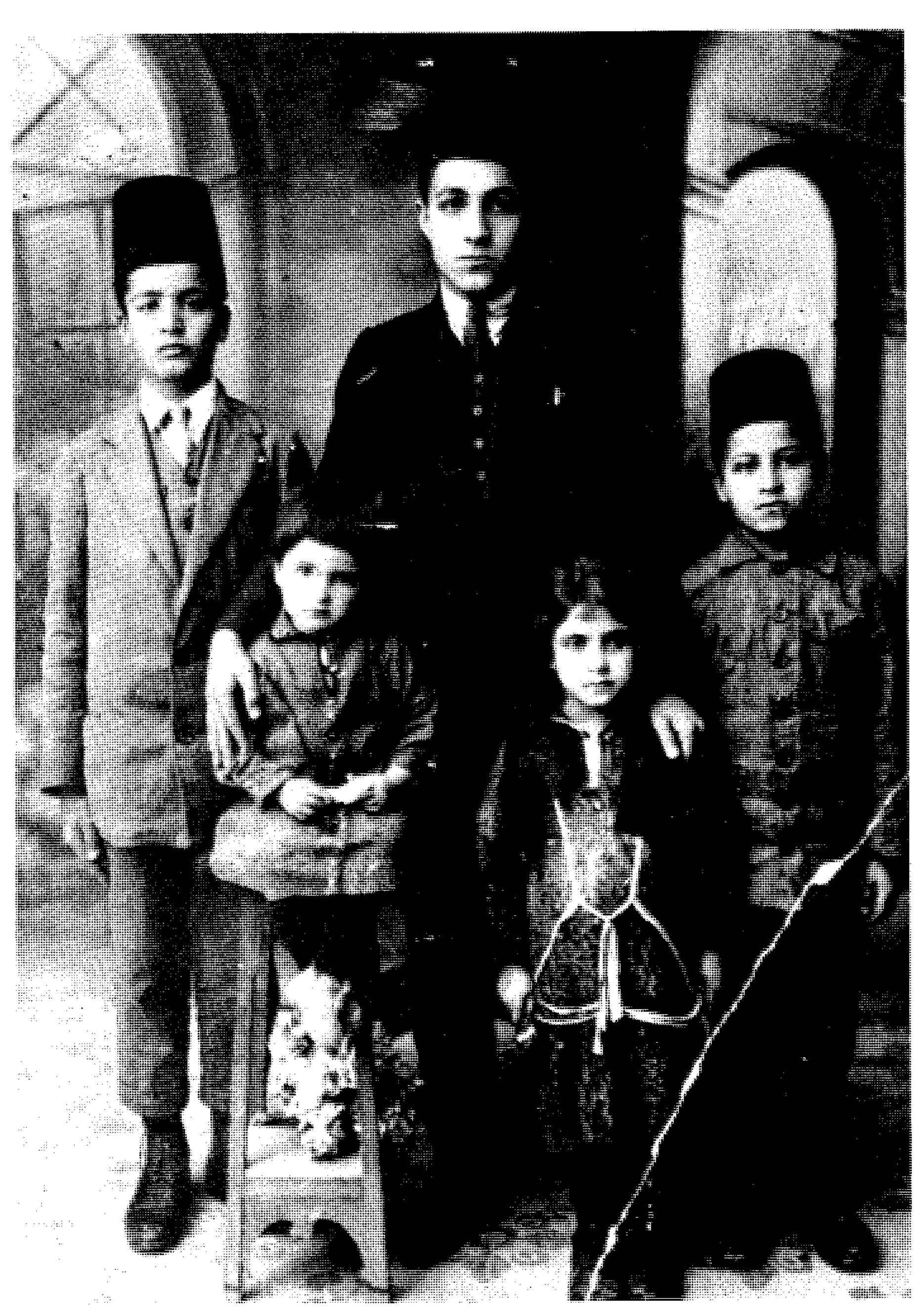
توقيع المدير
LE DIRECTEUR

درجاتي بعد عودتي الى المدرسة
وتركي التجارة وكنت (الأول) بدرجاتي
طاهر

ترجمة لوالد علي الطنطاوي بخطه، وقد كتبها نظماً وبخط فارسي جميل، وقدّمها لنائب مركز سوريا ليصدّق عليها، فأجابه من البحر نفسه، والقافية ذاتها:

العِلمُ في نــاظِـمِهَـا مُحقَّقْ   ومـا حـوىٰ جَميعُـهُ مُصـدّق ـ رمضان ١٣٢٨ هـ ـ

صفحتان من مسوّدات عمل عظيم، قام به والد علي الطنطاوي وأحصى فيه زيادات القاموس المحيط على لسان العرب، فبلغت نحو ألف مادة.



صورة لعلي الطنطاوي وإخوته:
ناجي، وعبد الغني، ومحمد سعيد، ومعهم أختهم الصغيرة.





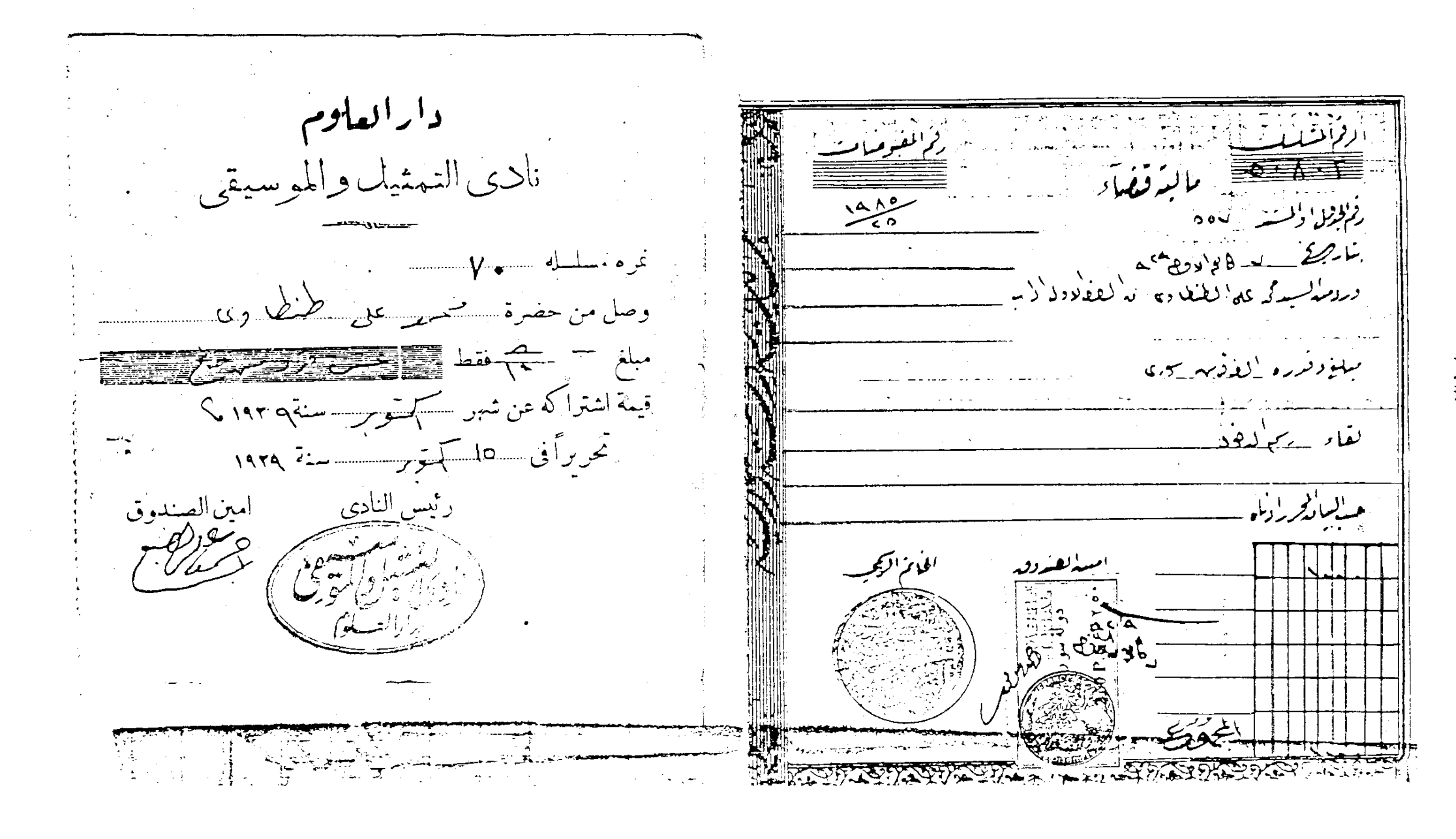
علي الطنطاوي في عام ١٣٤٨ هـ



حسن البنا رائد الدعوة
الإسلامية في العصر الحديث



علي الطنطاوي
أنور العطار ـ مظهر العظمة.



دار العلوم
نادى التمثيل والموسيقى

نمره مسلسله ٧٠
وصل من حضرة محمد على طنطاوى
مبلغ ١٢ فقط
قيمة اشتراكه عن شهر اكتوبر سنة ١٩٢٩
تحريراً فى ١٥ اكتوبر سنة ١٩٢٩

رئيس النادى
امين الصندوق

الرقم المسلسل ٥٠٨٠٢
رقم المقبوضات ١٨٥/٢٥
مالية قضاء
رقم الجزء والسند ٥٥٥
بتاريخ
ورد منه السيد محمد على الطنطاوى
مبلغ وقدره
لقاء
حسب البيان المحرر ادناه
امين الصندوق
الحاكم الركن
المجموع

لمعالي وزير المعارف السورية ، الموقر

ارفع لمعاليكم :

اني تقدمت الى معهد الحقوق - بكالوريا الثانية - متأخراً، فلم اقبل ، مع اني قبلت في العام الماضي ، ومع ان تأخري كان اضطرارياً لغيابي في مصر

فإن رأيتم اصدار أمركم الكريم بقبولي في المعهد حفظاً لمستقبلي من ان يضيع فلكم تفضله

١٤ نيسان سنة ١٩٢٩

محمد علي ...

الى معالي رئيس الجامعة السورية الافخم

يا وزير المعارف

هذا توقيع شفيق جبري

سنة ١٩٢٩ م